
تصوير ابو عبدالرحمن الكردي
موسوعة
الأمن والإستخبارات في العالم
تأليف د. صالح زهر الدين
ملف الإستخبارات الألمانية

موسوعة

الأمن والاستخبارات في العالم

الجزء الخامس

ملف الاستخبارات الألمانية

د. صالح زهر الدين

المركز الثقافي اللبناني

المركز الثقافي اللبناني

للطباعة والنشر والتاليف والترجمة والتوزيع

بيروت ـ هاتف: ٠٥/٤٦١١٧٧٧ ـ ٠٥/٤٦١٨٨٨ ـ ٠٢/٧٥٣٦٦٣

الطبعـة الأولـى

٢٠٠٣

ملف الاستخبارات الالمانية



المخابرات الألمانية

ان استخبارات المانيا الغربية هي أكبر سنّاً من الدولة نفسها، التي أعلن عن قيامها عام ١٩٤٩ بعد الحرب العالمية الثانيه. ذلك لأن مؤسسها الجنرال «راينهارت غيلن» (المعروف «بجاسوس العصر») هو الذي أنشأها لحساب الدولة الأميركية، وقبل أن تفكر الولايات المتحدة بتأسيس ما يسمى اليوم «وكالة المخابرات المركزية».

أما قبل الحرب العالمية الثانية، فكانت المخابرات الالمانية، في عهد الهتلريين النازيين تعرف بـ «الغستابو»، يرتعب الإلمان من هذا الاسم ويدخل الخوف الى قلوبهم من جراء سماعه، باعتباره آلة حقيقية للموت والدمار والبطش والتعذيب. ولقد خلق جهاز الغستابو عقدة نفسية عند الالماني العادي، سواء أكان نازياً أم لم يكن، حيث كان على رأس هذا الجهاز جنرال لا يعبد إلا أدولف هتلر. واسمه «هنريخ هملر»، فضلاً عن مساعدين له، لا يقلّون قساوة وبطشاً ورعباً عن معلّمهم.

أما الجنرال «راينهارت غيلن» فقد كان من جنرالات المانيا الأذكياء والأقوياء في عهد هتلر النازي نفسه؛ وكان يترأس مؤسسة «جيوش الشرق» (على الجبهة السوفياتية)، وهي المؤسسة الاستخبارية العسكرية العليا للجبهة كلها آنذاك.

وفي الوقت الذي أدرك فيه غيلن هزيمة الرايخ الثالث وانهياره، كان قد قرّر الحفاظ على مؤسسة «جيوش الشرق» بأيّ ثمن.

وعلى هذا الأساس، أعطى تعليماته بأن تنقسم المؤسسة الى فروع

ثلاثة؛ على أن يجمع كل فرع منها خبراء في كل الحقول. فإذا ما حدث أن قضي على فرعين من الثلاثة تحت أي ظرف كان، يبقى هنالك فرع ثالث ثابت، ومستقر، ومستمر في الوجود. وعلى كل فرع من هذه الفروع الثلاثة أن يحتفظ بجردة كاملة من المِيكروفيلم تتضمن كل موجودات المؤسسة من وثائق ومعلومات. أما رؤساء الفروع الثلاثة، فعليهم، أن يحاولوا الإبقاء على الاتصال فيما بينهم..

هذا، وبعد ما عبرت الجيوش السوفياتية نهر أودر (جزء من الحدود الحالية بين بولونيا والمانيا الشرقية) وصار مرتقباً وصولها الى برلين، أعطى غيلن الأمر لمؤسسته بالرحيل من «تسوسن» (على مقربة من برلين) الى باڤاريا في الجنوب. وعلى الفور رحل جميع أركان وموظفي المؤسسة باتجاه الجبال الباڤارية. كلهم تلقوا الأمر: ممنوع الاصطدام المسلح بالعدو.

وعندما وصل رجال مؤسسة «جيوش الشرق» الى بلدة ميسباخ في باڤاريا، أعطى غيلن الأمر بأن تتفرّق الفروع الثلاثة، وأن يقصد كل منها المكان المقرر له للإختباء، على أن يتولى السعاة تحقيق الاتصال الدائم حسب الظروف، في ما بينها.

وعلى الأثر، ترك غيلن ورفاقه سياراتهم على الطريق وحملوا وثائقهم السرّية وانطلقوا سيراً على الأقدام الى قمّة الجبل، حيث يقع كوخ كبير. وفي هذا الكوخ قرّر غيلن البقاء وانتظار الأميركيين لأخذه أسيراً. وانقضى يومان ولم يحصل شيء. أما في اليوم الثالث فقد رأى غيلن بالمنظار قوة أميركية تعبر الوادي باتجاه النمسا دون أن يبدو عليها أنها مستعدة للتوقف، اذ لم تكن أمامها قوات المانية لمقاتلتها. فلم يكن من غيلن إلا أن أرسل واحداً من رجاله الى الوادي في مهمة تقضي بأن يتصرّف وكأنه من أهالي المنطقة، وأن يُعْلم القوات الأميركية عن وجود جنرالات إلمان هاربين ومعتصمين في أعالي الجبل. وبعد أخذ وردّ، قرّر الأميركيون إرسال قوّة الى رأس الجبل؛ فلما وصلت الى المكان، أعلنت عن وجودها عبر طلقات الرشاشات، ثم فتحت

الباب ودخلت الكوخ.

وهناك كان الجنرال غيلن ورفاقه ينتظرون على أحرّ من الجمر الآسرين الأميركيين. وعلى الفور أعطوا أسماءهم كاملة مع رتبهم، مع أن هذا ليس مطلوباً من الضباط الكبار. وسار الجميع نزولاً من الجبل الى الطريق، فيما بقيت أكداس الميكروفيلم مطمورة تحت أرض الكوخ. وفي الشهرين التاليين، كان غيلن عرضة لاستجوابات كثيرة، لكن المحققين لم يكن لهم أي اهتمام خاص بالمعلومات السرّية عن «الحلفاء» السوفيات. كان همّ الأميركيين بالدرجة الأولى آنذاك ينصبّ على البحث عن كبار المسؤولين النازيين للإقتصاص منهم. ومع ذلك لم يقطع غيلن الأمل بأن يأتيه محقّق اميركي يستطيع أن يقدّر قيمة المعلومات الاستخبارية التي لديه، والأرشيف الضخم النادر الوجود، عن الاتحاد السوفياتي والدول الدائرة، في فلكه. وسرعان ما خرج هذا المحقّق الأميركي الى الوجود في شهر حزيران/ يونيو ١٩٤٥، فكان الجنرال «وليم دونوڤان» رئيس «مكتب العمليات الاستراتيجية» الأميركي في المانيا.

أمضى الجنرال دونوڤان بضع ساعات مع غيلن واستمع الى آرائه حول نيّات السوفيات في فترة ما بعد الحرب، واقتنع بأنه عثر على رجل خبير محنّك وصاحب معلومات عن الاتحاد السوفياتي قلّ توّفرها عند رجل أو مؤسسة غيره. وفي الوقت نفسه وجد غيلن أن الفرصة قد سنحت للتحدّث عن الوثائق السرّية المخبأة، وعن مؤسسته التي لا تزال عميقة التوغّل في قلب الاتحاد السوفياتي.

وعلى الفور، خابر الجنرال دونوڤان، البنتاغون في واشنطن بالأمر على جناح السرعة. ولم يَنْقَضِ إلا زمن قصير، حتى طار غيلن ورفاقه المساعدين الى الولايات المتحدة.

وفي البنتاغون جرت اجتماعات كثيرة بحضور كبار رجال الاستخبارات العسكريين الأميركيين. وقد تحدّث غيلن في هذه الاجتماعات بإسهاب عن

أن الوثائق التي بحوزته تثبت نيّة الاتحاد السوفياتي في متابعة سعيه للسيطرة على أوروبا بكاملها. وبعد ذلك تقدّم بالاقتراحات التي يؤمن العمل بها وقف هذا المخطط.

وفي اللحظة الملائمة، وبعدما شعر غيلن أنه اقنع الأميركيين بكل ما قاله لهم، عرض عليهم التعاون بين مؤسسته ومكتب العمليات الاستراتيجية الأميركي. فوافق الأميركيون فوراً.

ولكن الغرابة، أنه عندما بدأ البحث في تفاصيل التعاون وكيفيّته، راح الجنرال غيلن (المهزوم والمأسور) يضع شروطه (وكأنه في عزّ انتصاره). وقد تمحورت شروطه حول الآتي:

أولاً: تبقى مؤسسة غيلن ذات طابع الماني صرف.

ثانياً: كل رجال مؤسسته يبقون تحت أمرته هو.

ثالثاً: يحق له التعاقد مع من يشاء دون أي اعتراض.

رابعاً: التمويل المادي للمؤسسة يقع على عاتق الأميركيين.

خامساً: لا يحق لأي عضو في مؤسسته أن يجبر على القيام بأيّ نشاط يخالف مصلحة المانيا.

سادساً: يبقى هذا الوضع على حاله، وفق هذه الشروط، الى أن يجري تشكيل حكومة المانية، تتولّى من جانبها وضع هذه المؤسسة تحت حمايتها وبتصرّفها (وهكذا كان).

والواقع أن الأميركيين (المنتصرين)، برهنوا من خلال ذلك، وكأنهم هم المهزومون إزاء شروط الجنرال (المأسور)، لأنهم كانوا بحاجة ماسة اليه والى أمثاله، خاصة أنه كان ذا قيمة مخابراتية بالغة الأهمية، كما كانت مؤسسته متكاملة العمل والخبرة والرجال وضرورية لهم. بالإضافة الى أن الأميركيين لو لم يقبلوا بذلك (أي بهذه المؤسسة القائمة والجاهزة)، لكان

عليهم أن يؤسسوا واحدة مثلها وعلى حسابهم وبملايين الدولارات.

هذا، ومما زاد الثقة الأميركية بالجنرال غيلن، أن بعض الأحداث التي حصلت عام ١٩٤٥ بالذات، جعلت الأميركيين يبدؤون التنبّه الى المخططات السوفياتية (ذات البعد التوسعي)، والتي سبقتها معلومات غيلن عنها بفترة. ثم جاءت عملية هروب ضابط الاستخبارات السوفياتية «إيغور غوزنكو» الى الغرب (كندا)، وكشفه عن شبكة الاستخبارات السوفياتية المنتشرة في أميركا، فتعزّزت الثقة بغيلن ومؤسسته، وانتفت على أثرها شكوك كثيرة حوله.

وهكذا، بدأ الجنرال غيلن عمله في مؤسسته الجديدة، في المباني المحاطة بالأسوار لمكتب العمليات الاستراتيجية في فرانكفورت، وباندفاع أكبر مع رجاله ضد الاتحاد السوفياتي، عبر الاتصال الوثيق بعملائه السابقين في أوروبا الشرقية، في الوقت الذي كان فيه زملاؤه ورفاقه من ضباط «الغستابو» يساقون الى المحاكم والإعدام.. وفي عام ١٩٥٦، انتقل غيلن ومؤسسته (التي أطلق عليها اسم الاستخبارات الاتحادية) من فرانكفورت الى بلدة «بولاخ» قرب مدينة ميونيخ، عاصمة ولاية بافاريا، وجعل من مجموعة مبانٍ كانت سابقاً مقراً لكبار الموظفين في الحزب النازي، ومن مباني ثكنة عسكرية سابقة، مقراً عاماً للمؤسسة. وكل هذه المباني سيّجت بجدار عالٍ وبالأسلاك الشائكة، بشكل فصلها نهائياً عن بقية العالم، ووضعت لها فرقة المانية مسلحة خاصة لحراستها؛ كما جهزت بآلات الكترونية حديثة وحسّاسة جداً.

وهكذا، غدت هذه المؤسسة، بفضل الجنرال غيلن (الذي فرض احترامه على الأميركيين فرضاً)، من أهم أجهزة التجسس بعد الحرب العالمية الثانية، والنموذج الحيّ للقادة الذين يحكّمون عقولهم لخدمة المصلحة العليا لأوطانهم؛ وقد تقاعد الجنرال غيلن عام ١٩٦٨، بعد ترؤس الاستخبارات الالمانية الغربية طوال ٢٢ سنة؛ أولاً تحت اسم «مؤسسة غيلن» من ١٩٤٥ حتى ١٩٥٦، وثانياً تحت اسم «الاستخبارات الاتحادية» من سنة ١٩٥٦ حتى

موعد تقاعده. وقد طبع المؤسسة بطابعه الخاص، وجعل عملها يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالخطوط العامة التي رسمها هو لها. كما كان له فضل أساسي على مؤسسته يتمثل في أنه جعلها غير تابعة، لا لوزارة الدفاع، ولا لوزارة الداخلية، بل ترتبط بالمستشار مباشرة.

وعندما بدأ البحث عن بديل له عام ١٩٦٧، قال غيلن: «خليفتي يجب أن يكون رجل اختصاص من الطراز الأول، ويجب أن يقع الاختيار عليه وأنا لا أزال في مركزي..».

وهكذا جيء بتلميذه وصديقه الجنرال «غيرهارد فيسيل» خلفاً له. وقد كان من كبار مساعديه منذ أيام «جيوش الشرق»، حيث يعتبر صاحب خبرات واسعة في الشؤون العسكرية والاستخبارية، ومن النموذج الذي أوصى به غيلن أن يكون خليفته. وليس من المستغرب أن يكون للجنرال غيلن نفسه دور أساسي في اختياره لهذا المنصب في أيار/ مايو ١٩٦٨.

هذا، ولم يكن الجنرال فيسيل نشيطاً ضمن الاستخبارات الاتحادية فحسب، بل كان كذلك عضواً فعالاً في «مكتب بلانك» الذي تولّى تحضير إعادة تسليح المانيا، وضابطاً في الجيش الالماني الغربي وفي الاستخبارات العسكرية التابعة له، وعضواً في لجنة حلف الأطلسي في واشنطن.

والجدير بالذكر، أن في المانيا الغربية حالياً ثلاث مؤسسات تتعاطى الاستخبارات ولو على مستويات مختلفة هي:

أولاً: «الاستخبارات الاتحادية» ومهمتها التجسس في الخارج.

ثانياً: «المكتب الاتحادي لحماية الدستور» الملحق بوزارة الداخلية. تأسس في عام ١٩٥٠، وعيّن رئيساً له «الهر أوتوجون» الذي استطاع الفرار الى لندن عام ١٩٤٤ بعد محاولة اغتيال هتلر، وقد قتل أخوه بسببها؛ فتعاون مع جهاز الدعاية العسكري البريطاني، واستنطق الأسرى من الضباط الالمان النازيين. وقد قوبل تعيينه بنوع من الاستنكار الشديد في المانيا. وقد استمر

في منصبه حتى عام ١٩٧١، عندما خطفته المخابرات السوفياتية الى المانيا الشرقية، فخلفه في منصبه المدعي العام السابق الدكتور «شرو برز».

ثالثاً: الاستخبارات العسكرية الصرفة ومهمتها مراقبة الجواسيس ضمن القوات المسلحة وفي المصانع التي تنتج المعدات العسكرية. وتتبع لوزارة الدفاع.

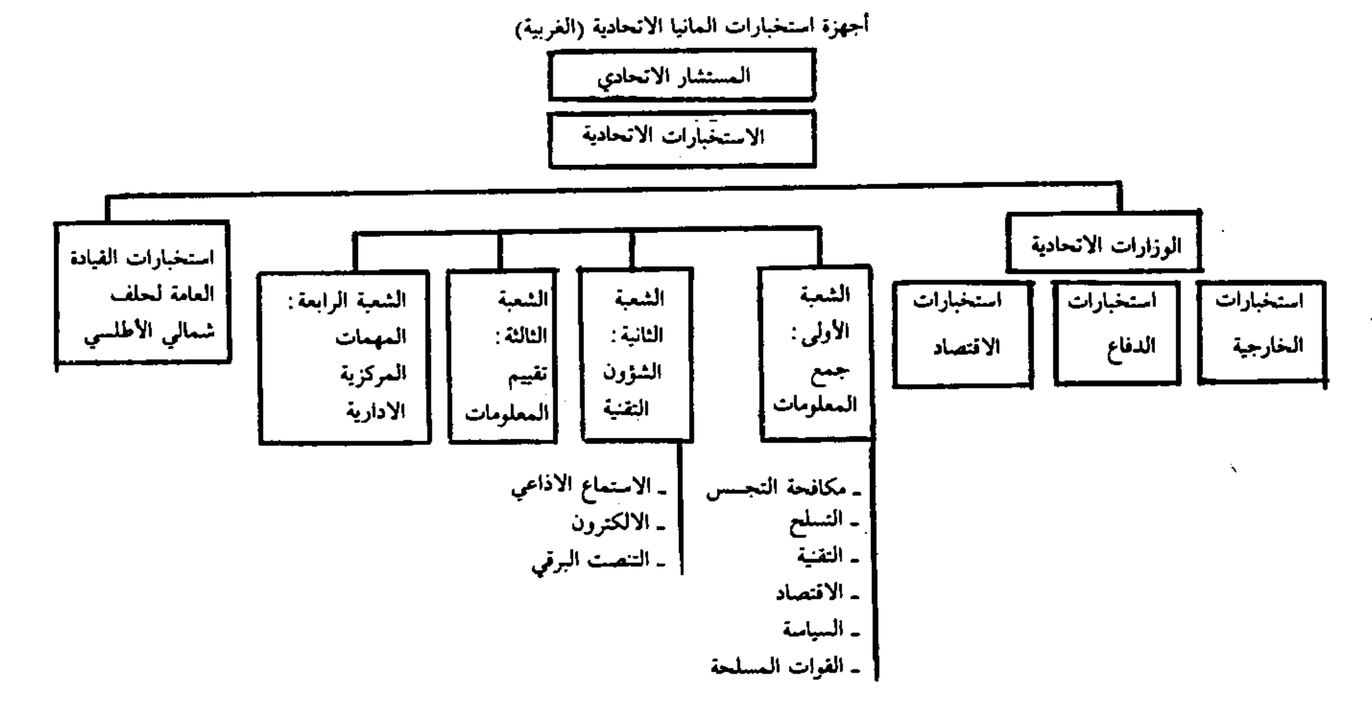
وأخيراً، لابد من الإشارة، الى أن الاستخبارات الاتحادية الالمانية تلعب دوراً وثيقاً في تحالفها مع مخابرات الدول الغربية، والأميركية منها خصوصاً، كما مع المخابرات التركية والاسرائيلية والفورموزية وغيرها. وقد تمكنت أن تحرز نجاحات هائلة في هذا المضمار، حيث يبقى الفضل الأكبر فيما وصلت اليه، للجنرال راينهارت غيلن «جاسوس العصر».

المراجع

١ ـ حافظ ابراهيم خيرالله «الاستخبارات الالمانية الغربية». (ملف عالم الاستخبارات رقم ٦). حزيران/ يونيو ١٩٧١. ص ٥ ـ ٥٠.

٢ ـ سعيد الجزائري «المخابرات والعالم». الجزء الأول. مكتبة الحياة. بيروت. لا. ت. الطبعة الثانية. ص ٣٢٠ ـ ٣٧٥.

٣ ـ نزار عمار «الاستخبارات الاسرائيلية». المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. ص ٢٤٦.



أجهزة استخبارات المانيا الاتحادية (الغربية)
المستشار الاتحادي
الاستخبارات الاتحادية
الوزارات الاتحادية
استخبارات الخارجية
استخبارات الدفاع
استخبارات الاقتصاد
الشعبة الأولى: جمع المعلومات
- مكافحة التجسس
- التسلح
- التقنية
- الاقتصاد
- السياسة
- القوات المسلحة
الشعبة الثانية: الشؤون التقنية
- الاستماع الاذاعي
- الالكترون
- التنصت البرقي
الشعبة الثالثة: تقييم المعلومات
الشعبة الرابعة: المهمات المركزية الادارية
استخبارات القيادة العامة لحلف شمالي الأطلسي



نازيّة المانيا وإحراق الرايخشتاغ

أثبتت تجارب التاريخ، وعبر مرّ العصور، على أن الذي يقود بلاده الى الهاوية، لـن يتورع عن أن يزجّ بالبشرية جمعاء في أتون الموت والدماء. كما أثبتت تجارب التاريخ أيضاً صدق قول شـاعر المـانيا الكبيـر هنريش مـان «أن أولئك الذين يبـدأون بإحـراق الكتب سوف ينتهـون بإحـراق البشر». والنـازية الالمانية في النصف الأول من القرن العشرين هي خير دليل على ذلـك؛ ومن كان جديراً بإحراق العالم كله في حـرب عالميـة كارثـة، لم يجد صعـوبة في إحـراق الـرايخشتـاغ الالمـاني ليتخـذهـا ذريعـة في القضـاء على القـوى الديمقراطية الالمانية قبل الانتخابات البرلمانية بأسبوع واحد عام ١٩٣٣.

فكيف تم ذلك؟ وكيف أحرق النازيون الرايخشتاغ؟.

في السابع والعشرين من شباط/فبراير سنة ١٩٣٣، وفي الساعة الحادية والعشرين وبضع دقائق اندلعت ألسنة النيران فوق قبّة الرايخشتاغ، فملأ دوي صفـارات الانذار ذلـك المسـاء المتجمـد. وحول «مسلّة النصـر»، وعبر بـوابة براندنبورغ BRANDENBURG عكرت سيـارات الاطفاء والشـرطة والمغـاوير سكـون تيـرغـارتن TIERGARTEN، واتجـه هتلر وغـوبلز نحـو الـرايخشتـاغ REICHSTAG بسرعة مئة كيلو متر في الساعة.

وبـدأ مفوضـو الشرطـة على الفور استجـواب الشاب الـذي ألقي عليـه القبض شبـه عارٍ وملطخاً بالسخـام. كـان الشـاب يحمـل جـواز سفـر بـاسم

«مارينوس فان درلـوبـه» VAN DER LUBBE ، المولـود في الثالث عشـر من كانون الثاني / يناير عام ١٩٠٩ في لايدن ـ هولندا.

وحتى قبل استجواب «لـوبـه»، كـان وزير الـرايخشتاغ ووزيـر خارجيـة بروسيا غورينغ GÖRING ينددان «بالجـريمة الشيـوعية» ـ على حـد زعمهما ـ أمـا مساعـده ر. ديلس DELS الذي صـار فيما بعـد رئيس «البـوليس السـري الحكومي» (الغستابو)، فيصف في مذكراته «لوتسيفر أمام الباب» لقاء غورينـغ مـع هتلر بهذه الـطريقة: صـاح غورينـغ بصوت درامي: «هـذه بدايـة التمـرد الشيـوعي، الآن سيضربـون! لا ينبغي أن تضيع دقيقـة واحدة». وصـرخ هتلر بـدوره: «سيسـرّح كـل مـوظف شيـوعي أينمـا كـان. يجب أن يشنق النـواب الشيوعيون الليلة. يجب أن يعتقل كل من لـه صلة بالشيـوعيين». ودخل هتلر الرايخشتاغ لمرة واحدة وأبقى للصحفيين مهمة إدخاله تاريخ المانيـا. مراسـل الجـريدة اللنـدنية «ديلي اكسبـرس» (ديلمار) المصـرّح له من الـدوائر النـازية العليا، يكتب في دفتر مـذكراتـه ما أعلنـه السكرتيـر لفون بـابن: «هذه اشـارة ربانية أيها السيد المستشار الأعلى! واذا كان هذا الحريق من فعل الشيوعيين، كما أنا مقتنع، فعلينا أن نسحق بقبضة حديدية هذا الطاعون القاتل».

تعمّد غوبلز في مـذكراتـه اتهام الشيـوعيين دون انتظار نهـاية تحقيقـات الشرطة ورجال المطافىء التي أجريت بأسرع ما يكون، فكتب يقول:

«واضـح للعيـان أن الشيـوعيين قـد لجـأوا الى الـوسيلة الأخيـرة لبث الاضـطراب. خـالقين جـواً من الـرعب بهـدف استغـلالـه لـلاستيـلاء على السلطة».

لقد اندلع حريق الرايخشتاغ تمـاماً في بـداية الاسبـوع قبل الأخيـر من الانتخابات، حين تبلغ الحمى السياسية ذروتها.

ذلك الاثنين كان مشبعاً ببرنـامج غني. فقـد عقد بعـد ظهر ذلـك اليوم اجتماع اللجان الـذي استغله هتلر وغورينـغ معاً لتبـرير الجـرائم التي ارتكبها

النازيون في برلين مساء يوم ٢٧ فبراير. فقد جاب هتلر بطائرته منذ العاشر من فبراير. وتحدث في عدة اجتماعات يومية، وقرر في ٢٧ فبراير أن يتحرر من واجبات ما قبل الانتخابات، وأن يستمع الى الموسيقى في جو حميم في منزل الدكتور جوزف غوبلز، حيث تستطيع ماجدة غوبلز القيام بخدمة الضيف خدمة ممتازة، وهكذا حرم هتلر متعة التلذذ بموسيقى الدكتور «أرنست خانفشتينغل»، رئيس القسم الدولي للمطبوعات في الحزب النازي، والمعروف في أوساط الصحفيين العالميين باسم «بوتسي». كان بوتسي قد أكمل الدراسة في جامعة «خارفا تسيد»، حين تصادق مع فرانكلين ديلانو روزفلت، الرئيس الجديد للولايات المتحدة الأميركية. وكان في الوقت ذاته صديقاً حميماً لغورينغ، الذي جعله في قصره اذ كان رئيساً للرايخشتاغ وقصره الى الجهة الشرقية منه. لكن الكريب جعل بوتسي POTSE طريح الفراش وارتفعت درجة حرارته الى الأربعين، الأمر الذي شجعه على عدم تلبية الدعوات التلفونية الملحة من قبل عائلة غوبلز ليتغلب على مرضه ويعزف للفوهرر FÜHRER على البيانو. وهكذا حرم هتلر داعية ثميناً يصف للعديدين من أصدقائه في الخارج المفاجأة «الحقيقية» لقائدي الحزب النازي عن أخبار حريق الرايخشتاغ.

وبطريق «المصادفة» كان هتلر قد صحب معه في ذلك المساء مصوّره الفوتوغرافي الشخصي «هاينريخ هوفمان» (HEINRICH HOFMAN) الذي نجح في التقاط صور «لانزعاج» النازيين البارزين من «الاعتداء الشيوعي».

وظهر في برلين «فون بابن»، الذي تكلم في العشاء الذي أقيم في مقر نادي القوميين الالمان - هيرين - بمناسبة مرور مئة عام على ميلاد المنظّر البارز ومنظّم الجيش الالماني الجنرال «فون شليفن». وقد حضر العشاء الرئيس هيندنبورغ HINDENBURG، بينما لاحت من خلال النوافذ الشعلة الملتهبة فوق الرايخشتاغ. قاد فون بابن هيندنبورغ بسيارته ثم اتجها الى مقره في البناء المشتعل.

في الـوقت نفسـه، كـان محـافظ بـرلين يقيم عشـاء يجمـع بين وزيـر الخـارجية البـارون «فون نـويرات» والجنـرال «روند شـد» قائـد منطقـة بـرلين العسكـريـة مـع بعض الشخصيـات ذات النفـوذ في أوسـاط من البـرجـوازيـة الالمانية التي لا تدعم سياسة الحكومة. وفي الساعة الحاديـة والعشرين أوضـح «غيونتر غيريكيه» مدير المكتب الصحفي لشؤون اليد العاملة سياسة الحكـومة حول القضاء على البطالة. وبعد بضع دقائق فقط استطاع الصحفيون الوصول الى الرايخشتاغ، وانطلقوا وسط حزام من رجال الشرطة والمغاوير الذين كانوا يطوقون المبنى ذات الطوابق الحجرية.

في تلك الليلة كان الاشتراكيـون الديمقـراطيون البـرلينيون يحتفلون في قصر الريـاضة بـالذكـرى السنويـة الخمسين لوفـاة كارل مـاركس. تحل هـذه الذكرى في الرابع عشر من مارس، لكن قيادة الاشتراكيين الديمقـراطيين قررت أن تقيم الاحتفال قبل الانتخابات لاستغلاله في وقت واحد كجزء من النضـال الـذي يسبق الانتخابـات وكتظاهـرة ضد النـظام. وكان ذلـك الاحتفال ذريعـة ممتازة للهتلريين كي يستنفروا المغاوير، وكأن عشرات الألوف من الاشتراكيين الديمقراطيين المتجمهرين للإحتفال بالذكرى سيلجأون الى مهاجمة الحكومـة الجديدة.

وبعد أن تمكن رجال الإطفاء من إخماد الحـريق، بدا للعيـان أن البناء الذي يمثل مربعاً ضلعه ٩٧ متراً وتـرتفع قبّتـه الى ٧٥ متراً قـد شهد حـريقين ينفصـل أحدهمـا عن الآخـر. الأول مبعثـه المـطعم الـذي يقـدم الخـدمـات للنـواب، كما يقـدم بعض الخدمـات للجوار. وقـد انبعث هـذا الحـريق من مواقد فرعية قليلة الاستخدام. أما الآخر، أي الرئيسي، فكان مصدره الصـالة العامة وبدأ على أثر إخماد حريق المطعم. والصالـة العامـة التي يجتمع فيهـا النواب قد جهـزت سلفاً بمـواد مشتعلة اذ استحالت خـلال دقائق معـدودة الى بحر من اللهب، فجّر القبّة الزجاجية التي تكلل الرايخشتاغ.

وعند التأكد من أن النار سوف تخمد سـريعاً في الصـالة العـامة، عـرج

هتلر وبابن على غورينغ في وزارة الداخلية البروسية، وقرروا مع قادة الشرطة التدابير التي ستتخذ ضد الشيوعيين. وأطلق النائبان النازيان «بيرتولد كارفانه» و«كورت فراي»، وأيدهما النازي النمساوي «ستيفان كروير»، رواية مفادها أن النائب الشيوعي «ايرنست تورغلر» شوهد في الرايخشتاغ ظهر ذلك اليوم يرافقه «فان دير لوبه»، وسجّلت الرواية في دوائر الشرطة الالمانية.

وإثر اللقاء عند غورينغ اجتمع هتلر وغوبلز في المقر المركزي لصحيفة الحزب النازي جريدة «فولكشير بيوباختر VOLKISCHER BEOBACHTER». وفي اليوم التالي حملت الجريدة بيان الحريق دون أن تخفي الابتهاج بالمصير الذي أعدّ للشيوعيين الالمان. وتصدّر الصحيفة العنوان التالي:

«الآن حانت النهاية! سنصفّيهم جذرياً!».

وخرج البيان باستنتاج يحمل الدلالات الكثيرة:

«ارتفعت شعل الرايخشتاغ الحمراء فوق البلاد كمشعل متّقد يوجه الأمة الى طريق التحرير!».

وأطلق النازيون، بعد الدقائق الأولى على الحريق، إشاعة تفيد أن الشيوعيين أشعلوا الرايخشتاغ. وأكد الاشاعة بلاغ رسمي من الاذاعة، أعدّ من قبل غورينغ شخصياً، وجاء فيه أن «فان در لوبه» قد اعترف بعضويته في الحزب الشيوعي الهولندي، ووجدت لديه بطاقة العضوية في الحزب. ووفق بلاغ مكتب الاعلام البروسي، الذي يشرف عليه غورينغ، تبين من تحرّيات الشرطة أن الحريق من عمل جماعة كبيرة وليس عملاً فردياً، اذ اكتشف البواب قرب قبّة الرايخشتاغ العديد من مواقد الحريق والمشاعل والمواد المحرقة، ويلزم لنقل هذه المواد ما لا يقل عن سبعة أشخاص، كما يتطلب نقلها وإشعال الحريق ما لا يقل عن عشرة، وأن الخبرة الطويلة وكثرة الممارسات لسنوات عديدة هي وحدها التي تتيح المعرفة التامة بهذا البناء الضخم، وأن

الشرطة تشتبه بقيادة المجموعة الشيوعية في الرايخشتاغ «إرنست تورغلر» «وويلهلم كونن KUNNEN». «هذا الاحراق هو أخطر عمل، حتى الآن، من أعمال إرهاب البلشفية في المانيا» يتابع البلاغ، مشيراً الى خرافة آلاف الكيلو غرامات من «الأدبيات المهترئة» التي «وجدتها» الشرطة في الرابع والعشرين من فبراير أثناء تفتيش بيت الحزب «كارل ليبكنخت KARL LIEBKNECHT» مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الالماني وهيئة تحرير «روث فانيه ROTE FAHNE» والتي تؤكد على الارهاب الشيوعي بالطريقة البلشفية. ويورد البيان:

«يجب، في رأيهم، أن نحرق جميع الأبنية الحكومية، المتاحف، القصور وأهم المصانع، وأعطيت الأوامر بإرسال مجموعات من النساء والأطفال للقيام بأعمال إرهابية أثناء الاضطرابات والصدامات، ضد ذوي الرتب من رجال الشرطة. واكتشاف هذه المواد عرقل قيام الثورة البلشفية».

ثم أعلنت الشرطة أن إشعال الرايخشتاغ كان اشارة للحرب الأهلية، التي ينبغي أن يبدأها الشيوعيون مع الفجر. وهذا «الخطر الهائل» قد جوبه من قبل غورينغ «بأقسى الاجراءات» ومن ضمن ذلك «الاعتقال الوقائي» للنواب الشيوعيين ولأعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الالماني. وحظر المطبوعات الشيوعية لأربعة أسابيع. وبما أن «فان در لوبه» قد اعترف بصلاته بالمطبوعات الاشتراكية الديمقراطية للحزب الاشتراكي الالماني الديمقراطي فقد أوقفت لمدة أسبوعين.

لقد حاولت حكومة هتلر بهذه البلاغات تبرير الضربة الموجهة الى الحزب الشيوعي والحركة العمالية، والتي تم إعدادها منذ بداية شهر شباط. ووفقاً للوائح معدّة مسبقاً، وبأوامر معدّة مسبقاً بالإعتقال، بدأ المغاوير المستنفرون قبل الحريق بساعات، مطاردة حقيقية للمطلوبين الشيوعيين، والديمقراطيين. وفي بعض الحالات مضت مجموعات المغاوير لتنفيذ المهمات الملقاة على عاتقها في الوقت الذي كانت فيه سيارات الاطفاء تعمل

على اخماد الحريق. وحتى الصباح تم اعتقال آلاف من الشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين والمثقفين التقدميين غير الحزبيين الذين وضعوا على قوائم الهتلريين السوداء. ولكي تتم العملية على النطاق المناسب استخدم النازيون في برلين أكثر من ثلاثين ألفاً من المغاوير ورجال الـ «أس. أس» وأكثر من مليون شخص في المانيا بأسرها.

ولكي تستعر هستيريا العداء للشيوعية والسوفيات أكثر فأكثر، استخدمت المطبوعات النازية أكثر الأفكار غرابة: «حارق الرايخشتاغ «فان در لوبه» متدرب في روسيا» ذلك ما أعلنته «لوكالا تسايغر» البرلينية بعد لقائها مع شرطة امستردام، التي لم تصدر بياناً بهذا الشأن كما ذكر جورجي ديمتروف عام ١٩٣٤. ولغاية استفزازية واضحة، فتشت شرطة غورينغ مقر الشركة السوفياتية للتجارة بالمنتجات النفطية «ديروب D.I.R.O.P».

لم يكن إحراق الرايخشتاغ من قبل النازيين مفاجأة تامة لقيادة الحزب الشيوعي الالماني. فبعد أن طرح الاشتراكيون الديمقراطيون اقتراحاً بالتعاون المتبادل في النشاطات مع الشيوعيين، طرحت دورة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الالماني في ٧ فبراير مسألة اتباع نهج للنشاط في الظروف الجديدة ولحماية الكوادر من ضربات الدكتاتورية. وتوجه الحزب للحفاظ على الهدوء وتعرية مخططات الهتلريين الاستفزازية. لكن ضحايا عديدة وقعت بسبب معركة ما قبل الانتخابات على الرغم من الوضع شبه السري ونظراً للإجراءات التي اتخذها النازيون.

ومنذ ٢٨ شباط/فبراير باتت الاعتقالات والارهاب سياسة رسمية. فتتم المداهمات صباحا وبعد الظهر وتعقد جلسات اللجنة باستمرار تحت إمرة الرئيس هيندنبورغ نفسه. وقد أجاب غورينغ عن سؤال: لماذا أعد الشيوعيون الاعتداء على الرايخشتاغ قائلاً: «ان موسكو هددت الشيوعيين بأنها ستقطع المساعدات عنهم إن لم يفعلوا شيئاً ينسف الانتخابات».

وقد وقّع هيندنبورغ «مرسوم الدفاع عن الشعب والرايخ» الذي قدّمه له هتلر. فألغيت مواد عديدة من دستور فايمار WEIMER. وتم تقليص الحريات البرجوازية الديمقراطية. وتلقت السلطة قراراً بالحد من الحريات الشخصية وحق إبداء الرأي بحرية، بما فيها حرية المطبوعات، وحق الاجتماع والتنظيم، وأن تلغى حرية المراسلات والمكالمات الهاتفية وحرمة المساكن، وأن تصادر المطبوعات وتوضع اليد على الملكيات. وقد نفذ هذا المرسوم في ٢٩ آذار/مارس ١٩٣٣ مع مرسوم آخر يحكم بالموت على كل من يعمل على «تبديل السلطة».

كان هتلر وغورينغ يعملان بحرية تامة. واتسعت أمامهما فرصة السيطرة الكاملة على المانيا، حتى كان نتيجة ذلك إشعال حرب عالمية ثانية كلفت البشرية الملايين من الضحايا والخسائر.

هذا وقد أثبتت تجارب الفاشية في ايطاليا وألمانيا أن مرحلة هذا الحكم هي الأكثر بربرية في تاريخ الجنس البشري حيث تفلت الأفكار الشوفينية العرقية أو الطائفية أو العنصرية من عقالها.

والفاشية ليست قدر الشعوب، وانتصار الديمقراطية على الفاشية حتمية تاريخية لابد منها، وقد أثبتت صحتها عبر ممارسة النضال الدؤوب ضد كل أشكال القهر والتسلّط والفاشية.

المرجع

١ ـ انظر: ميلن سيمكوف «ديمتروف ومحاكمة لايبزغ». ترجمة ميخائيل عيد. راجعه وقدّم له د. مسعود ضاهر. دار ابن خلدون. بيروت. مايو ١٩٨٢. ص ١٠ ـ ٢٤.

التحالف النازي ـ الصهيوني
من المهد الى اللحد ١٩٣٣ ـ ١٩٤٤

يخطىء الكثيرون من الناس عندما يعتقدون ويصدّقون بأن الصهيونية هي العدو اللدود للنازية. وليس غير التاريخ والوثائق التاريخية هي التي تكشف زيف هذه المزاعم والادعاءات بين الوحش النازي والطاعون الأسود الصهيوني، وتظهر بعدها هاتان الحركتان على حقيقتهما، باعتبارهما وجهان لعملة واحدة. هذا ويحفظ الخبراء من «مركز الوثائق الاميركي» وراء أسوار مجهزة بأسلاك يمر بها تيار كهربائي عالي الجهد، ملفات خاصة بالجهاز النازي وأدلّة ثبوتية مكتوبة تتحدّث عن جرائمه. ولكن هناك أشخاصاً لا يجديهم ذكر تفاصيل أزمنة الحرب العالمية الثانية، وهؤلاء هم الصهاينة. والدليل على ذلك أنه من المفارقات الغريبة أن «اسرائيل» لا تحتفل رسمياً بعيد الانتصار على الفاشية، رغم مزاعمهم أن اليهود كانوا من الذين عانوا أكثر من سواهم ويلات الفاشية أبان هذه الحرب. ولهذه الظاهرة أسبابها وأبعادها. وهي أن أيدي زعماء الصهيونية وملهميها الروحيين، الذين تواطأوا مع النازيين الالمان، ملطخة بدماء الألوف من اليهود.

فما هي أسرار هذا التحالف؟ وكيف كانت مراحله؟ .

في نهاية العام ١٩٨٤، عقدت اللجنة السوفياتية لمكافحة الصهيونية في موسكو مؤتمراً صحفياً، تكلم فيه رئيس اللجنة الفريق «داڤيد دراغونسكي» ونائبه «مارك كرويكين» بمناسبة «أربعينية الانتصار على الفاشية»، وعرضوا خلاله عدداً من الوثائق التي ترتدي طابع السرّية المطلقة التي عثر عليها في محفوظات جهاز المخابرات الالمانية «الغستابو»، والتي استولى عليها الجيش

السوفياتي، وتكشف هذه الوثائق علاقة الهتلريين النازيين «ببولكيس» المفوض في عصابة «الهاغانا» الصهيونية، مؤكدة «أن برنامج الصهيونية القومي» المتعصب يشكل أساساً كافياً لتعاون المانيا مع منظمة «الهاغانا». كما تثبت من ناحية أخرى أن تحالف الصهيونية مع النازية لم يكن ظاهرة تكتيكية، ولم يكن وليد الصدفة أبداً. بل أن هذه العلاقة كانت تحالفاً استراتيجياً طبقياً. وقد أصبحت الصهيونية اليوم وارثاً روحياً للنازية، وتنطلق من الفكرة النازية ذاتها، وهي فكرة التفرد القومي، وتلجأ في ممارساتها العملية الى أساليب الارهاب والعنف والإبادة العنصرية المباشرة اياها التي استخدمتها الفاشية من قبل.

ففي السنة ١٩٣٣، وكان هتلر قد وصل الى الحكم، نشّط الامبرياليون الالمان بشدة سياستهم في الشرق الأوسط.. ومما له دلالته أن الدور الحاسم في إعداد خطط التوسع الالماني الجديدة في البلدان الاسلامية عاد الى كبريات المؤسسات ذاتها التي رسمت سياسة الامبراطورية الالمانية في عهد الامبراطور إزاء الشرق الأوسط، أي الى الـ «دويتشي بنك» الذي كان يموّل ويبني سكة حديد بغداد، «وكونسورسيوم كروب» الذي سلّح الجيش التركي في ما مضى. وأخيراً أكبر احتكارة تعدينية وكيميائية في الرور. واستغل رجال المال والدبلوماسيون ورجال الاستخبارات الالمان أقصى استغلال كره المسلمين للمستعمرين البريطانيين، فحاولوا في أواسط الثلاثينات أن يوسعوا نفوذهم في تركيا والعراق والعربية السعودية وايران وأفغانستان..

وأسهم الامبرياليون الالمان، سعياً منهم لتثبيت أقدامهم في بلدان الشرق الأوسط، في تأزيم العلاقات بين البلدان العربية وبريطانيا بشتى السبل. وتدل وثائق الدبلوماسية الالمانية على أنها استغلت القضية الفلسطينية وسعي الشعب العربي للحيلولة دون الاستعمار الصهيوني لفلسطين ولا سيما القدس، أشد الاستغلال عشية الحرب العالمية الثانية، لهذا الغرض. ولكن هذه الوثائق لا تلقي الضوء على ظرف خارق الاهمية لفضح استراتيجية

وتكتيك الفاشيين الالمان في الشرق الاسلامي هو أن الهتلريين دعموا سراً، منذ الأيام الأولى تقريباً لوصولهم الى الحكم حتى بداية الحرب العالمية الثانية ضمناً، خطط الصهاينة الرامية الى انشاء دولة يهودية في فلسطين.

فقد وقعت بين بنك الدولة في المانيا «ريخسبنك» والوكالة اليهودية في السنة ١٩٣٣، اتفاقية سرية أسميت بالكلمة العبرية القديمة «خافارا» (أي الرفقة التجارية). وبموجب هذه الاتفاقية، نال اليهود الميسورين الذين هاجروا من المانيا الى فلسطين، على سبيل التعويض عن ممتلكاتهم التي صادرها النازيون، نسبة مئوية معينة من ثمن البضائع الالمانية المبيعة في فلسطين بواسطة «الوكالة اليهودية». وتوصل في الوقت ذاته الى اتفاقية أخرى في شأن العون غير العلني في انتقال المهاجرين اليهود من المانيا الى فلسطين. وبما أن السلطات النازية لم تكن ترغب في تأزيم علاقاتها مع البلدان الاسلامية، فقد كانت تحول رسمياً دون هجرة اليهود الى فلسطين. وكان المهاجرون اليهود غالباً ما يحصلون على جوازات سفر بحجة الذهاب الى بلدان أميركا اللاتينية. وكانوا يغادرون المانيا على متن سفن متجهة الى البرازيل أو الى الأرجنتين. ولكن كثيراً من المهاجرين كانوا ينتقلون بعلم الربابنة الالمان، في مرافىء جزر أزور، الى بواخر متجهة الى فلسطين. وقد أزّم النازيون الالمان بزيادتهم عدد المهاجرين اليهود، الوضع في فلسطين، وكان هؤلاء يساعدون في بيع البضائع الالمانية بموجب اتفاقية «خافارا» مساعدة فعالة، ويودعون الأموال المتوافرة في مختلف البنوك والمؤسسات الصهيونية التي كانت تنتزع الأراضي من الشيوخ العرب لبناء الجديد تلو الجديد من المستوطنات الصهيونية، وتسهم بالتالي في حرمان فلاّحي فلسطين من الأراضي باستمرار. .

واستطاعت الوكالة اليهودية وغيرها من المنظمات الصهيونية في فلسطين في غضون السنوات الست من سريان مفعول اتفاقية «خافارا»، أن تنقل من المانيا رأسمالاً يهودياً كان ضخماً في ذلك الحين يقدر بـ ١٣٩ مليون مارك.

وقد ورد في اتفاقية «خافارا» بند سرّي جداً كانت القيادة النازية توافق بموجبه على تسليم الصهاينة سراً الأسلحة الرمادية والقنابل اليدوية والرشاشات وغير ذلك من الأسلحة من المستودعات التي استولى عليها الهتلريون في العام ١٩٣٨ في النمسا ومنطقة السوديت التشيكوسلوفاكية، الأمر الذي أتاح تسليح الجيش الصهيوني السري من «هاغانا» وفصائل «أرغون تسفاي ليومي» و«ليحي» الارهابية التي ترأسها مناحيم بيغن واسحق شامير فيما بعد. وفي النتيجة لقي ألوف الفلسطينين مصرعهم على أيدي الصهاينة الذين سلّحهم هتلر وهملروشاخت. وأسهم ذلك كله في توطيد مواقع الصهاينة وفي اشتداد تعقّد الوضع في فلسطين. إن التواطؤ النازي ـ الصهيوني كان نموذجاً للإتفاقية التي عقدت بين المستشار الالماني «اديناور» وبن غوريون في شأن التعويضات، التي أسهمت بقدر لا يستهان به في تعزيز قدرة اسرائيل العسكرية في الخمسينات والستينات. ولم تكن «خافارا» سوى اتفاقية من اتفاقيات عديدة بين النازيين والصهاينة. ففور وصول هتلر الى الحكم، أنشىء في أجهزة الأمن الامبراطورية الخاضعة للرايخسفوهر وهي القوات الخاصة، القسم الخاص «١١ ـ ١١٢» (قسم الشؤون اليهودية) برئاسة «ميلدنشتين». وقد عهد الى هذا القسم برسم «السياسة اليهودية» في دائرة هملر. وأقام «ميلدنشتين» اتصالات وثيقة مع الصهاينة، وحضر مؤتمرات المنظمة الصهيونية العالمية. وافتتحت في برلين بموجب اتفاقية سرّية بين الوكالة اليهودية والقسم «١١ ـ ١١٢» دائرة لشؤون المهاجرين اليهود الذين يختارون من أصلح مئات الألوف من اليهود الالمان من الناحيتين المادية والسياسية للإرسال الى فلسطين. وقد هاجر من المانيا الى فلسطين أكثر من ٦٠ ألف يهودي بين السنتين ١٩٣٣ و١٩٣٨. ومن باب ترغيبهم قبل الرحيل، كتبت احدى الصحف الالمانية «لم يعد بعيداً الزمن الذي تستطيع فيه فلسطين من جديد أن تستقبل أبناءها الذين تاهوا منذ أكثر من ألف سنة... فلترافقهم تمنياتنا مع بركة الدولة». وزار «ميلدنشتين» نفسه فلسطين، بناء على دعوة من المنظمات الصهيونية، حيث اطلع على الوضع الجديد ووجه الى ممثلي

الوكالة اليهودية نصائح في مسائل تتعلق بترتيب «مخيمات لإعادة التأهيل» في فلسطين يكتسب فيها المهاجرون «التمرّس الصهيوني»..

يتضح من ذلك أن الامبرياليين البريطانيين، أصحاب وعد بلفور المشؤوم والانتداب على فلسطين من جهة، والنازيين الالمان من جهة أخرى، ساعدوا المنظمة الصهيونية العالمية وسائر المنظمات الصهيونية أكبر المساعدة في نقل عشرات الألوف من اليهود الى فلسطين، وأسهموا في توطيد قاعدة المنظمات الصهيونية المحلية المادية وتزويد فصائلها شبه العسكرية وفرقها الارهابية بأحدث الأسلحة، وفي ظهور الجديد تلو الجديد من المستوطنات الصهيونية، وحرمان العرب الفلسطينيين بالجملة من أراضيهم. وأدى ذلك كله الى تفاقم الوضع في فلسطين بسرعة وحدّة. ففي ابريل عام ١٩٣٦، أعلنت اللجنة العربية العليا اضراب عرب فلسطين العام. وفي النصف الثاني من عام ١٩٣٦، تحول الاضراب الى انتفاضة شعبية استخدمت القوات النظامية البريطانية وفصائل الـ «هاغانا» في قمعها..

عقّد ذلك علاقات بريطانيا مع كل البلدان الاسلامية التي جرت في مختلف المجالات...

فإن المنظمات الصهيونية التي كانت تسعى للحصول على شحنات كبيرة من الأسلحة بادرت الى توسيع الاتصالات بألمانيا النازية..

فقد اتصل القسم «١١ - ١١٢» بقيادة الهاغانا بواسطة مراسل مكتب الاعلام الالماني ومدير وكالة الاستخبارات النازية. وفي فبراير ١٩٣٧، دعي أحد قادة «الهاغانا» وهو «ف. بولكيس» الى برلين. وتوصل في نهاية المفاوضات مع الرئيس الجديد للقسم «١١ - ١١٢» هاغن، والموظف المسؤول الجديد في هذا القسم «أدولف أيخمان» النازي (الذي أعدم في «اسرائيل» فيما بعد) الى اتفاق في شأن استمرار هجرة اليهود من المانيا الى فلسطين، وتزويد «الهاغانا» بالأسلحة، كما دعي هاغن وأيخمان الى زيارة فلسطين. وقد جاء في التقرير عن المفاوضات مع المندوب الصهيوني الذي

قدّمه هاغن الى رئيسه المباشر الاستاذ «فرانتس سيكس» المسؤول في القوات الخاصة ورئيس الدائرة الثانية في مصلحة الأمن الالمانية، أن «بولكيس» أعرب عن الاستعداد لتقديم الخدمات الى المانيا في شكل تسليم معلومات اذا كانت لا تناقض أهدافه السياسية. والى ذلك تعهد بمساندة مصالح السياسة الخارجية الالمانية في الشرق الأوسط مساندة نشيطة». وبما أن الصهاينة كانوا يعرفون جيداً أن اليهود الالمان الساعين لمغادرة المانيا لم يكونوا يفكرون البتّة في الانتقال الى فلسطين، فقد طلب «بولكيس»، باسم «الهاغانا» العون من مصلحة الأمن الالمانية. وصاغ القسم «١١ ـ ١١٢» بموافقة هملر التزاماته في هذه المسألة أمام الصهاينة على النحو التالي: «ان الجالية اليهودية في المانيا سوف تتعرض للضغط بحيث يتعهد اليهود المهاجرون من المانيا بالذهاب الى فلسطين فقط وليس الى أي بلد آخر. وتتفق هذه التدابير تماماً والمصالح الالمانية. ويقوم الغستابو بإعداد الاجراءات لتنفيذها. وفي السنة ١٩٣٨، وقد أخذت السلطات الاستعمارية البريطانية تحد من هجرة اليهود الى فلسطين لقلقها من تعاظم الحركة المعادية للأمبريالية والصهيونية في فلسطين، هذه الحركة لم تلق الدعم الواسع في البلدان العربية المجاورة فحسب، بل أيضاً في عموم العالم الاسلامي، قرّر قادة المنظمة الصهيونية العالمية أن يوطّدوا علاقتهم مع النازيين. وأبدى أسياد المانيا الفاشية بدورهم، استعداداً منهم لحرب كبيرة، اهتماماً شديداً بتوسيع الاتصالات مع أشد المنظمات الصهيونية اغراقاً في العدوانية في فلسطين لكي يعقّدوا الوضع في هذا البلد، ويضمنوا امكانيات اضافية للنشاط التخريبي والتجسسي في الشرق الأوسط.

ولهذا تقرر في برلين، عندما أنشأ قادة «الهاغانا» في سنة ١٩٣٨ المنظمة السرية «الموساد» مكتب الهجرة «لتهجير اليهود الأوروبيين بالجملة وفي صورة غير شرعية الى فلسطين تيسير نشاط هذه المنظمة. وصارت جنيف مقر الـ «موساد» وأصبح «بولكيس» أحد قادتها، وعاود على الفور اتصالاته بقيادة القسم «١١ ـ ١١٢» في مصلحة أمن الامبراطورية، وافتتح في فينيا،

في ربيع عام ١٩٣٨ ، فور احتلال النازيين لها مكتب قضايا الهجرة اليهودية الخاضع لقيادة أدولف أيخمان مباشرة. وفي صيف عام ١٩٣٨ ، أنشئت في النمسا، اثر المفاوضات بين أيخمان ورسول «الموساد» بارغيلياد، بموافقة هملر، معكسرات خاصة بالتدريب العسكري لإعداد الشباب اليهود من سنّ الخدمة العسكرية المختارين للهجرة والخدمة لاحقاً في فصائل الهاغانا السرية لأجل النضال ضد العرب في فلسطين. وسرعان ما أنشئت معكسرات مماثلة في المانيا أيضاً. .

وأخذ ممثلو مصلحة الاستخبارات العسكرية الالمانية في أواخر عام ١٩٤٠ ، يقيمون هم أيضاً اتصالات مع الصهاينة. وأقيمت الاتصالات هذه المرة مع ممثلي المنظمات الصهيونية اغراقاً في الرجعية والعدوانية وهي الـ «أرغون تسفاي ليومي» (المنظمة القومية العسكرية) التي انفصلت عن الـ (هاغانا) في العام ١٩٣٦ ، وأصبحت تشكيلاً عسكرياً تخريبياً تابعاً لـ «المنظمة الصهيونية الجديدة» التي أنشأها قبل ذلك بسنة زعيم الحركة الموالية للنازية في الصهيونية «فلاديمير جابوتنسكي» الذي كان يسعى لإقامة «اسرائيل الكبرى»، ليس في أراضي عموم فلسطين فحسب، بل في الأردن أيضاً. .

وفي ١١ كانون الثاني/يناير ١٩٤١ ، جرى في اسطنبول لقاء بين ممثل مصلحة الاستخبارات العسكرية الملحق البحري الحربي بالسفارة الالمانية في تركيا وقادة «الأرغون تسفاي ليومي»، وسلم هؤلاء مشروع اتفاقية مع هتلر لإرساله الى برلين. وأشار هذا المشروع الى أن الـ «أرغون» تسعى لـ «التعاون بين المانيا الجديدة والجامعة اليهودية القومية الشعبية المجدّدة. وكان المقصود من هذا «التعاون» أن يسفر عن اقامة «دولة يهودية تاريخية على أساس قومي واستبدادي». وكان قادة الـ «أرغون» يرون أن على هذه الدولة الصهيونية الجديدة أن تقيم «علاقات تعاهدية مع الرايخ الالماني لصيانة النفوذ الالماني في الشرق الأوسط وتعزيزه». وعلى هذا الأساس توصل الى الاتفاقية. وقد جرى في أواخر شهر يناير ١٩٤١ في اسطنبول كذلك لقاء بين مفوض «كاناريس» اللواء البحري «مارفيتس» الذي جاء خصيصاً من

برلين، وقادة الـ «أرغون». وتخطى جدول الأعمال كثيراً اطار تبادل المعلومات. وتناول الكلام إعداد عمليات تخريبية كبيرة اقترح الصهاينة القيام بها في فلسطين . وقبل ذلك كانت الـ «أرغون» والمنظمة الشديدة التطرف وهي «فريق شتيرن» («لوخمي حيروت اسرائيل») التي أقامت هي أيضاً علاقات مع مصلحة الاستخبارات العسكرية الالمانية قد أحرقتا الصهاريج المحملة بالبترول، وعطلتا خطوط أنابيب البترول وهما لم تترددا في نشاطهما في تفجير الباخرة «باتريا» وعلى متنها مئات من المهاجرين اليهود في ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٤٠ في مرفأ حيفا. وأرسل بيغن رئيس الـ «أرغون تسفاي ليومي» و«أبراهام شتيرن رئيس الـ «لوخمي حيروت اسرائيل» (وبعد موته اسحق شامير)، الجديد تلو الجديد من الممثلين الى فرع مصلحة الاستخبارات العسكرية الالمانية في اسطنبول (الى حيث نقل مقر الـ «موساد» من جنيف) لوضع التدابير المشتركة في الشرق الأوسط وتنسيق الاجراءات لتعزيز هجرة اليهود من البلدان الأوروبية التي احتلها الهتلريون، الى فلسطين.

ومن خلال ذلك يبدو واضحاً وضوح الشمس، أن شعبنا العربي، والفلسطيني منه بشكل خاص، كان وما زال ضحية تحالف نازي صهيوني استعماري رغم كل محاولات الزيف والخداع التي تتلطّى خلفها الصهيونية واسرائيل. وكما أن النازية دمّرت القرى البيلوروسية وارتكبت المجازر والمذابح المروّعة كذلك الجيش الاميركي المسؤول عن إبادة السكان الآمنين في قرية «سونغمي» الفيتنامية. وهكذا نجد أن لمذابح دير ياسين وكفر قاسم وصبرا وشاتيلا والزرارية وسونغمي، جذوراً مشتركة هي جذور الفاشية والعنصرية وكراهية الانسان..

وكما عوقب النازيون في محكمة «نورنبرغ» فعقاب الجرائم الوحشية المرتكبة لا مفر منه. وأن محكمة «نورنبرغ» جديدة في انتظار الارهابيين الصهاينة وحلفائهم أينما كانوا...

المراجع

١ ـ ميخائيل مالك «جلاوزة النازية». مجلة «المدار» السوفياتية العدد ١٢ (٢٦٠) سنة ١٩٨٤. ص ٤٧.

٢ ـ الكسندر كراسنوف «صلة رحم مع الفاشية» مجلة «المدار» العدد ٥ (٢٦٥) سنة ١٩٨٥. (العدد الخاص بأربعينية الانتصار العظيم على الفاشية). ص ٤٤.

٣ ـ مجلة «المدار» العدد ١١ (٢٧١) سنة ١٩٨٥. ص ٤٨ ـ ٤٩.

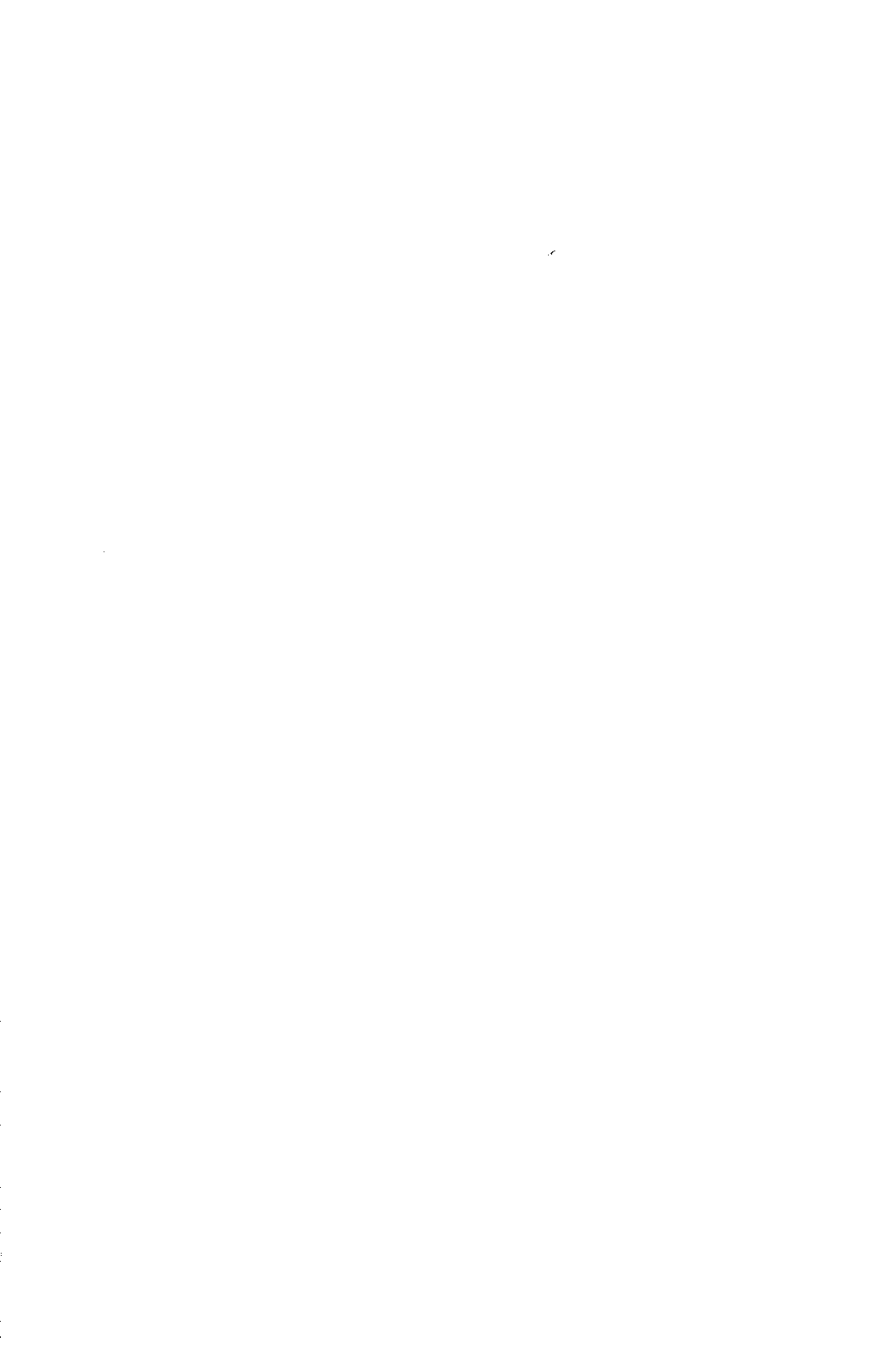
٤ ـ نزار عمار «الاستخبارات الاسرائيلية» المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ١٩٧٦.

٥ ـ سعيد الجزائري «المخابرات والعالم» الجزء الأول. دار مكتبة الحياة. بيروت. دون تاريخ.

٦ ـ جون ودافيد كيمحي «الدروب السرّية» منشورات «فلسطين المحتلة» مطابع الكرمل للنشر. بيروت ١٩٨١.

٧ ـ د. علي محافظة «العلاقات الالمانية ـ الفلسطينية» المؤسسة العربية. بيروت.

٨ ـ د. نظام عباسي «العلاقات الصهيونية النازية وأثرها على فلسطين وحركة التحرر العربي» (١٩٣٣ ـ ١٩٤٥). شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع. الكويت ١٩٨٤. ص ٣٧ وما بعدها.



المخابرات تشعل نار الحرب العالمية الثانية

إن كل الحروب في التاريخ لم تكن وليدة الصدفة أبداً. وكل حرب لها أسرارها الخفية. والحرب العالمية الثانية لم تخرج عن هذا النطاق.

فما هو سر هذه الحرب، ومن أشعلها؟.

عندما اجتاحت مئات الدبابات الألمانية ومن ورائها مليون ومئتي ألف جندي ألماني، وفوقهم ٢٥٠٠ طائرة رسم على أجنحتها (الصليب المعقوف). الحدود البولونية من جميع الاتجاهات، بتاريخ الأول من سبتمبر ١٩٣٩ أصيب الجيش البولوني بالذهول وتمزق إرباً إرباً بعد أن تحولت المطارات ومستودعات الذخيرة والمحروقات البولونية الى قطع من اللهب والشظايا.. بهذا الهجوم عرف العالم في حينه «الحرب الصاعقة». تلك الحرب الشاملة التي تنقض فيها القوى الضاربة من جميع الأسلحة على قوات العدو من الجو والأرض فتدمرها تدميراً كاملاً...

أما بالنسبة للجيش البولوني فقد فوجىء أية مفاجأة وهو لم يستكمل تعبئته بعد بحيث لم يستطع القيام بأية أعمال دفاعية سوى بعض الأعمال الفردية التي منيت بالفشل حين أطبقت جحافل ـ البانزرز ـ فرق الدبابات الالمانية على العاصمة فرصوفيا ثم اندفعت باتجاه الحدود الشرقية المتاخمة للإتحاد السوفياتي، وكانت أوامر هتلر تقضي باحتلال بولونيا خلال خمسة عشر يوماً. ولكن الاحتلال تم خلال عشرة أيام وأصبح نشيد «ألمانيا فوق الجميع» يعزف في شوارع جميع المدن البولونية على وقع خطوات القوات

الألمانية. . . المنتصرة.

أما في المانيا فقد أذيع البلاغ الحربي الأول على الشعب الالماني في نفس اللحظات التي دخلت القوات الألمانية بولونيا على الشكل التالي:
«بلاغ من القيادة العسكرية! هايل هتلر!.

في هذه اللحظة. . . وللمرة الأولى في أرضنا الألمانية فتحت القوات البولونية النظامية النار علينا ونحن نجيب على النار بالمثل منذ الساعة الخامسة من هذا الصباح». ثم كرر هتلر بالذات هذه الكذبة بعد عدة ساعات أمام المجلس النيابي «الرايخشتاغ» الذي انعقد بسرعة في قاعة (اوبرا كرول) في برلين وهو يرتدي بزته العسكرية. ثم اتبع ذلك بخطاب ناري بلهجة هستيرية حيث كان يقاطع بعد كل جملة بالتصفيق المحموم الذي يرتج له المبنى الضخم، ولا سيما حين تحدّى فرنسا وانكلترا وأيضاً الرئيس الاميركي روزفلت.

عاد هتلر بعد ذلك رأساً الى مقر رئاسة الوزراء حيث كان بانتظاره مساعده الأول مارشال هرمان غورنغ مصحوباً بشخصية سويدية كبرى هي «بيرجد داهاروس» الذي كان هتلر قد كلفه سراً بمهمة (تسوية الجو) في لندن، فأعلمه داهاروس برفض لندن لكل تسوية وبإخفاق مهمته بالتالي.

فاستبد الغضب بالفوهرر وأخذ يذرع أرض القاعة جيئة وذهاباً وهو منفعل. ثم وقف وصاح بالرجلين: اذا كانت انكلترا تريد الحرب فلها ما تريد. . . سوف أحاربها سنة كاملة اذا أرادت حرباً تدوم سنة. . . وإذا أرادت الحرب لسنتين فسوف أحاربها لسنتين. . . واذا استلزم الأمر فسوف أحاربها لمدة عشر سنوات.

أما الشعب الالماني فنراه على عكس زعيمه. فحين توجه موكب هتلر الى قاعة «اوبرا كرول» ذلك الصباح كان الألمان يشعرون بالوجوم الشديد، وبأن المستقبل يحمل لهم في ثناياه شراً مستطيراً. لذلك كانت الشوارع

خاوية يهيمن عليها صمت مستغرب في هذه المناسبة ـ مرور موكب هتلر ـ الذي كانت تحيط به الجماهير هاتفة هازجة... أما في ذلك اليوم فإن البرلينيين القلائل الذين مر بهم الموكب في طريقه ظلوا جامدين أشبه بالنافرين أو المذهولين، وكأنما استيقظ الشعب فجأة من النشوة التي كان «ثملاً بها منذ ست سنوات». أو بصورة أدق منذ وصول هتلر الى الحكم أي بالتالي منذ شرع «جوزف غوبلز» وزير الدعاية النازي يصب عليهم الأنباء المهيجة المحمومة والمضخمة... على أن جميع هذه الدعاية والجهود لم تقنع الشعب الالماني بضرورة الحرب بدليل ما كتبه المؤرخ الألماني (وليام شيرز) يوم ٣١ أغسطس/آب بالذات أي في اليوم السابق للغزو الألماني لبولونيا: «إن الناس جميعاً في المانيا ضد الحرب وهم يعلنون ذلك بصورة مكشوفة فكيف يمكن والحالة هذه إجبار شعب على خوض حرب لم يتقبل فكرتها»... بيد أن هتلر يعلم أن موافقة الجماهير ليست الشيء الأساسي بالنسبة لمخططاته. فهو يحتفظ بالكثير من السهام في جعبته وأولها آلة الدعاية العملاقة الكفيلة بحمل الجماهير على اعتقاد ما يشاء لها، وقد صارح جنرالاته قائلاً: سوف تخلق لي الدعاية السبب اللازم للحرب ولن يجرؤ أحد في المستقبل على سؤال المنتصر عما اذا كان قد قال الحقيقة. وما يجب مراعاته في الحساب هو أن من يعلنون الحرب لا يهدفون الى الحق بل الى النصر. أما الحق فهو ملك المنتصر...

تمثل هذه الكلمات استراتيجية هتلر في هذه المعركة الأولى. فقد كان واثقاً من قدرته على إحراز نصر ساحق على بولونيا فلم يعد أمامه والحالة كذلك سوى العثور على سبب يبرر اعلان الحرب. وقد وجد بالفعل هذا السبب في عمليته المسماة «الأطعمة المحفوظة».

فما هو سر هذه العملية؟.

في الواقع لم تكن الرصاصات التي أطلقها رشاش الدبابة الأولى التي اقتحمت الحدود البولونية هي الرصاصات الأولى التي أطلقت في الحرب

العالمية الثانية. بل سبقتها في الليلة المنصرمة رصاصات أخرى أطلقها رجل مخابرات.

ففيما كانت فرق البانزرز وطائرات اللوفتواف تندفع على بولونيا في ذلك الصباح الباكر، كان الرجل الذي أطلق الرصاصات الأولى يدلف الى منزله ليغط في نوم عميق يستعيض به عن الجهد الذي بذله في مهمته الليلية الناجحة دون أن يدور في خلده أن ما قام به سيكون له نتائج وخيمة: الحرب العالمية الثانية. ودون أن يدرك أحد أنه هو الذي أطلق الرصاصات الأولى في هذه الحرب.

كان هذا الرجل هو ضابط المخابرات الالماني الملازم «ألفريد هلمنت نوجوكس» أحد الأعوان المقربين من «رينهارت هايدريش» رئيس جهاز الأمن السري في فرق الـ S - S أي الفرق النازية الخاصة. وقد بدأت مهمته في ٥ أغسطس ١٩٣٩ حين استدعي الى المقر الرئيسي للمخابرات الالمانية في برلين حيث وجد رئيسه بانتظاره منتصباً بقامته المديدة وشعره الأشقر مرتدياً بزته الرسمية الخاصة بفرق الـ S - S الذي بادره بقوله: أنت الرجل الذي يلزمنا في هذه المهمة. وأخذ يشرح له المهمة التي سميت «الأطعمة المحفوظة» بالشيفرة. ولم ينس أن يؤكد له أن هتلر نفسه قرر هذه العملية.

كانت العملية تقضي بأن يقوم نوجوكس بهجوم مفتعل على محطة «اذاعة غليوتيز» الالمانية من الحدود البولونية بصورة يكفل معها حصول القيادة الالمانية على البرهان الكافي على أن هذا الهجوم حدث بفعل من القوات البولونية... واختتم هايدريش حديثه الى نوجوكس بالتعليمات التالية:

ستذهب لمقابلة «هايتريغ مولر» رئيس المخابرات الألمانية (الغستابو) الذي سيسلمك سجيناً وثياباً عسكرية بولونية. وسيكون هذا السجين ضحية «الاعتداء» الذي ستتركه القوة المهاجمة صريعاً خلفها لدى انسحابها. من البديهي أن احتمال الاخفاق في هذه المهمة يعتبر خارج نطاق البحث بصورة مطلقة...

لم يدهش نوجوكس لطبيعة المهمة. فقد نفذ هو شخصياً ما يفوقها غرابة حين أرسل الى سلوفاكيا وأخذ يلقي المتفجرات وافتعال الاعتداءات، وذلك قبيل غزو المانيا لتشيكوسلوفاكيا.

بالعكس فقد وجد أن مهمته هذه أسهل من ذهابه الى سلوفاكيا وتعريض نفسه للخطر هناك. كل ما يطلب منه مهاجمة محطة اذاعة المانية وضمن الأراضي الالمانية واحتلالها لفترة وجيزة، ومن ثم اذاعة بيان يهين فيه المانيا ويتوعدها. وستكون جميع الاذاعات الالمانية مفتوحة لتلقي هذا البيان وبثه في المانيا لتهييج الرأي العام الالماني. ولكن نوجوكس دهش في اليوم التالي للعملية حين علم باندلاع الحرب.

أما هتلر فقد حدد أول شهر سبتمبر ١٩٣٩ موعداً للهجوم على بولونيا وأسر بذلك للجنرال «كايتل» وكلف الأميرال كاناريس رئيس إدارة مخابرات الجيش الالماني بالاستعلام عن احتمال دخول فرنسا وبريطانيا الحرب الى جانب بولونيا. وعندما أبلغه الأميرال كاناريس أن لندن مصممة على حماية بولونيا لم يصدق ذلك،وظل معتزماً الاقدام على مغامرته. بيد أنه كان ينقصه اللمسة الأخيرة والأساسية في مخططه هذا وهي الحصول على «السبب اللازم» الذي يستحيل فيه عليه الرجوع الى الوراء، وأنه بالتالي سيقامر بمصيره ومصير المانيا. وهكذا قر رأيه أخيراً على عملية «الأطعمة المحفوظة» وصدرت أوامره الى مساعديه الذين شرعوا في البحث عن الرجل القادر على تنفيذ هذه العملية. وكان نوجوكس الرجل المنشود. . .

كان هتلر مدركاً كل الادراك ما هو مقدم عليه عندما اتخذ قراره شخصياً بشأن عملية «الأطعمة المحفوظة». فهو يعلم أنه يخاطر بدخول الطريق الذي يستحيل فيه عليه الرجوع الى الوراء. وأنه بالتالي سيقامر بمصيره ومصير المانيا ومصير العالم أجمع. فلم يثنه ذلك عن عزيمته وقرر المضي في لعبته حتى النهاية. لذلك لم تصدق شعوب العالم أذنيها وهي تستمع طيلة شهر أغسطس/آب ١٩٣٩ الى تصريحات هتلر تنادي بالسلام والوئام ورغبة شعب

ألمانيا في تجنب الخلافات مع جيرانه طالباً منهم حسن الجوار والصداقة والعلاقات الودية. وكان هتلر في أوج خداعه للعالم عندما رفع غصن الزيتون فجأة، ولم يعلم أحد أنه يعد في الخفاء لضربته الكبرى. وعندما قال هايدريش الى نوجوكس أن احتمال الاخفاق في هذه المهمة يعتبر خارج نطاق البحث بصورة مطلقة... كان يعني بذلك الاعدام الفوري لنوجوكس ورفاقه في حالة الاخفاق.

لذلك انصرف نوجوكس الى دراسة مهمته دراسة دقيقة مستعيناً بالخرائط الجوية لمنطقة الحدود. كما سلمه كاناريس الملابس العسكرية والأسلحة البولونية، وخصص له صالة فسيحة في أحد المعسكرات لتدريب رجاله الستة الذين اختيروا بدقة لهذه المهمة.

بعد اتمام الدراسات والتدريب غادر نوجوكس برلين مع رجاله كمسافرين عاديين واتجهوا الى بلدة «غليوتيز» حيث حلوا في أحد فنادقها، وسجلوا أسماءهم مهندسين مما يبرر انصرافهم الى دراسة الأراضي المجاورة للبلدة ومنها الأراضي المحيطة بمحطة الاذاعة طيلة عدة أيام. ثم استدعي نوجوكس الى مدينة «أوبلن» في الأيام الأخيرة من شهر أغسطس لمقابلة «هايتريغ مولر» رئيس الغستابو، الذي أبلغه أن الخطة قد توسعت مجدداً وأنها أصبحت تقضي بتدبير عدد من حوادث الحدود؛ وأنه أحضر بالتالي عشرة من السجناء العاديين المحكوم عليهم بجرائم مختلفة؛ وسيقوم أحد الأطباء التابعين للمخابرات بحقنهم بمادة مخدرة ثم تستبدل ثيابهم بثياب عسكرية بولونية وتوضع في أيديهم أسلحة بولونية تمهيداً لإطلاق النار عليهم في منطقة الحدود، حيث ستترك جثثهم كشواهد على العدوان البولوني المزعوم حين ينهال الصحفيون على المنطقة الحدودية في الأيام التالية لتغطية هذه الأحداث.

وعاد نوجوكس الى «غليوتيز» ونفذ القسم الأول من مهمة الحدود وأطلقت النار على السجناء (الجنود البولونيين) وحضر الصحافيون وتوترت

الأحوال على الحدود حتى ظهر ٣١/ ٨/ ١٩٣٩ عندما استلم نوجوكس البرقية الآتية: «اتصل بمولر لأجل الأطعمة المحفوظة». وقد اتصل بمولر فعلاً وأعلمه أنه مستعد للتنفيذ. ثم توجه الى غابة «رايتبور» الملاصقة للحدود حيث ارتدى الألبسة العسكرية البولونية هو ورجاله. وفي الساعة السابعة والنصف مساء اقتحم نوجوكس محطة الاذاعة التي لم يكن فيها سوى فنيين يشرفون على الأجهزة الفنية، وأطلق الرصاصات الأولى فاستسلم الفنيون فوراً. ثم توجه الى ميكروفون الاذاعة وأمر أحد الفنيين ببدء الارسال ثم ألقى خطاباً جامحاً هاجم فيه المانيا وكال لها الشتائم والتهديدات والاهانات الجارحة. وكان هذا الخطاب معداً سلفاً في إدارة المخابرات الالمانية، وأطلق بعد ذلك مع رجاله عدة طلقات على البناء ثم اختفوا. وقد دام هذا الهجوم مع إذاعة الخطاب دقائق معدودة. وأمام درجات المدخل وضعت جثة السجين وهو يرتدي الملابس العسكرية البولونية إمعاناً في التضليل.

قدّر لتلك الرصاصات التي أطلقت في هذه المهمة من قبل ضابط المخابرات الالمانية نوجوكس أن تكون ابتداء الحرب العالمية الثانية التي امتدت كالنار في الهشيم حتى أغرقت العالم كله بالدمار والويلات وملايين القتلى والجرحى وبحر من الدماء لم تشهد له الانسانية مثيلاً. لا سيما وقد ختمت هذه الحرب الضروس الولايات المتحدة الأميركية بإلقائها قنبلتين ذريتين على مدينتي هيروشيما وناغازاكي في اليابان، حيث قتل عشرات الألوف خلال أقل من ساعة. واستمرت هذه الحرب حتى انتصر الحلفاء ودخلوا المانيا ظافرين وانتهى هتلر منتحراً أو مقتولاً. وطوت الأيام والسنون ذكريات هذه الحرب المدمرة ليبقى منها ما خلاصته أن المخابرات هي التي أشعلت الحرب العالمية الثانية.

ولكن لو قرأ الحلفاء كتاب «كفاحي» لهتلر قبل هذه الحرب، لوفروا على البشرية الكثير من الآلام والدماء والعذاب، لأن هذا الكتاب يمثل عصارة العقل الهتلري النازي الجهنمي وتخطيطه المستقبلي، وكان بالإمكان تلافي كوارثه ومآسيه.

المراجع

١ - سعيد الجزائري «المخابرات والعالم». مطابع دار الحياة. بيروت. الطبعة الثانية. لا تاريخ.

٢ - حافظ ابراهيم خير الله «المخابرات الالمانية». (ملف عالم الاستخبارات). توزيع الشركة الشرقية للنشر والتوزيع. بيروت ١٩٧١.

رومل ثعلب الصحراء
وأسرار محاولة اختطافه في شمال أفريقيا

النصر والهزيمة كلمتان صغيرتان في قاموس الحروب؛ وهما في الوقت نفسه رمزا الموت والحياة في قاموس الشعوب والدول. ووقائع الحرب العالمية الثانية ليست عنا ببعيدة... وكثيراً ما لعب قائد عسكري دوراً حاسماً في مثل هذه المعارك المصيرية، كما هو حال الجنرال «رومل» الملقّب «بثعلب الصحراء»، والذي دفع بقادة الحلفاء الى بذل قصارى جهودهم للتخلص منه، وأصبح على لائحتهم «مطلوباً حياً أو ميتاً». وحاول البريطانيون ذلك فعلاً.

فكيف كان ذلك؟ وما هي أسرار هذه الخطة؟.

في الأيام الأولى من شهر كانون الثاني/يناير ١٩٤١، وفي خلال عشرة أسابيع تقريباً، كان قائد الجيش البريطاني في مسرح شمال أفريقية الصحراوي، الجنرال «أوكو نور»، قد حقق نصراً ساحقاً على الايطاليين، وضع به حداً للتهديدات التي توعد بها «موسوليني» باحتلال مصر، وذلك بعد أن سحق تشكيلات الجيش العاشر الايطالي، وأسر ١٣٠ ألف جندي بينهم ٦ جنرالات، واستولى على ٤٠٠ دبابة و٢٩٠ مدفعاً، وذلك في مقابل خسائر من جيشه لم تتعدّ ٤٦٧ قتيلاً و١٢٢٥ جريحاً و٤٣ مفقوداً. والأهم من هذا كله أنه تقدم ٥٠٠ ميل غرباً واستولى على قلعتين رئيسيتين بنغازي وطبرق، في حين ضاعت الى الأبد آمال «موسوليني» في دخول القاهرة دخول الغزاة

الفاتحين ممتطياً جواده الأبيض المطهّم!

سارع «أدولف هتلر» الى نجدة حليفه «موسوليني» بعد الكارثة التي حلّت بجيش المارشال «غرازياني» - الذي طالما تغنّى به دكتاتور ايطاليا وتوعّد به الحلفاء - فأرسل الى هذا المسرح الصحراوي واحداً من أعظم قادة معارك الصحراء ونعني به الجنرال «رومل»، الذي حقق انتصارات سريعة وباهرة حتى باتت مدينة طبرق على شفا السقوط. وكان هذا الميناء يمثل أهمية عسكرية بالنسبة للجانبين المتصارعين: فهو شوكة في خاصرة رومل تهدد مؤخرة جيشه وطرق مواصلاته، مثلما هو ميناء جيد يعتمد عليه بالنسبة للإمدادات القادمة اليه من ايطاليا ومن المانيا على السواء. أما بالنسبة لبريطانيا فقد توقفت سمعة الامبراطورية وهيبتها العسكرية وقتئذ على الاحتفاظ بطبرق بأي ثمن. وهكذا أصدر الجنرال «ويفل» - القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الأوسط - تعليماته المشدّدة الى الجنرال «هور سهيد» - قائد الحامية الاسترالية بطبرق - بالدفاع مع جنوده عن الميناء بأي ثمن والقتال هناك حتى الموت. أدرك الحلفاء أن لا سبيل الى وقف المد الالماني إلا بالتخلص من العقل المفكر لفيلق البانزر، الذي أصبح مجرد اسمه بين صفوف الجيش البريطاني مبعثاً للذعر والارتباك.

وهكذا بدأت القيادة البريطانية تعد للهجوم المنتظر، وقد تسلّطت عليها فكرة إبعاد «رومل» عن قيادة فيلق البانزر الالماني المدرع: يجب شلّ عقل الجيش الالماني في شمال أفريقية إما بقتل هذا العقل أو أسره! كان الفيلد مارشال «كلود أوتشنليك» نائب القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الأوسط، قد أصدر منذ قليل أمر قتال يومي الى «جميع الضباط العظام والقادة في القيادة العامة للشرق الأوسط» قال فيه بالحرف: «ان هناك خطراً حقيقياً في أن يصبح اسم (رومل) بعبعاً ترتعب منه قواتنا، كما أصبح اسمه موضوع مناقشات طويلة لا تنتهي. إن «رومل» مهما كان قديراً أو كفؤاً فإنه ليس انساناً خارقاً للطبيعة، وحتى لو كان كذلك، فإنه من غير المرغوب فيه أن تصفه

قواتنا بهذه الصفات. لذلك أرجو أن تبذلوا قصارى جهدكم لمحو هـذه الفكرة عن «رومل»، لأنه لا يزيد في الـواقع عن أن يكـون قائـداً المانيـاً عاديـاً. لذا يجب ملاحظة عدم ذكر اسمـه عندمـا نشير الى العـدو في الصحراء الغـربية: «فنقـول «الالمان» أو «المحـور» أو «العدو» ولا نقـول «رومـل»، وأنني أطلب منكم التـأكد من تنفيـذ هذا الأمـر ومن صدور التعليمـات اللازمـة الى القـادة الأصاغر بذلك، علماً بأن لهذا الأمر أهمية نفسية (سيكولوجية) عظمى».

كان لدى «أوتشنليـك» مجموعـة الصحراء البعيـدة المدى، التي كـانت القيـادة البريـطانيـة قـد شكلتهـا للعمـل في الصحـراء الغـربيـة، وتتكـون من الفـدائيين المتطوعين. وكـانت هذه المجمـوعة تقـوم بإغـارات جريئـة بعيـدة المـدى خلف خطوط الالمـان. فلو أمكن استخدام قـوة من هذه المجمـوعـة للقيام بقتل أو خطف هذا الثعلب الماكر، فلا شك أن مثـل هذا العمـل سوف يؤثـر بدرجـة كبيرة على نتيجـة المعركـة الوشيكـة. وهكـذا أصبحت المشكلة تنحصـر من الآن وصاعـداً في اكتشاف عـادات «رومـل» وخط سيـره وأمـاكن إقامته ومراكز قياداته التي كان يقوم بتغييرها بصفة مستمرة.

كانت القيادة الالمـانية لجيش البـانزر في شتـاء ١٩٤١ أثناء الاستعـداد للهجـوم الالماني تقـع خلف الخطوط الالمـانية في منـطقة «سيـرين» الأثريـة بـالصحـراء الليبيـة. وفـي يـوم ١٧ نـوفمبر ١٩٤١، كـانت أعاصيـر الشتاء والرياح العاصفة على أشدها لبضعة أيام مضت في منطقة «بيـداليتوريـا»، ولم يكن «شلوسنـر» ـ رئيس الإمداد والتمـوين لفيلق البـانـزر ـ في مـركـز القيـادة آنذاك، كذلك مساعده القديـر كابتن «أوتـو»، حيث كان الاثنـان في مستشفى «أبولونيا»: كان الأول مصـابـاً بـالدوسنتـاريا، والثـاني يعالـج من حالـة التهاب رئوي حاد. أما «رومل» فكان قد غيّر مقر قيادته الشخصية في آخر شهر أغسطس الى «عين الغزالة» (التي تبعد ٤٠ ميلاً غربي طبرق) ثم نقله للمرة الثانيـة الى «جمبـوت» (بين طبرق والبـردية) وتـرك مقر قيـادته في «بيـداليتوريـا» لرئـاسـة الإمداد والتموين، وبـذلك لم تكتشـف المخـابرات البـريطانيـة المقر الجـديد

للرجل العجوز. ونتيجة لتلك العوامل والمتغيرات، فقد كان الكابتن «ريتر» في تلك الليلة هو قائد مقر القيادة الالمانية في «بيداليتوريا» في شهر نوفمبر ١٩٤١، كما كان «بسكول» هو نائبه في المقر. بينما جلس بقية أفراد مركز القيادة من ضباط ومراسلات راكبين، وسائقو الدبابات في المبنى المظلم، يستمعون الى صوت الأمطار المنهمرة بغزارة.

وقبيل منتصف تلك الليلة الظلماء - ١٧ نوفمبر ١٩٤١ - انصرف كل أفراد القيادة الى غرفهم في الطابق الأرضي أو الأول، حيث راح الجميع في نوم عميق، ولم تكن هناك حراسة مشدّدة لمقر القيادة وما جدواها في مكان بعيد كل هذا البعد عن خطوط القتال؟».

كان أحد رجال الشرطة العسكرية يقوم بأعمال المراقبة في الممر السفلي مسلحاً بـ «سونكي» فقط، بينما كان الجندي «ماتي بوكسهامر» يقوم بأعمال الحراسة الليلية في خيمة الحراسة، حيث كانت التعليمات التي لديه تسمح له بأن يرقد على فراشه بعد منتصف الليل.

وفي الوقت الذي كانت فيه «بيداليتوريا» تبدو هاجعة وهادئة، كان عدد من الأشباح السوداء قد دهنوا وجوههم باللون الأسود وارتدوا ملابس الميدان البريطانية، يتربصون بين شجيرات وأعشاب المرتفعات القريبة: وكان بإمكانهم من هذا الموقع القريب، أن يروا أضواء «بيداليتوريا» تطفأ قبيل منتصف الليل بقليل.

كان هؤلاء الأشباح المختفون في غابة السرو الصغيرة، قادمين من رحلة طويلة بعد أن أنزلتهم الغواصتان البريطانيتان «توربي» و«تلزمان» ليلة ١٥ نوفمبر في خليج صغير مهجور على ساحل «برقة». كانت التعليمات التي سلمت لتلك القوة الصغيرة تقضي بقتل أو أسر «رومل» وذلك قبيل شن الهجوم البريطاني الكبير بإثنتي عشرة ساعة فقط!.

يعلّق السير «ونستون تشرشل» على تلك العملية الانتحارية في مذكراته

فيقـول: «. . . ولكي نشلّ العقـل المفكر للعـدو، ومركـز أعصابـه في أحرج اللحظات نقلنا بالغواصات ٥٠ مقاتـلاً من الفدائيين الاسكتلنديين تحت قيـادة الكولونيل «ليكوك» الى نقطة على الساحل الليبي تبعد ١٠٠ ميل خلف خطوط العدو. وتمكن ٣٠ منهم من الوصول الى الشاطىء رغم الأمواج العاتية، حيث كوّنوا جماعتين احداهما لقطع المواصلات السلكية والتلغرافية، والثانيـة بقيادة «كيز» لمهاجمة مقر «رومل» والقضاء عليه».

كان كل شيء قد تم تخطيـطه بدقـة تامـة، في مكتب أميرال الاسـطول السير «روجر كيز» ـ والد قائد قوة الإغارة ـ الذي كان يقـود عمليات الفـدائيين وجمـاعات الإغـارة البريـطانية، اذ تم اختيـار ٥٣ فـرداً من بين مـائـة ضـابط وجندي مارسوا التدريب الشـاق في لندن لأسـابيع طـويلة، اختارهم المـاجور «كيز» من أصلبهم عوداً، وكان قائـده الثاني الكـابتن «كامبـل» يتحدث اللغتين الالمانية والعربية بطلاقة تامة.

في مساء ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤١، وصلت قوة الماجور «كيز» الى شاطىء برقة أثناء عاصفة هوجاء، كانت الأمواج خلالها تزمجر فـوق الغواصـة «تـوربي» التي أخذت تتـأرجح فـوق المياه كعلبـة من الكبـريت، لتنقلب بهم قوارب المطاط مـرات عديـدة، وفي كل مـرة كانت تجـري عمليات الانقـاذ. وأخيراً أمر المـاجور «كيز» رجاله بالتمسك بحبال القوارب مع النضـل للوصول الى الشـاطىء؛ وبعد كفـاح مريـر نجح «كيـز» ومجمـوعتـه ـ ٢٢ ـ رجـلاً في الوصول الى الشاطىء.

أما بالنسبة للغواصة الثانية «تلزمان» فقد ساءت الأمور: غرق رجلان في حين عـاد الى الغواصـة عدد كبيـر من الفدائيين أعضـاء مجموعـة الكولـونيـل «ليـك» بسبب ارتفاع الأمـواج، وبذلـك لم يصل الى الشـاطىء سـوى سبعـة رجال فحسب، لتنخفض قوة الفدائيين بذلـك الى النصف، مما أدى بـالميجر «كيز» الى أن يقرر اقتصار عمل القوة على محاولة خطف «رومل» أو التخلص منه، وإهمال الشق الثاني من المهمة.

بقي الكـولونيـل «ليكوك» ومعـه ٣ رجال في الخلف عنـد نقطة الانـزال على الساحل لستر عملية عودة الفداثيين بعد انتهاء المهمـة، بينما اتجـه باقي القوة (٣ ضباط + ٢٥ جندياً) الى الصحراء سيراً على الأقدام وهم يرتعشـون نتيجة لابتلال ملابسهم وبردِ الصحراء الشديد في تلك الليلة.

على مسيـرة ١٥ دقيقة، كـان هناك «أعـرابي» في انتظارهم: كـان هـذا الاعـرابي هو الليفتـانت كولونيل» جـون هزلـدين» ـ الضابط في قـوة مجموعـة الصحراء البعيدة المدى ـ وكان منذ فترة طـويلة يعيش متخفياً في زيّـه البدوي في صحراء برقة؛ على أية حال، شرح لهم «هـزلدين» المـوقف والطريق الى مقـر قيادة «رومـل». ثم أعطى الميجـر «كيز» ثـلاثة من المـرشـدين العـرب، وهكذا سارت المجموعة نحو هدفها المنشود.

في ليلة ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤١ وقف الميجر «كيز» ورجاله فوق التلال بالقربِ من «بيداليتوريا» ليحددوا موقعهم واتجاههم: في الأمام مبـاشرة كانت الأكواخ الخشبيـة وبعدهـا بمسافـة قليلة غابـة السرو، وفي الـوسط تقع المبـاني الحجريـة الضخمة ـ هـدفهم المنشود ـ حيث يعمـل ويقيم «رومل»، طبقـاً لمعلومات إدارة المخـابرات البـريطانيـة، وهي المعلومات التي أكـدتها كذلك معلومات «هزلدين».

كان «كيز» ورجـاله على ثقـة تامـة من هذه المعلومـات، ولكن الجميع كـانوا ضحـايـا لخـطأ جسيم، وليس من العسيـر اكتشـاف سبب هـذا الخـطأ الجسيم الذي وقعت فيه المخابرات البريطانية.

ففي أواخـر يوليو ١٩٤١ تقلّد الجنـرال «رومـل» قيـادة فيلق البـانـزر الأفريقي ـ الذي كان حديث الانشاء آنذاك ـ وكانت القيادة تعسكـر في منطقـة «بيـداليتوريـا»: «رومـل» ورئيس أركـانـه الميجـر جنـرال «جـوس» والجنـرال «وستفال» وأركان حرب العمليات في مبنى البلدية السابق، وعدة مبان أخرى مجاورة، وضعت عليها لافتـات صغيرة لتمييـز وظائف شـاغليها. وكـانت هذه اللافتات معروفة بالنسبة لإدارة المخابرات البـريطانيـة حيث يعتقد أن العمـلاء

الإنكليز كانوا قد نجحوا في التقاط بعض الصور الفوتوغرافية لها.

كانت وزارة الحرب البريطانية تعلق آمالاً كبيرة على التخلص من «رومل» قبيل بدء المعركة الفاصلة. لهذا ترك الميجر «كيز» ـ قائد قوة الإغارة ـ رسالة مؤثرة لوالده أميرال الاسطول ختمها قائلاً: «إذا نجحت الإغارة وتخلصنا من خصمنا، تكون بريطانيا قد تقدمت للأمام، وهو أمر يستحق الكثير حتى لو فقدت حياتي في سبيله».

انهمرت الأمطار بغزارة... وكأنما كان البرق والرعد هما الموسيقى المصاحبة لهذه المغامرة المثيرة. وفي منتصف الليل تماماً كان الميجر «كيز» يشرح لرجاله اللمسات الأخيرة للهجوم الانتحاري... كان عليه هو و«كامبل» والرقيب «تيري» وستة أفراد آخرون، الزحف الى مدخل مبنى البلدية، بينما يقوم ثلاثة أفراد آخرون بالدوران حول المبنى للوصول الى الباب الخلفي. أما الحارس الالماني الذي كان يقف في منتصف فتحة الباب الأمامي، فقد كان على الرقيب «تيري» أن يقتله بخنجره. ولكن الجندي تحرك فجأة فأخطأ الخنجر طريقه اليه، وسرعان ما اشتبك الرجلان في صراع عنيف بالممر.

صاح الحارس الالماني: «النجدة»، ولكن صياحه ضاع وسط الرياح والرعد والمطر المنهمر، وساهم في ذلك أصوات تدمير محطة توليد الكهرباء التي كانت تبعد نحو ٣٠٠ خطوة عن المبنى.

لم يتمكن المغيرون ـ خلال الاشتباك الذي دار في الممر الضيق ـ من استخدام رشاشاتهم السريعة الطلقات. حاولوا خنق الحارس واسكاته، ولكن الجندي الالماني كان قوي البنية ودافع عن نفسه ببسالة، ولكنه سقط في النهاية مضرجاً بدمه أمام الباب الأول.

نادى «كامبل» ـ الذي يتحدث الالمانية ـ الحارس الالماني، الذي ما إن خرج حتى بادره الميجر «كيز» بوابل من الرصاص أرداه قتيلاً... قفز «كيز»، و«كامبل» و«تيري» فوق جثة القتيل، وأداروا مقبض باب الحجرة

الأولى وفتحوه ليواجههم ضوء يعمي الأبصار. أخذ الضباط الالمان الذين كانوا يجلسون حول المائدة يحملقون في دهشة نحو هؤلاء «المتطفّلين» ودون أي كلمة، وقبل أن يفيقوا من هول المفاجأة حصد الميجر «كيز» رقاب أقدر الرجال في الفيلق الالماني برشاشه. ثم اتجهت قوة الإغارة نحو الغرفة التالية، وفتحوا بابها عنوة، ولكن الظلام ساد المبنى فجأة، وقابلتهم نيران مركزة من مسدسات الضباط الالمان. أصيب الميجر «كيز» برصاصات خمس أنهت حياته، وقفز «تيري» للأمام، وأطلق عدة دفعات من رشاشه في الحجرة وخارجها.

أدرك «كامبل» آنذاك أن «كيز» قد أصيب في مقتل، وأنه كذلك قد أصيب في ساقه لذا سلّم قيادة المجموعة الى الملازم «كوك» الذي وقع على عاتقه، اعتباراً من هذه اللحظة، مهمة قيادة المجموعة والعودة بها الى الشاطىء.

وطبقاً لسجلات المخابرات من كلا الجانبين: الالماني والبريطاني، والأبحاث التي أجريت بعد انتهاء الحرب، فالمعتقد أن أربعة من هيئة الأركان الالمانية قد لقوا مصرعهم، وأصيب عدد أكبر من ذلك. أما هدف العملية كلها: «رومل» فقد غادر «بيداليتوريا» الساعة الثامنة والنصف من مساء ذات اليوم ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر لحضور حفل زواج أحد الشيوخ، ليعود ثانية بعد منتصف الليل بأربعين دقيقة. ومن ذلك يتبين أنه كان في مقر القيادة الذي هوجم بعد انتهاء الإغارة بأربعين دقيقة فقط أنقذت حياته.

وبذلك انتهت المغامرة الكبرى بالفشل الذريع نتيجة لظروف غير متوقعة، ومقاومة أبداها عدة رجال من جنود وضباط فيلق البانزر الالماني. ولا يمكننا التفكير الآن فيما كان سيحدث لو كان المغيرون الانكليز قد تمكنوا من دخول مقر القيادة في صمت وسكون، ودمروا رئاسة الإمدادات والتموين تدميراً كاملاً، قبل بداية الهجوم البريطاني الكبير بنحو خمس ساعات فقط: عندئذ كان وضع الإمداد والتموين للفيلق الالماني سيصبح في موقف لا

يحسد عليه على الإطلاق، لكنها احدى سخريات القدر.

لم يجرؤ الجنود الانكليز المنسحبون ـ بعد أن فقدوا قائدهم ونائبه ولم يقتلوا رومل ـ على العودة مباشرة الى الغواصة التي كانت تنتظرهم، وذلك خوفاً من تعقّبهم بواسطة القوات الالمانية الخاصة، التي قد ترسل للبحث عنهم، لذلك قاموا بالاختباء لدى الأعراب بمنطقة مجاورة.

خرجت قوة المانية ـ ايطالية مشتركة للبحث عنهم فجر اليوم التالي، وقامت بتفتيش دقيق لكافة المناطق عدة أيام، لم تتمكن من التوصل الى مكان تلك القوة التي اختفت كأنما انشقت عنها الأرض وابتلعتها!.

بعد عدة أيام قبض على أول جندي بريطاني في نفس الكوخ الذي كانت القوة الالمانية ـ الايطالية قد فتشته من قبل، وكان يرتدي ملابس الأعراب. وما لبث بقية الفدائيين الانجليز أن وقعوا في أسر الالمان. ولم ينجح من الإفلات منهم سوى الرقيب الداهية «تيري» الذي تمكن من تدبير هروبه مع رجلين، حيث وجد طريقه الى الخطوط البريطانية.

لم يُعامَل الأسرى الانجليز معاملة العملاء، حيث كان يعني ذلك إعدامهم رمياً بالرصاص ولكن «رومل» ـ بعد أن حصل على تصديق خاص من هتلر شخصياً ـ قام بمعاملتهم كأسرى حرب. أما قائد الإغارة الميجر «كيز» فقد دفن في مقبرة «بيداليتوريا» مع الأربعة الالمان القتلى، الذين تم دفنهم في جنازة عسكرية.

ان عملاً من هذا النوع ـ في الواقع ـ يستحق الاعجاب والتقدير. وبالرغم من الخسارة الكبرى التي مني بها «المحور» بعد هزيمته في الحرب العالمية الثانية، فتبقى للجنرال «رومل» ـ ثعلب الصحراء ـ أهميته الكبرى في الحرب والسلم. وشخصية من هذا الطراز جديرة بالتقدير والثناء والقدوة.

المراجع

١ ـ العميد الركن محمد فيصل عبد المنعم «رومل.. مطلوب حياً أو ميتاً». مجلة «الحرس الوطني» (السعودية). السنة السادسة. العدد ٣٥. محرّم ١٤٠٦ هـ/اكتوبر ـ تشرين أول ١٩٨٥. ص ٧٣ ـ ٧٧.

٢ ـ رمضان لاوند «الحرب العالمية الثانية، عرض مصوّر». دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة التاسعة. ١٩٨٢. ص ١٣٨ ـ ١٤٤.

عملية كروسيدر
وصراع البقاء بين الحلفاء والمحور

لم تشهد البشرية حرباً مدمّرة وقاسية كتلك التي تُعرف بالحرب العالمية الثانية. إلا أن الكثير من عملياتها مثّلت نقطة فاصلة في تاريخ هذه الحرب، كما قصّرت بالتالي من عمرها الكوارثي. وكان من بين هذه العمليات وأكثرها أهمية «عملية كروسيدر»، التي كانت منطقة شمالي أفريقية مسرحاً لها، وبالتحديد في الصحراء الأفريقية وميناء طبرق، باعتبارها من أكثر المواقع الاستراتيجية أهمية للإستعمار الغربي.

كيف حصلت عملية «كروسيدر»؟ وما هي أسرارها؟.

أحرز البريطانيون في شمال أفريقية خلال عام ١٩٤٠، انتصارات كاسحة على جيوش ايطالية كانت تتفوّق عليهم عدداً عدة مرات. وكانت نتيجة ذلك أن هبّت المانيا الهتلرية الى نجدة حليفتها ايطاليا الفاشستية، فأرسلت الى الساحة الأفريقية ما سمّي وقتئذ بالفيلق الأفريقي، بقيادة الجنرال «وومن» ثم المارشال «أروين زومل»، الذي دفع البريطانيين وردّهم على أعقابهم حتى الحدود المصرية. بيد أن مدينة طبرق الليبية بقيت بأيدي البريطانيين، وثبتت صامدة للهجوم المحوري وحصاره.

وبتاريخ ١٨ نوفمبر ١٩٤١، قامت قوات بريطانية والكومنولث، بقيادة الجنرال «أوتشنليك»، وبإسناد ما يزيد عن ٧٠٠ دبابة، بالهجوم على القوات الالمانية، فيما عرف بعملية «كروسيدر».

جرت عمليات «كروسيدر» في الصحراء الأفريقية، ابتداء من ١٨

تشرين الثاني/نوفمبر وحتى وقت متأخر من شهر ديسمبر ١٩٤١. وكانت «كروسيدر» بجملتها معركة مشوشة متلبكة، استعمل الجيش البريطاني فيها، لأول مرة، قوة مدرّعة على مواجهة كبيرة. وقد أحدث قدوم الفيلق الالماني الأفريقي، غير المتوقع، الى شمال أفريقيا عام ١٩٤١، قلقاً كبيراً وانزعاجاً شديداً لقيادة الحلفاء، وأرغمَ قواتها على التقهقر من ليبيا والانسحاب الى ما وراء الحدود المصرية. وقد خلّفت هذه القوات وراءها حامية محاصرة في ميناء طبرق، على الساحل الليبي. وقد صار الإفراج عن هذه الحامية هدفاً أولياً لقائد قوات الحلفاء، الجنرال «كلود أوتشنليك»، الذي صرف معظم صيف عام ١٩٤١ وهو يعد لهجوم كبير مضاد. كان «أوتشنليك» يدرك أن هجوماً استراتيجياً مضاداً يستدعي لنجاحه كميات كبيرة من المعدات، بما في ذلك الدبابات، وقد استغل كل وقت توفّر له للعمل على الوصول بقوات الدبابات الى مستوى مقبول. واستطاع بالفعل أن يجمع ٧٥٠ دبابة كان منها ٣٣٦ دبابة نوع «كروز»، من نماذج قديمة وحديثة، و٢٢٥ دبابة مشاة نوع «ماتيلدا»، و١٩٥ دبابة خفيفة أميركية، نوع «ستيورات»، كانت قد وصلت حديثاً الى الشرق الأوسط، لتحل مكان الدبابة الخفيفة والأقل جودة، نوع «فيكرس». وكان من سوء حظ البريطانيين أن هذه الدبابة الأميركية، رغم ميزاتها العديدة، لم تكن متأقلمة صحراوياً، وكانت تنقصها أجهزة الاتصال اللاسلكية، ولذلك فقد أرسلت فور وصولها الى الورش الفنية ليجرى عليها برنامج تعديل كان سبباً في تأخير الشروع بعملية «كروسيدر» عن موعدها كما كان قد خطط له.

كان لدى «رومل» مقابل هذا العدد الكبير من المدرعات البريطانية، ٣٢٠ دبابة، منها فقط ٣٥ دبابة مسلّحة بمدفع من عيار ٧٥ ملم. لكن مثل هذا النقص العددي كان معوّضاً ومستوراً بشيء هام، وهو أنه كان لدى الالمان عدد كبير من المدافع المضادة العظيمة التأثير والفاعلية، ومن أهمها المدفع المشهور عيار ٨٨ ملم. كما كان الالمان قد وضعوا وطوروا عدداً من التكتيكات الفاعلة بغية تحقيق تعاون مثمر متبادل بين الدبابات والمدفعية والمدافع المضادة للدروع. وكان البريطانيون من جهتهم يفتقرون عامة الى

مثل هذا التعاون بين الأسلحة، كما كانت إحدى أسلحتهم الرئيسية، وهي مدفعية الميدان، في حالة عظيمة من الشلل والفوضى، على أعقاب إعادة تنظيم أساسي تمت في منتصف مراحل المعركة. وكثيراً ما كانت هذه المدفعية تجد نفسها مبعثرة، فاقدة لأي تنظيم يستطيع أن ينتج مفعول النيران المحتشدة، الحيوية لقيام دفاع ناري مجدٍ ضد الدبابات.

أطلق الحلفاء على خطة هذا الهجوم الاستراتيجي المضاد اسم «كروسيدر»، وكان من أهم أهدافهم الإفراج عن الفرقة ٧٠ المحصورة في طبرق. في حين كان الهدف الكلي العام للهجوم تدمير قوات العدو المدرعة. وكان الجزء الضارب الرئيسي في هذا الهجوم هو الجيش الثامن، المؤلف من الفيلق ٣٠ والفيلق ١٣. . وكان يتوقع أن تنجح الفرقة ٧٠ في كسر الحصار المضروب حولها في طبرق، لتضم جهودها الى جهود الفيلقين القويين.

كانت خطة العملية «كروسيدر» في أساسها، بسيطة. كان على الفيلق ١٣، مبدئياً، أن يمسك الطريق الساحلية، وكذلك المسالك والدروب الموصلة الى المناطق اللوجستيكية الهامة في المؤخرة. أما الفيلق ٣٠، فكان عليه أن يندفع جنوباً، ومن ثم شمالاً باتجاه طبرق. وعلى حامية هذه المدينة المحاصرة أن تقوم، عند حلول الوقت الملائم، بالتحرك لكسر الطوق، على أن تسعى لمفاجأة العدو من خلفه.

بدأت العملية في ١٨ نوفمبر ١٩٤١، بحركة الفيلق ٣٠. . كان هذا التشكيل بمعظمه مدرّعاً، وتألف من الفرقة المدرعة السابقة، والجحفل المدرّع ١٤، ولواء الحرس الميكاني ٢٢، وكذلك من فرقة جنوب أفريقية الثانية كاحتياط. وقد تحرك هذا الفيلق حول الأسلاك الحدودية الفاصلة بين مصر وليبيا، مندفعاً خلال مناطق التعسكر الايطالية الصحراوية، القديمة والمقفرة، والتي كانت قد استولي عليها في العام الماضي، ومن ثم تحول ليندفع شمالاً باتجاه طبرق.

ان الموقع الرئيسي البارز، على مسالك الوصول الى طبرق، هو مرتفع

«سيدي رزق»، على بعد ١٩ كلم من محيط المدينة جنوباً، ومطاره الهام. وقد تحول هذا المرتفع ليصير أكثر المعالم أهمية أثناء ما تبع من عمليات، وليكون، طوال الأيام والأسابيع التي تلت، موضوعاً لمرات متعددة من احتلال واستعادة بين طرفي النزاع. غير أن التماسك العام للفيلق ٣٠، أخذ يتفسّخ ويتكسّر منذ أن بدأت الحركة في مراحل العمل المبدئية. فالعناصر الرائدة، بدلاً من أن تبقى قوة متضامّة، راحت على العكس تنتشر بالتدريج على شكل مروحة عبر الأراضي الصحراوية، جاعلة من اعتراض العدو وتشتيته لمختلف الأرتال مسألة هيّنة نسبياً. كانت الأرتال الحليفة المتقدمة تواجه، المرة تلو المرة، بقوات صغيرة المانية أو ايطالية كانت تتسبّب في التبطئة والتأخير، وتنجح في نشر التلبّك والفوضى وتمزيق الأوصال. وكانت الاتصالات بين مختلف الوحدات الحليفة شبه مستحيلة، بسبب سوء الأجهزة اللاسلكية المتوفّرة، وانخفاض مستوى التدريب بوجه عام. وهكذا، وعوضاً عن زحف مترابط حذر دقيق، فقد تحولت حركات الفيلق ٣٠ باتجاه «سيدي رزق»، تدريجياً، الى سلسلة من الحركات المشتتة.

وقد أمكن، عند وصول الفيلق الى مسافة قريبة من «سيدي رزق»، أن يتحقق شيء من التحشد. ولكن، وبينما كان الحلفاء يعدّون لهجوم على هذا المرتفع، فوجئوا أولاً بهجوم الماني عنيف. وكان أن تَصَدّع مخطط الحلفاء، وتحول هجومهم المتوقع الى سلسلة من العمليات الدفاعية المستعجلة، كانت قطعان الدبابات تلقى في أتونها قطعة بعد أخرى. وكانت المدفعية تنجح أحياناً في انقاذ الموقف هنا وهناك؛ لكن هذه المدفعية، في أحيان كثيرة، كانت تترك منعزلة لتوفير اسناد ناري في حدود المستطاع. وقد جرت محاولة من حامية طبرق لكسر الحصار، وللإشتراك في المعركة الدائرة، ففشلت المحاولة وأدت الى خسارة ٦٠ دبابة من أصل ١٠٩ دبابات كانت في حوزة الحامية قبل المحاولة. وقد خسر أحد الألوية معظم دباباته، ولم يبق لديه منها سوى ٣٨ دبابة. وكان البريطانيون على قاب قوسين من كارثة، إلا أنهم نجوا

من ذلك بوصول أحد ألويتهم المدرعة الكاملة العدد الى ميدان القتال في الوقت المناسب.

وكذلك كانت خسائر الالمان ثقيلة. وقد تراجعوا تاركين «سيدي رزق» في أيدي الحلفاء، لكن لفترة قصيرة من الزمن. خيّم الهدوء على الجبهة لبعض الوقت، وظل كذلك الى أن عاد الالمان الى الهجوم بقوة من مستوى فرقة، واستولوا بطريق الصدفة على المقر العام لأحد الألوية المدرعة بكامله. وقد أحدثت هذه الخسارة مزيداً من البلبلة والفوضى في القتال، وانتقل «سيدي رزق» الى أيدي الالمان من جديد. وفي هذه الاشتباكات ظهر بوضوح تفوّق الالمان في الجاهزية القتالية والمرونة التكتيكية، مرة بعد مرة، بينما كان الحلفاء يعملون غالباً على معالجة الصعوبات المحلية بمهاجمات متهوّرة. وقد مني الحلفاء من جراء هذا التكتيك على وجه العموم بخسائر ثقيلة باهظة. إلا أن الفيلق ٣٠، إستطاع بحلول ٢٣ نوفمبر أن يتوصل الى حشد مدرّعاته من جديد. ومن المعروف أن القتال في الصحاري عادة صعب وعسير. وفي مثل هذه الأراضي تسود المتناقضات: الحر الشديد والبرد الشديد... الجفاف أبداً والغبار بشكل دائم، واستعمال المركبات الآلية في بيئة كهذه يفرض صعوبات بالغة في الاعتناء والصيانة:.. حبيبات الرمال تجد طريقها دوماً الى أحسن أجزاء المحرك حماية ووقاية، وتصبح عملية التنظيف، من جراء ذلك، في طليعة الاهتمامات اليومية.

وفي وقت مبكر من يوم ٢٣ نوفمبر، نجح الحلفاء بدورهم في وضع اليد على المقر العام للفيلق الالماني الأفريقي، لكن القائد الالماني، الجنرال «كروول» كان متغيباً، وقد تفاعل مع هذا الطارىء بعنف وفاعلية، بالهجوم حالاً في منطقة «سيدي رزق» ونجح فطرد الحلفاء على الفور من هذه المنطقة، مقوّضاً بذلك خطط وآمال قيادة الجيش الثامن. وقد قدرت هذه القيادة حينئذ أن الموقف صار يتطلب استعمال الاحتياط كله في محاولة أخرى للإستيلاء على «سيدي رزق»، وأخذت في الاستعداد لذلك. وقد ساعد رومل على تسريع هذا الاستعداد من جانب الحلفاء، باختياره ذلك

الوقت عينه، للقيام بإحدى غاراته التي اختص بها، وتوغّل عميقاً في مؤخرة الحلفاء، عابثاً بأنحاء كثيرة من هذه المنطقة. لقد اعتبر البعض تلك الغارة في وقتها حركة ماهرة وتهديداً خطيراً للحلفاء، غير أنها في الواقع كانت خطأ تكتيكياً كبيراً، لأن رومل ترك وراءه قوات ضخمة من قوات الحلفاء، وسريعاً ما احتشدت هذه القوات وباتت جاهزة للهجوم على «سيدي رزق».

وحان الوقت لشن هذا الهجوم، عندما توصل الحلفاء، بحشد من نيران المدفعية هذه المرة، الى احتواء غارة رومل وإيقافها. لكن حدث أن قام الالمان، هذه اللحظة بالذات، بهجوم مضاد بفرقة مدرعة، فقوبل هذا الهجوم، هذه المرة أيضاً، بسريّة من مدفعية الميدان، استطاعت أن توقف المهاجمين عند فوهات مدافعها تقريباً دافعة في سياق ذلك ثمناً باهظاً. إلا أن صمود هذه السريّة كان كافياً لضعضعة توازن الالمان؛ فاغتنم الحلفاء هذه الفرصة، ليدفعوا بمزيد من دبابات الاحتياط الى الفيلق ٣٠، وليعود القتال الى الاشتداد بعد فترة من الخمود والركود.

كل هذه المهاجمات كانت صورة نموذجية عن تكتيك العمل. في ذلك الزمن كانت دبابات الحلفاء تندفع هاجمة، مرة بعد مرة، على دفاعات مضادة للدبابات فتحصدها هذه الدفاعات حصداً، وتقوم بدور كان أكثر من عملية توازن بين مُهاجم ومُدافع. ورغم ذلك، فقد أخذ الحلفاء بالتدريج، يتحركون قدماً الى أن تمكنوا من تحقيق ارتباط مع حامية طبرق. ولمرة أخرى، وقع «سيدي رزق» في أيدي الحلفاء.

لكن الحلفاء لم ينعموا بهذا الكسب طويلاً. فقد بادر الالمان، بتكتيك نموذجي، الى القيام حالاً بهجوم مضاد، فأوقعوا الفوضى في صفوف الحلفاء، واستعادوا «سيدي رزق» من جديد، وبذلك انقطع الارتباط مع طبرق. وتراءى لمرة أخرى أن رومل قد كسب الجولة أيضاً. إلا أن هذا كان وهماً. فقد كان لا يزال لدى الحلفاء احتياط يكون جاهزاً بعد أن يعيدوا تنظيم أنفسهم، في حين لم يكن لدى رومل أي احتياط بالمرة. وكان هجومه

المضاد الآنف الذكر عبارة عن تضليل وتحويل للأنظار أملاً بأن يؤدي الى انسحاب خاطىء لقوات خصومه وهم يجتازون مرحلة حيوية حرجة. ولقد أرغم في النهاية على التراجع بدوره، واستطاعت القوات الالمانية والايطالية، في سلسلة من الحركات الحسنة التخطيط، أن تنسحب بانتظام حتى «العدم» ومن ثم الى «العقيلة». وقد استمرت هذه الحركة التراجعية حتى تاريخ ٦ كانون الثاني/يناير عام ١٩٤٢، وذلك بالرغم من أن عملية «كروسيدر» كانت قد انتهت قبل ذلك بوقت كبير.

حققت هذه العملية بعض أهدافها، وهو الإفراج عن مرفأ طبرق وحامية المدينة، لكنها لم تحقق هدفها العام وهو تدمير قوات العدو المدرّعة فبقيت هذه القوات سليمة، تنتظر الفرصة المقبلة للحركة شرقاً من جديد، لتستولي هذه المرة على طبرق، ولكي تصل حتى موقع العلمين حيث سيكون رومل على بعد بضع كيلو مترات من مدينة الاسكندرية.

وقد اعتبر الحلفاء هذه العملية بمثابة انتصار لهم، وربما كانوا على حق في ذلك، إلا أن هذا النصر كلّفهم ثمناً غالياً جداً. وقد نتجت هذه التكلفة، أو معظمها، عن أخطائهم التي تمثلت خاصة فيما يلي:

١ ـ التشتّت بدل التحشّد.

٢ ـ تهور وطيش في مهاجمات ضعيفة ضد مواقع قوية الدفاع.

٣ ـ تغذية لمجموعة من المعارك الصغيرة بمجموعات قتال صغيرة، بدلاً من الانتظار حتى سنوح موعد ومكان الضربة الهامة القاصمة.

وفيما يتعلق بدبابات الحلفاء، فإن ما ظهر منها لم يكن ليحظى بالثناء والتقدير. وكذلك كانت الحال حتى مع النموذج الجديد لدبابة «كروزادر» المسلحة بمدفع عيار رطلين، اذ ثبت أن هذه المدرعة عاجزة حيال دبابات مجهزة بأسلحة من عيار أكبر وسرعة أعلى، وأن تدريعها ضعيف الوقاية ضد مثل هذه الأسلحة. ولم يكن حال الدبابة الأمريكية الجديدة «ستيوارت»

بأحسن حال من الدبابة «كروزادر». وقد ظهر أن الدبابة الأمريكية مفتقرة الى المدى العملياتي، وقد تعرضت هي ودبابات المشاة الخفيفة «ماتيلداس» و«فالنتين» الى خسائر ثقيلة من قبل المدفع الالماني عيار ٨٨ ملم.

وعلى كل حال، ورغم كل ما حصل، فقد تعلم الحلفاء من أخطائهم، وصاروا بالتالي أحسن استعداداً وأكثر لياقة لخوض المعارك القادمة، معارك كانت هزائم في أول الأمر، لكنها قادت بالتأكيد أخيراً الى النصر. والفشل - كما يقال - هو أم النجاح. ومن لا يعمل لا يخطىء.

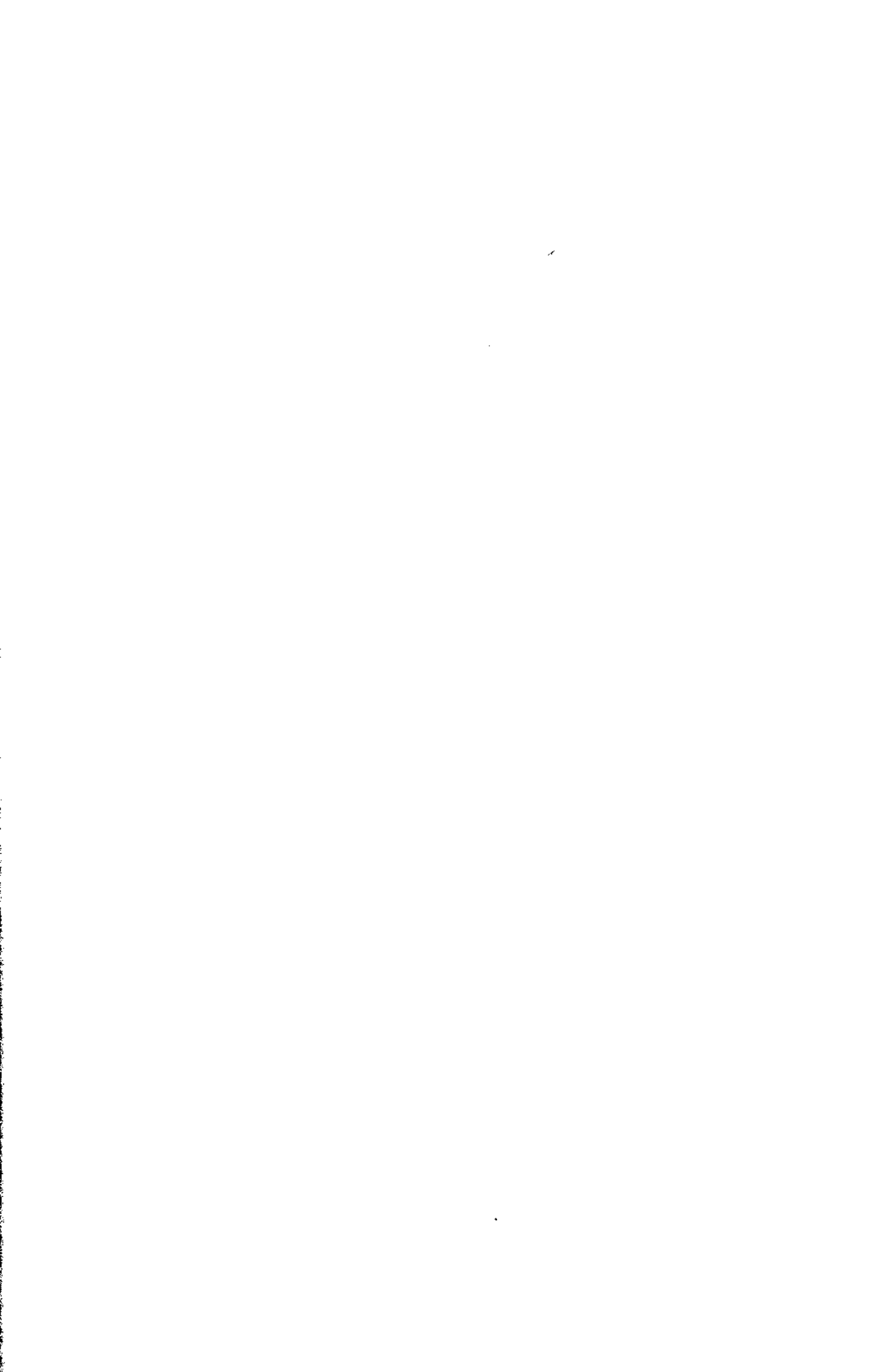
وتبقى العبرة أخيراً، في الاستفادة من كل الدروس والتجارب؛ كما يتحتم تحويل الهزائم الى انتصارات، لأن الحياة في النهاية هي صراعٌ على الوجود والبقاء.

المراجع

١ ـ العقيد محمد صفا «عملية كروسيدر». مجلة «الحرس الوطني». (السعودية). السنة السادسة. العدد الثالث والثلاثون. ذو القعدة ١٤٠٥ هـ/ اغسطس/آب ١٩٨٥. ص ٥٤ ـ ٥٧.

٢ ـ رمضان لاوند «الحرب العالمية الثانية، عرض مصوّر». دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة التاسعة. يناير ١٩٨٢. ص ١٣٨ ـ ١٤٤.

٣ ـ العميد الركن محمد فيصل عبد المنعم «رومل.. مطلوب حياً أو ميتاً». مجلة «الحرس الوطني» (السعودية). السنة السادسة. العدد الخامس والثلاثون. محرم ١٤٠٦ هـ/اكتوبر ـ تشرين أول ١٩٨٥. ص ٧٣ ـ ٧٧.



الجاسوسية وصراع الأبالسة

كلما هلّ عصر جديد على البشرية، يستفيق الانسان على تطورات لم تعرفها الانسانية من قبل، وعلى فنون في المكر والخداع متقدمة جداً عما سبقها. ويبقى الانسان أولاً وأخيراً سيد الموقف. كما تبقى الحرب العالمية الثانية مسرحاً غنياً لمختلف الأساليب التي جسدت بشكل كبير عظمة الانسان وعبقريته، وخصوصاً في مجال الاستخبارات والتجسس. وفي الوقت الذي تأكد فيه جلياً أن «لا تجسس بغير مال»، فقد لعبت بعض الشركات المالية في أميركا، والتي كانت توجّه من قبل النازي أدولف هتلر، دوراً هاماً في هذا المضمار، بعد أن شكلت «وكراً معلوماتياً» لا بأس به.

فما هي بعض هذه الشركات؟ وما هي أسرارها؟.

ففي شروق اليوم السابع عشر من شهر يونيو ١٩٤١، وصل «ولبوركيجان» الى مكتبه في نيويورك، فصبّحته رسالتان أطارتا صوابه. و«ولبوركيجان» هو القائد النابغ «للرابطة الالمانية الاميركية» وصحيفتها «الامريكي الحر» التي تعمل على نشر الدعاية النازية..

أما الرسالة الأولى، فخطاب من مصرفه ينبئه أن الأموال المودعة لديه لحساب «الامريكي الحر» قد جمدت تنفيذاً لقرار صادر من وزارة المالية. وأما الرسالة الثانية فصورة من أمر لرئيس الحكومة يحظّر فيه على جريدة «الامريكي الحر» أن تقوم بأي تصرف مالي إلا بعد أن ترفع الى وزارة المالية بياناً وافياً عن أعمالها كافة.

وأمسك «كيجان» تلفونه بلهفة، فإذا أنباء سيئة أخرى تطرأ. فقد صدرت أوامر مماثلة تجمد كل موارد النازي المالية، وأن ما دهى الرابطة ذاتها قد دهى «اتحاد المهن الالماني الامريكي» و«الجمعية الامريكية للإعانة الالمانية»، وعشرات غيرها من الهيئات الصغيرة الملحقة بها. .

وأخذ رئيس الرابطة يزمجر: «انهم لا يستطيعون أن يفعلوا هذا بنا، اننا مواطنون أمريكيون، وها نحن نضطهد على يد جستابو أمريكي».

ولكن وزارة المالية نعتت عملها بأنه «مراقبة الاعتمادات الأجنبية» وقد أنشئت هذه الادارة قبل الهجوم على «بيرل هاربور»، وتبين فيما بعد أن انشاءها كان من أحكم القرارات التي اتخذت في هذه الحرب على الصعيد الامريكي. وفي الحرب العالمية الأولى، كانت جهود وكلاء الالمان في الولايات المتحدة ظاهرة الأثر في أعمال التخريب، وأهمها الانفجار الذي حدث في مدينة «جرسي» ويعرف باسم انفجار «بلاك توم». أما في هذه الحرب العالمية الثانية فتكاد تنعدم حوادث التخريب وقلما نجحت أعمال التجسس. وسبب ذلك أن «إدارة مراقبة الاعتمادات الخارجية» سلبت وكلاء العدو نقودهم، وقبضت على ممولیهم، وأوصدت الأبواب في وجه المال الوارد من الخارج، ولا تجسس بغير مال. وقد بلغ من احكام تدابير وزارة المالية ان اضطر «المخربون» الذين نزلوا من غواصة بجزيرة «لونغ ايلاند»، أن يجلبوا معهم نقودهم، وقد بلغت ١٧٧ ألف دولار ورقاً من فئة ٥٠ دولاراً. .

والى سنة ١٩٤٠، كانت حملة وزارة المالية على وكلاء العدو قد أخذت تسير سيرها، فلما اجتاح هتلر غرب أوروبا تلقت المصارف ومكاتب السماسرة الامريكية عدة برقيات من الممالك المحتلة، بالتصرف في الأوراق المالية والنقود المودعة بأميركا حيث ارتابت الحكومة في أن تكون هذه البرقيات قد صدرت تحت ضغط وتهديد، فحظّرت انفاذ هذه التصرفات ما لم ترخص بها، وجعلتها لا تصدر ترخيصاً إلا بعد أن تقف على جلية الأمر. .

فلما كانت سنة ١٩٤١ بلغ النشاط النازي في إحداث الفتن حداً مروعاً، ولم يكن بد من مقاومته بسلاح أشد صرامة. فأصدر رئيس الحكومة أمراً في ١٤ يونيو يحرم على كل أوروبي في الولايات المتحدة، فرداً كان أو مؤسسة، أن يعقد أية صفقة مالية بغير ترخيص سابق من وزارة المالية. ولأسباب قوية شمل الحظر أيضاً كافة الأفراد والشركات اليابانية، وسوى بهم الصينيين رغبة في حمايتهم. وطبق الحظر أيضاً على كل الهيئات التجارية الأمريكية، اذا كانت مدينة لأي فرد في هذه الممالك أو اذا كان من الممكن أن تخضع لأية صورة من صور الإشراف أو التدخل الأجنبي. فوجب على جميع هؤلاء أن يراجعوا وزارة المالية قبل التصرف في أموالهم، وإلا كانوا عرضة للحبس أو لغرامة قدرها ١٠ آلاف دولار. وتضمن أمر الرئيس مادة تقضي بسريان أحكامه أيضاً على كل مواطن أمريكي يتهم بأنه من وكلاء العدو الالماني، الى أن تثبت براءته. وهذه المادة هي التي طبقت على «ولبوركيجان» وعلى «الامريكي الحر» الصحيفة النازية..

وهكذا أصبح لزاماً على أهل الريبة، الذين لا يستطيعون سحب مبلغ من حسابهم في المصارف، أن يلجأوا الى وزارة المالية حتى من أجل أن يأكلوا. وكان حتماً عليهم أن يفضوا بحقيقة أمورهم دون أن يعلموا مقدار ما تعلمه السلطات الامريكية عنهم، فإذا كذبوا وقعوا لساعتهم في الفخ..

وقد كانت وزارة المالية تعلم أموراً كثيرة، على ما يبدو، وتحت سلطاتها مصادرها الخاصة تستقي منها معلوماتها: «مكتب الاستخبارات السرية» و«خفر السواحل» و«مصلحة الضرائب» و«الجمارك» و«المصارف الحكومية» وما يتبعها من ١٥٠ ألف مصرف تجاري. وزد على ذلك أنها تلقى العون من قلم الاستخبارات الحربية و«إدارة الرقابة البريطانية» ومن كل سفارات أمريكا وقنصلياتها..

ولم تغب شمس ١٤ يونيو حتى بدأ ينهال على «إدارة مراقبة الاعتمادات الأجنبية» في واشنطن، سيل من طلبات الترخيص، وبيانات

وإقرارات عن الملكية. .

ثم حرم انتقال ملكية الأموال الأجنبية، وبلغ مقدار ما شمله التحريم ٧ ملايين دولار. وشملت وزارة المالية برعايتها من لم تشك في براءتهم ومنحتهم حوالي ٤٠٠ ألف ترخيص مؤقت. .

وكان أكبر صيد وقع في شركها هو «الشركة العامة للانيلين والأفلام» وهي شركة كيميائية أمريكية لها مصابغ في نيوجرسي ونيويورك، وتبلغ أموالها ٦٦ مليون دولار ويدخل في ملكيتها عدة شركات أمريكية ملحقة بها، وأهمها شركة «أجفا انسكو» بنيويورك. وقد قرر مديرو الشركة أنها أمريكية الجنس، ولا تخضع لأية رقابة أجنبية. ومع ذلك فقد كانت هذه الشركة مدرجة على قائمة أهل الريبة بعد ١١ يونيو ١٩٤٠، حين طلب مصرف في نيويورك ترخيصاً لكي يسلم بمقتضاه الى مشترٍ جديد في سويسرا، قسماً كبيراً من أسهم الشركة التي كان يحتفظ بها المصرف لحساب شركة هولندية.

وذكر المصرف في طلبه أن البيع قد تم في شهر أيلول السابق. ولما كانت هولندا قد سقطت بعد ذلك، وجهت وزارة المالية الأسئلة التالية الى الشركة: ما سبب هذا التأخير العجيب في نقل ملكية الأسهم؟ ومن هم أصحاب الشركة الهولندية؟ ومن هو المشتري السويسري؟. .

لم يشق على الشركة أن تجيب على أسئلة سهلة كهذه: «فالمكاتبات السابقة الخاصة بنقل الملكية قد فقدت في البريد، وهي لا تعلم شيئاً عن الشركة الهولندية وأن قوانين المصارف السويسرية تحول دون حصولها على بيانات المشتري السويسري». ومع ذلك ثبت من التحقيق الذي قام به المصرف، أن الطلب الذي جاءه لم يحمله اليه البريد، بل سلمه اليه شخص يسمى الدكتور «دويسبرج» وهو محام بنيويورك يقول أنه تلقى الطلب من مصرف سويسري. وثبت أن الدكتور «دويسبرج» هو ابن الكيميائية الأول لأكبر مؤسسة كيميائية في المانيا، ألا وهي «شركة فارين» كما تبين أن رئيس شركة الانيلين ـ مع أنه أمريكي الجنس ـ هو أخ الاستاذ الأكبر «هرمان شمتز» رئيس «شركة فارين».

واتضح من موالاة التحقيق أن شركة الانيلين استمرت تدفع أرباح تلك الأسهم الى الشركة الهولندية برغم انتقال الأسهم بالبيع المزعوم. ثم دلت التقارير الواردة من «وال ستريت» الحي المالي في نيويورك، على أنه حين أدمجت الشركات المتفرقة بعضها في بعض، ووحدت في شركة واحدة باسم «الشركة العامة للانيلين والأفلام» قامت «شركة فارين» بشراء أسهمها الموجودة في الخارج على يد مصرف سويسري..

ويلوح أن قرار وزارة المالية بوقف انتقال الملكية للأسهم أثار ثائرة مديري شركة الانيلين اثارة لم تعهد من قبل. والظاهر أنهم كانوا يرون فض المسألة كلها بدون تأخير أمراً حيوياً، فإن مديري الشركة والمحامين أسرعوا الى واشنطن، وطلب المشتري من وزير سويسرا المفوض أن يتدخل في الأمر، ففعل. ويبدو أن حكومته أبلغته أن المشتري السويسري خاضع لسلطات سويسرا ولكن وزارة المالية ظلت مع ذلك تماطلهم..

وفي ليلة ١١ ديسمبر ١٩٤١، أي بعد الهجوم على «بيرل هاربور» بأربعة أيام، استقلت نخبة من رجال وزارة المالية الطائرة الليلية من واشنطن الى نيويورك وخرج تلك الليلة مئات من موظفي «مراقبة الاعتمادات الخارجية» في مهمات مشابهة في طول البلاد وعرضها. وكانت المهمة الموكولة الى ركاب هذه الطائرة أن يضعوا يدهم على «الشركة العامة للأنيلين والأفلام»، لأنها في أكبر الظن هي العدو الأول..

وأدى التحقيق الذي دام عدة أشهر الى الوقوف على معلومات مثيرة للدهشة. فقد وردت من سويسرا تقارير سرية تفيد أن مديري الشركة السويسرية التي اشترت الأسهم كانوا ستاراً يخفي النازيين، وأن مديري شركة الانيلين كانوا على علم بذلك، وأنهم هم أنفسهم من عملاء الالمان.

ووردت من لندن شهادة من الانجليز، وأيدتها لجنة الهند الهولندية، بأن «شركة فارين» أصبحت منذ سنة ١٩٣٦ أداة في يد النازي، وأنها أسست في الخفاء دولة كيميائية يمتد سلطانها في أرجاء العالم كله، وذلك بشرائها

في بـلاد أخـرى كثيرة الأسهم في شـركـات تبـدو عليهـا في الـظاهـر سمـة الاستقلال، وأن هذه الشركات التوابع كانت تهيأ باستمرار للتجسس..

وفحص رجال وزارة الماليـة عقود استخـدام موظفي شـركة الانيلين في مركز إدارتها بنيويورك، فوجدوا أنهم كانوا جميعـاً يطلبون السفر الى المانيا لقضـاء اجـازاتهم. وأن مئـات من المـواطنين الألمـان يعملون في مصـانـع الشركة، وأن عدداً من صغار المستخدمين وظفوا بتوصية من هيئات نازيـة في نيويورك وبرلين، وأن رئيس العمال في مصنع الشركة بنيوجرسي عينته الـرابطة زعيماً للمنطقـة الشرقيـة كلها. لـو لم تخل الشـركات التـوابع كلهـا من ألمان مختصين في الكيمياء والصناعـة استقدمتهم الشـركة بعـد أن قررت للحكـومة وأقسمت أنهم لازمون لها كل اللزوم. ومما زاد في الهلع أن أثبتت السجـلات أن أعمال الشركة تضمنت قيامها بخدمات سرية في أحواض البـواخر الحـربية والمطارات، وأنها أدرجت بين الأعمال التي تتولاها استخراج صور من الأفلام والرسوم الهنـدسية المخـططة على الورق الأزرق. وهـذه المستندات تحتـوي على قدر كاف من المعلومات السرية يريد به العدو فجيعة أخرى كفجيعة بيرل هاربور..

وفي الأسبـوع نفسه تمكن رجـال وزارة المـاليـة من اصـطيـاد «شـركـة شمنيكو»، وأوقعوها في حبائلهم. وتبين من سجلاتها وجـود لجنة في «شـركة فـارين» لجمع المعلومـات السياسيـة والاقتصاديـة، وهي على صلة بالحكومة النـازية، ولهـا مركـز رئيسي في برلين. كما أثبتت الملفـات أن هـذا المـركـز الـرئيسي كان يتلقى منـذ سنين طويلة بيـانات كـاملة عن الولايـات المتحـدة. مصانعها، ومخترعاتها وانتاجها وخاماتها. وكانت ترسل لألمانيا تقارير أسبوعية لا تستند الى المعلومات المستقاة من تحريات الأفراد فحسب، بل تستند أيضاً الى تلخيص واف للمجـلات العلمية الفنيـة، ونشرات الأنبـاء، وبلغت نفقات هذه التقارير ٢٤٠ ألف دولار. هذا بالإضافة الى ما وجد في هذه الشـركة من خرائط طبوغرافية عن سواحل أمريكا وموانئها، وخرائط عن جزر الهند الغربيـة

ومداخل قناة بناما. وتبين أن «شركة شمنيكو» جائزة في وسائل انتاجها الكيميائي على حق استعمال ثلاثة آلاف امتياز مسجل باسم «شركة فارين». وكان من بين الذين نالوا حق الانتفاع بهذه الوسائل المسجلة مئات من أهم المصانع الأمريكية. وبفضل هذه العلاقات القائمة تمكنت «شمنيكو» من أن تحصل لكثيرين من رؤساء نازيين وكيميائيين وموظفين على اجازة بدخول أهم المصانع الأمريكية، من مصانع الالمنيوم والمطاط الى مصانع بناء الطائرات. وحتى يوم كان السلاح الجوي الالماني مسيطراً على بولندا، اتبعت الحيلة نفسها في إدخال «كلود دورنيه» وهو ابن أبرع مهندسي الطيران في المانيا، الى مصانع طائرات شركة ساحل الباسفيك..

وكان من بين ما حصلت عليه شبكة رجال وزارة المالية الأميركية، مذكرات محام سابق «لشركة شمنيكو»، فإذا بها تدون بأمانة كل ما جرى من مناقشات في المانيا. وترى كيف أن حكومتها هي التي اقترحت أن تؤسس في أميركا شركة كالشركة العامة للأنيلين تسيطر عليها «شركة فارين» بأن تشتري بواسطة مصرف سويسري ما قيمته ١٠ ملايين دولار من أسهمها. وأن الدكتور «شمتز» مدير «شركة الانيلين»، الى يوم أن بدأ تحقيق وزارة المالية كان من قبل مديراً «لشركة شمنيكو»..

وظلت شركة فارين سنين طويلة وهي تحتفظ بملكية أسهم شركة الانيلين وراء ستار من بيوتات مالية غامضة في هولندا وسويسرا. وفي سنة ١٩٤٠ أراد ممثلو شركة فارين المسيطرون على شركة الانيلين، أن يخلصوا أسهمهم الموجودة في هولندا من قرار تجميد أموال البلاد المحتلة. فزوروا عقداً بتاريخ سابق يتضمن بيع تلك الأسهم من ستارهم الهولندي الى ستارهم السويسري، وبذلك يمكن الاحتجاج بأن هذه الأسهم هيَ ملك أناس ينتمون الى دولة محايدة، ثم يعاد بيع تلك الأسهم الى موظفي النازي المخلصين المقيمين في أمريكا. وحينئذ تصبح الأموال الامريكية سلاحاً مسلولاً في يد شركة فارين. وتتراءى شركة الانيلين كأنها شركة لا نزاع في جنسيتها

الامريكية. وفي الوقت نفسه تتمثل فيها دولة موطدة الدعـائم ديدنهـا التجسس والتخريب.

وسـرعان مـا انهتك الستـر، اذ نـطق بـالحق مـوظف سـابق في شـركـة الانيلين من الأمناء على أسرارها، واعترف بأن الشركة كانت هي وتـوابعها في حيازة شركة فارين. وأن صفقـة بيع الأسهـم كـانت أهون عنـاصر المؤامرة. وأن شـركة الانيلين لم تقتصـر في تجسسها على ارسـال التقاريـر الأسبـوعيـة الى المانيا منذ عام ١٩٣٦، بل لم تزل ترسل اليها بصورة خفية..

كـانت هذه التقـارير تشمـل أفلامـاً مأخـوذة للعتاد الحـربي السـري في أميـركا، ورسـوماً هنـدسيـة، وأفـلامـاً مصغـرة، ومعلومـات عن بنـاء أحـدث المستودعات الحربية الأمريكية وانتاجها. وكانت شركة «اجفا انسكو»، وهي من الشركات التوابع، تبيع الهواة أفلام التصويـر السينمائي على شـريطة أن تقـوم هي بتحميضها. ولما كان من بين عملائها رجال في الجيش والاسطول، وكانت تتسلم الأفـلام لتحميضها قبـل أن تعرض على الـرقابـة، لم يبق هنـاك مـانـع يمنعها من إرسال صور هذه الأفلام الى برلين. اضافة لذلك، فقد وجد تقـرير كامل عن أحـدث البوارج الحـربية مصـوراً على فيلم عرضـه ٣٥ ملم، معداً للإرسال فوراً. تلك هي الجاسوسية الراقية ولا شك..

ذلك هو الصـراع بين الجبابـرة، كما هـو بين الأبالسـة. ولم يهدأ هـذا الصـراع طالمـا أن الأرض يسكنها مخلوق عجيب هـو: الانسـان. ولا مجـال للعجب والـدهشة من أي فن جـديد قـد يأتي في المستقبـل، حتى ولـو كـان «معجزة العصر»...

خفايا وأسرار الحرب العالمية الثانية

التاريخ البشري حافل بالكوارث كما بـالجرائم والمـذابح. وطبيعي أنـه ليس من جريمة إلا ووراؤهـا سر كبيـر ولغز خفي. فكيف الحـال بجريمـة من أكبـر جرائم القـرن العشرين، تلك التي يـطلق عليها اسم «الحـرب العالميـة الثانية»؟ وعنـدما كـانت الحرب امتـداداً لسياسـة الـدول، فقـد مثلت الحـرب العالمية الثانية حرباً سياسية بالدرجة الأولى لقاء هدف سياسي وبناء على قرار سياسي أيضاً، وقد ولى الزمن الذي كان فيه نشاط القـادة العسكريين يمـارس أساساً في ميدان المعركة.

وهكذا يصبح من الطبيعي والمنطقي أن تـزخر الحـرب العالميـة الثانيـة بكثير من الخفايا والأسرار والألغاز، وخصوصاً على صعيد بريطانيـا والمانيـا، حيث أن ونستون تشرشل الصهيوني عندما سئل عن رأيه في معـاهدة فـرساي التي وقعت ضد المانيا، أجاب: «انهـا ليست معاهـدة، بل هي هـدنة مـدتها عشرون سنة» وبعد عشرين سنة بالضبط اندلعت الحرب العالمية الثانية فعلاً.

فما هي أسرار هـذه الحرب؟ ومـا هي ألغازهـا على الصعيد البـريطاني والالماني تحديداً؟.

عندما تتالت الأحداث على انكلترا بعد الحرب العالمية الأولى، أدركت نخبة واعية من رجالات بريـطانيا أن هنـاك قوى خفيـة تتلاعب بمصيـر أوروبا والعالم من وراء الستار، وتوجه الأحداث والأشخاص تبعـاً لمخططات مكتـوبة عميقة الأهداف بعيدة المرامي.

وكـان على رأس هـذه الشخصيـات الانكليـزيـة التي أدركت حقيقـة

المؤامرة الأميرال سير «باري دو مفيل» والكولونيل «هـ. رامزي». وقد شغل الأميرال دو مفيل عدة مناصب رفيعة في البحرية البريطانية خلال أربعين عاماً متوالية، اشتهر خلالها كمدير للكلية البحرية الملكية، ثم استلم منصب قائد مخابرات البحرية خلال أعوام طويلة. . . ولا ريب في أن المعلومات الخطيرة التي اطلع عليها بحكم منصبه هذا هي التي أطلعته على حقيقة ما يجري وراء الستار، ولا سيما أنه مثل انكلترا في مؤتمرات بحرية كثيرة. أما الكولونيل رامزي فإنه خريج كلية «ايتون» الشهيرة وأكاديمية «ساند هورست» العسكرية، وقد خدم كقائد في صفوف الحرس الملكي البريطاني خلال الحرب الأولى، ثم نقل الى قيادة الجيش البريطاني. . . فدخل المعترك السياسي بعد ذلك، فانتخب نائباً في مجلس العموم عام ١٩٣١ وظل محتفظاً بمقعده في البرلمان حتى عام ١٩٤٠، حيث اعتزل الحياة السياسية. وهكذا كانت هاتين الشخصيتين في طليعة من أدركوا حقيقة الخطر الذي تمثله الحركة الصهيونية والمرابون العالميون اليهود، وجعلوا هدفهم تنبيه الحكومة الانكليزية الى هذا الخطر.

وعندما تولى «نيفيل تشامبرلين» رئاسة الوزارة في بريطانيا، أخذ الأميرال «دو مفيل». . والكولونيل «رامزي» على عاتقهما شرح الأحداث له وتنبيهه الى الخطر، والى أن المرابين العالميين يعملون على إشعال نسار الحرب بين انكلترا والمانيا، كما بيّنا له أهداف هؤلاء من الحرب. . . وكانا بحاجة الى الدليل القطعي لإقناع المستر تشامبرلين بهذه الحقائق. بيد أنهما استطاعا تنبيهه الى مكمن الخطر. . وهكذا اتخذت حكومته موقفا حذرا إزاء أزمات السياسة العالمية رافضة الانصياع لرغبات المرابين العالميين. . . وكان تشامبرلين مدركاً لخبث معاهدة فرساي ومدى ما تضمنته من تعسف ومظالم. وهذا ما جعله يفضل معالجة القضايا الناجمة عنها بالتريث. . . فكان من نتيجة ذلك أن جبهة المرابين العالميين أخذت تنظر اليه شيئاً فشيئاً نظرتها الى الخصم الذي يجب أن يزاح من الطريق. . .

وعندما ثارت أزمة (السوديت) بسبب إقدام هتلر على احتلال هذه المنطقة التي اقتطعتها معاهدة فرساي من المانيا وضمتها الى تشيكوسلوفاكيا، لم يلجأ تشامبرلين الى إعلان الحرب، بل فضل الدعوة الى مؤتمر لمعالجة هذا الموضوع، لا سيما وأن المعلومات التي بسطها له الأميرال «دو مفيل» والكولونيل «رامزي»، زودته بالحذر اللازم تجاه مآرب زعماء الصهيونية. . . ولم يكن هتلر من ناحيته أقل رغبة من مسالمة بريطانيا. . - ربما لعدم استكماله بعد ما يلزم للحرب - وقد كان مصراً على رفع جميع المظالم التي فرضتها معاهدة فرساي على المانيا ومسح جميع نتائج هذه المعاهدة المشؤومة. . . وقد انعقد المؤتمر في ميونيخ وتكلل بالنجاح في تجنب الحرب في اللحظة الأخيرة. . . وعاد تشامبرلين الى انكلترا يزف الى بلاده بشرى السلم، باعتبار أن هذه الاتفاقية أبعدت شبح الحرب وحفظت السلام العالمي.

أدرك زعماء الصهيونية بعد أن خابت خطتهم بسبب موقف تشامبرلين، أنهم لن ينجحوا في إثارة الحرب إلا بإرغامه على ذلك أو بإزاحته عن الطريق. كما أدركوا أنه يتحول شيئاً فشيئاً الى خصم لهم. . . وهكذا أوعزوا الى أجهزتهم ومنظماتهم ببدء المعركة ضد تشامبرلين التي مثلت فيها أجهزة اعلامهم ودعايتهم السلاح الأول، متهمة اياه بالتراخي والانصياع لهتلر بل وحتى الميل الى الفاشية.

وكان الأميرال دو مفيل والكولونيل رامزي يبذلان أقصى الجهد بحثاً عن البراهين المادية التي يستطيعان وضعها تحت عيني رئيس الوزارة لإقناعه نهائياً بماهية الخطر الذي يتلمسه تلمساً. . . وأسعفهما الحظ أخيراً بشخص المستر «تايلر كنت» الضابط الاميركي الذي كان مكلفاً بتلقي وإرسال البرقيات بالشيفرة السرية في السفارة الاميركية في لندن ومساعدته السيدة «آنا ولكوف»، حيث كان هذان بحكم عملهما يطلعان على المعلومات الخطيرة التي تتضمنها الوثائق السرية التي تمر بالسفارة. وأدركا نتيجة لهذه المعلومات

أن الحـرب على الأبواب دون أن يـدرك أحد ذلك، ودون أن تكون لأي شعب من الشعوب مصلحة في مجزرة شاملة كهذه. . . وثار ضميرهما عنـدما علمـا أن مدبّري هذه الحرب والمستفيدين منها هم تلك العصابة العالمية المـرتبطة سراً مع مجموعة أرباب المال العالميين اليهود. فأخذا يفكـران جديـاً بالقيـام بعمل ما لمحاولة منع هذه الحرب. وقد استقيا المعلومات الرئيسية من سلسلة البـرقيات المتبـادلة بين تشـرشل وبيـن الـرئيس الاميركي روزفلت (وكـلاهما عـريق في صهيونيتـه) والتي كشفت لهمـا القنـاع دون مـواربـة عن أشخـاص وأهـداف زعماء اليهـودية العـالمية الـذين يسيطرون سـراً على مقاليـد الأمـور ويوجهون التعليمات والإرشادات الى تشرشل وروزفلت ذاتهما.

وكان «تايلر كنت» يعلم أن رامزي والأميرال دو مفيل يمثلان تلك النخبة من الشخصيات الانكليزية التي تعمل على محـاربة زعمـاء اليهوديـة العالميـة وتجنيب العـالم الحرب. وهكـذا اتجه أخيـراً لمقابلة «رامـزي» الذي عـرض عليه أن يأتيه بالوثائق الأصلية لمشاهدتها في منزله الواقع في (رقم ٤٧ ساحة غلوستر) في لندن. وقد حصل رامـزي على نسخة من هـذه الوثـائق وعرضهـا على المستـر تشامبـرلين الذي أدرك نهـائياً حقيقـة المنزلق الـذي يسيـر عليـه العالم. . .

أمـا في المانيـا فكان الصـراع المكتوم ـ على حـد تعبيـر المؤرخ وليـام كـار ـ يدور بين هتلر والنـازيين المتطرفين الـذين يمثلون الـطبقـة العسكـريـة الجرمانية، وذلك بالرغم من انـدماج هتلر بهم بصـورة كاملة منـذ عام ١٩٣٦. فقـد كان هتلر لا يـزال يؤمن في أعماق تفكيـره بوجـوب الاتفاق مـع بريـطانيا والغرب سلمياً، وتحديد أهدافه بتحقيق مطالب المانيا ولا سيما إزالة جميع آثار معاهدة فرساي. أما النازيون المتطرفـون فكانـوا يعتزمـون السير معـه في هذه المـرحلة حتى نهايتهـا ثم التخلي عنـه بعـد ذلـك أو إجبـاره على المضي في تحقيق أهدافهم الرامية الى فرض سيطرة العرق الجرماني على العالم بالقوة.

وكان هتلر مقتنعاً من ناحية أخـرى منذ اجتمـاعه بتشـامبرلين بـأن رئيس

الوزراء الانكليزي مدرك لحقيقة خطر اليهودية العالمية، ومخلص في اعتزامه عدم الانصياع لرغبات المرابين العالميين، فجعله هذا يحاول جهده في تفادي الصدام مع انكلترا..

وازداد التوتر بصورة عنيفة عبر تغذية الاعلام والدعاية الصهيونية... وكذلك ضغط النازيون في المانيا بحيث أصبح الصدام أمراً حتمياً. واندلعت الحرب أخيراً في الأول من سبتمبر ١٩٣٩ حين اجتاحت الجيوش الالمانية بولونيا... وكان المرابون العالميون وزعماء اليهودية العالمية يعلمون أنهم يغامرون بمصيرهم في أكبر لعبة لعبوها في تاريخ مؤامراتهم، وأن تفادي الحرب يعني بصورة حتمية أيضاً أن يطالهم ساعد النازية التي منحوها هم القوة الضاربة... واندفعت الجيوش الالمانية كالعاصفة فاحتلت بولونيا ثم اكتسحت فرنسا وأوروبا الغربية. وكانت فرق الدبابات الالمانية الشهيرة ـ البانزرز ـ قادرة على إلقاء الجيش البريطاني في البحر أو إجباره على الاستسلام حين صدر اليها أمر من هتلر يوم ٢٢ مايو ١٩٤٠ بالتوقف. وكان نص البرقية التي تلقاها الجنرال «فون كلايست» قائد الفرقة المدرعة كما يلي: «على جميع الفرق المدرعة التوقّف حالاً على مسافة معتدلة من مرمى المدفعية في مدينة دنكرك... يسمح بتحركات دفاعية واستطلاعية». كاد يجن جنون الجنرال «فون كلايست» الذي كانت قواته قادرة على سحق الجيش الانكليزي بصورة نهائية حين صدر اليه هذا الأمر العجيب بالتوقف... ولم يلبث أن وصلت برقية ثانية أشد غرابة تأمره بالانسحاب الى ما وراء خط القتال القريب من المدينة بعد أن عبرته الدبابات الالمانية بالقوة... والتوقف لمدة ثلاثة أيام...

ينقل الكابتن «ليدل هارت» أحد ضباط أركان الجنرال «فون كلايست» في كتابه الذي ألفه فيما بعد باسم (الطرف الآخر للهضبة) ما جرى في المقابلة التي تمت بعد ذلك بين هتلر والفيلد مارشال «فون رونشيتد» القائد الأعلى للقوات الالمانية، مصحوباً بالجنرال «فون كلايست» وقد جاء

للإحتجاج على هذه الأوامر المستغربة، فقد فوجىء القائدان الالمانيان بـأشد من مفاجأتهما الأولى حين استمعا الى أقوال الفوهرر الذي أخبرهما بانه أصدر أوامـره هذه خصيصـاً للسماح للجيش البـريطاني بـالانسحاب محتفـظاً بقـواه وسمعته العسكريـة، وذلك لأنـه يعتقد بضـرورة بقاء الامبـراطوريـة البريطانية؛ وأمـلاً منه في الـوصول عن هـذا الطريق الى عقـد صلح مـع لنـدن تنتهي بـه الحرب حالاً على أساس اعتراف بريطانيا بمكتسبات المـانيا. هـذا بالإضـافة الى امتناع الطيران الالماني عن قصف بريطانيـا بالقنـابل طيلة الأشهـر الأولى للحـرب، وبصـورة أدق طيلة فتـرة وجـود تشـامبـرلين على رأس الحكـومـة البريطانية، مقابل امتناع بريطانيا عن ضرب أية أهداف أخرى سوى الأهـداف العسكرية فقط حسب ما أعلنه تشـامبرلين يـوم ٢ سبتمبر ١٩٣٩، وهـذا يعني تفادي الغارات على المدنيين والمدن الآمنة.

إزاء هـذا الوضـع اشتـدت حملة الـدعـايـة والتشهيـر في انكلتـرا ضـد تشامبرلين، ترافقها حملة ضغط شديدة حتى اضطر الى الاستقالة بصورة شبيهة باستقـالة اللورد «اسكـويث» في الحرب العـالمية الأولى، وخلفـه في رئاسـة الـوزراء نفس الوجـه الذي كـان أحد من خلفـوا اسكـويث عـام ١٩١٦ وهـو ونستون تشرشل...

وفي اليوم الذي صعـد فيه الى الحكم في ١١ مايو ١٩٤٠ أصدر أمـره الى الطائرات البـريطانيـة بالإغـارة على المدن الالمـانية للمـرة الأولى فاتحـاً بذلك الباب لقصف السكان المدنيين في المدن وفي العالم كله..

كان هذا جـل ما يتمنـاه النازيـون الذين أذهلتهم الانتصـارات الساحقـة التي أحرزها الجيش الالمـاني خلال السنـة الأولى للحرب، وعقـدوا في مايو ١٩٤١ اجتماعاً عاماً قيادياً قـرروا فيه الإفـادة من سياسـة هتلر الميالـة لإنكلترا لتعـديل مجـرى الحرب، وذلـك عن طريق إرسـال مبعـوث شخصي لهم الى انكلترا لإقناع حكومتها بعقـد الصلح مع المـانيا والـوقوف على الحيـاد بهدف تمكين الجيوش الالمانية من اجتياح الاتحاد السوفياتي والقضاء على أول دولة

اشتراكية في العالم. . . وقد وقع اختيارهم على شخصية بارزة هي «رودولف هس» الذي كان يعتبر الساعد الايمن لهتلر ليكون مبعوثهم الى انكلترا. . .

وقد ذهل العالم كله آنئذ حين سمع نبأ وصول «هس» الى بريطانيا بالطائرة، حيث اجتمع الى تشرشل بحضور اللورد هاميلتون، لكن تشرشل رفض عرض النازيين. عندها كان إعلان الحرب على الاتحاد السوفياتي حيث اقتحمته الجيوش الالمانية يوم ٢٢ حزيران/يونيو١٩٤١.

وقد أصبحت الحرب عالمية عندئذ واكتمل طابعها الشامل بإعلان روزفلت الحرب على المانيا. وأصبح تشرشل رجل الحلفاء الأول ورجل بريطانيا القوي. . . وكان أول ما عمد اليه، القبض على جميع أخصامه السياسيين وإيداعهم السجون لفترات غير محدّدة استمر بعضها حتى نهاية الحرب. وقد اعتبر من خصومه كل من عرف بعدائه لليهودية العالمية أو للصهيونية، وكل من حاول منع وقوع الحرب. وكان من بين من اعتقلهم، الأميرال دو مفيل والكولونيل رامزي. وزوجتيهما وعدد من أصدقائهما ومئات من المواطنين الآخرين، وذلك بتهمة التعاون مع الالمان كونهم طابوراً خامساً تابعاً لهتلر. . . وقد حاول هؤلاء تلفيق مثل هذه التهمة لـ «ليدي نيكولسون» زوجة الأميرال نيكولسون أحد كبار قادة البحر البريطانيين السابقين، ولكن القضاء البريطاني برأها دون أن تنجو من حملة الاعتقالات هذه.

وقد صدرت أوامر الاعتقال هذه جميعها باسم «هربرت موريسون» وزير الداخلية في حكومة تشرشل. وقد عاد موريسون عام ١٩٥٤ فظهر ثانية بوجهه الحقيقي في كندا حين تزعم حملة جمع تبرعات لمساعدة الصهيونية. . . وهكذا يبدو الارتباط واضحاً بين حكومة تشرشل وزعماء اليهودية العالمية. . .

لم يخمد السجن صوت قائد كالأميرال دو مفيل. فلم يكد يخرج من سجنه حتى نشر كتابه الشهير «من أميرال الى البحّار الناشىء» الذي كشف فيه سر الأحداث التي قادت الى الحرب العالمية الثانية، وحذر فيها الشعب الانكليزي.

ثم تبعه الكولونيل رامزي فألف كتابه «حرب دون اسم» وتمكن هذان الكتابان بالرغم من اختفائهما من الأسواق، من فضح بعض أسرار المؤامرة الصهيونية للرأي العام الانكليزي والأوروبي . . .

لقد توفي رئيس الوَزراء الانكليزي الأسبق نيفيل تشامبرلين وهو متألم، اذ رأى بلاده تساق الى مجزرة شاملة للدفاع عن مصالح ومآرب حفنة من المرابين اليهود. . . وتابعته حملة التشهير التي شنتها عليه الصحافة التابعة لهؤلاء المجرمين حتى يوم وفاته. . . بل هي لا تزال تتابعه حتى الآن في كتب التاريخ التي تصفه بالضعف والخوف من هتلر، بينما لا يزال «السير ونستون تشرشل» حتى الآن مغموراً في الأمجاد وفي بحبوحة الثراء، تلاحقه أكاليل المدح أينما ذهب. . .

ولكن الحقيقة في النهاية هي أن الانسان لن يصحب معه الى القبر شيئاً من كنوز الدنيا أو من أكاليل الثناء والتمجيد. كما أن القبر ليس النهاية بل إنه الطريق الذي لا مناص منه ولا مفر بعد القبر من تقديم الحساب أخيراً حيث لا حول ولا طول للمرابين العالميين وحيث سيلقى كل انسان جزاء ما قدمت يداه.

المراجع

١ ـ وليام كار «اليهود وراء كل جريمة». شرح وتعليق خيرالله الطلفاح. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٢. ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ و٢٣٧ ـ ٢٤٤.

٢ ـ باسيل دقاق «رودولف هيس، الحلقة المفقودة من تاريخ الرايخ». دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٢.

٣ ـ وليام غاي كار «أحجار على رقعة الشطرنج». ترجمة دار النفائس. بيروت.



ممر حلفاية وأسرار قائده الناري

في ممر الجحيم

ما أعظم القائد الحكيم وما أكبر قيادته في تاريخ الشعوب والأوطان، وكم كان مصيباً في قوله، فريدريك الأكبر، حين قال: «لا يحتاج القائد الناجح الى أن يكون قديراً فحسب، بل يجب أن يحالفه الحظ أيضاً». هو واحد من هؤلاء لقبه جنوده بالشيطان المراوغ، والقس. وأطلق عليه أعداؤه البريطانيون لقب «القس الناري». إنه الرائد الالماني «باخ» بطل معارك ممر حلفاية، والمحافظ عليه حتى بعد استيلاء البريطانيين على المنطقة المحيطة به. ولم يسقط الممر إلا بالجوع والعطش وليس بالقتال.

لا يمكن للإنسان أن ينام جيداً بملابسه كاملة. فذلك مثير للأعصاب، خصوصاً اذا كانت هناك براغيث ترعى. لقد وشم الرقيب «أهراردت» من أعلى رأسه الى أخمص قدميه من لسعاتها المؤلمة. الجنود في حاجة الى الراحة، وهذه البراغيث الدقيقة جعلتهم أقرب الى الجنون... فالمقاتل الصلب يقف عاجزاً أمام هذه المخلوقات الصغيرة المؤذية، ولا يدري كيف يقاومها. ولسوء الحظ فليس لها رؤوس كبيرة مثل الثيران حتى يطلق عليها الرصاص. ولم تكن البراغيث وحدها هي التي تثير انفعال الجنود. كانت هناك الاشاعات أيضاً. ذلك الطنين الذي انتشر في كل مكان. لقد جاء الرقيب «براندل» بإشاعة جديدة الى الوادي: «عند البريطانيين دبابة جديدة تقف أمامها المقذوفات المضادة للدبابات كأنها لسعات البراغيث، تدعى ماركة ٢». لم يشاهد أحد منهم واحدة بعد، ورغم ذلك كان الجميع يعدّدون،

معجزات هذه الدبابة البريطانية . . . وبالتدريج أخذ رعب «ماركة ٢» يتمكن من النفوس، وبقي الجنود في حال الطوارىء منتظرين فترة طويلة، والانتظار يثير الأعصاب كذلك. خلال نيسان/ابريل من العام ١٩٤١، اتخذت الوحدات المتقدمة من الفرقة الخامسة الالمانية الخفيفة مواقعها في ممر حلفاية - ذي الأهمية الاستراتيجية - على الحدود المصرية - الليبية. بذلك أمكن للألمان الحصول على مراكز متقدمة أمام جبهة السلوم. . وكان على الانجليز لتخفيف الضغط على قواتهم، أن يستولوا على ممر حلفاية أولاً. وفي منتصف أيار /مايو/ وعلى وجه التحديد بين يومي ١٥ و١٧، هاجم الجنرال ويفل الممر بقوات من لواء الحرس الثاني والعشرين وطرد سرايا اللواء ١٥ مشاة المحملة، وبطارية مدفعية ايطالية، من مواقعها في الممر، وأسر الحامية الالمانية بأكملها، عدا ١٢ رجلاً، لكنه لم يحقق أهدافه الأخرى. فبعد احتلال قواته للسلّوم وكابوتزو، تمكن الالمان من استردادها، بعد هجوم مضاد دموي، قامت به مجموعة قتال «هرف».

وفي ٢٦ أيار /مايو/، صدرت الأوامر لمجموعة قتال «هرف» باحتلال ممر حلفاية. ما أسهل على ما يبدو تنفيذ هذا الأمر. . وخصوصاً على الخريطة. . يتقدم الآلاي الثامن البانزر بقيادة العقيد كرامر، من السلّوم جنوباً عبر الصحراء، ثم يغير اتجاهه الى الشمال، ويهاجم المدافعين البريطانيين عن الممر من الخلف. يعاون مدرعات الآلاي البانزر في الهجوم، كل من مدفعية الآلاي ٣٣ بانزر الثقيلة، والكتيبة الأولى من الآلاي ١٠٤ مدفعية الممر، بالمواجهة سيراً على الأقدام.

يقوم بهجوم مخادع في الجنوب والجنوب الشرقي - لجذب انتباه البريطانيين عن الممر - الآلاي الخامس بانزر، مع بطارية مدفعية وخمسة مدافع ٨٨ ملم ووحدات من المدفعية الايطالية، تتقدم من منطقة تجمعها غربي كابوتزو. قتل قائد الكتيبة الأولى من الآلاي ١٠٤ مدفعية، في اليوم التالي للخدمة في أفريقيا، في معركة أمام دفاعات طبرق، وحل محله الكابتن

«ولهم باخ»، الذي كان يصفه الجنود بالشيطان المراوغ، ويصفه ضباط الصف بالقس. ولم تكن كلمة قس كنية، فقد كان قائدهم الجديد ضابطاً احتياطياً، وكان قبلها قسيساً وراعياً للكنيسة الانجليكية في مانهايم. وحين قدم «فريدل شميدت» نفسه اليه، فوجىء بلطفه الزائد. فقد كان يبدو أبعد ما يكون عن الصورة التي كانت مرتسمة عنه في مخيلته، صورة الرجل العسكري الصارم، اذ كان ودوداً فاضلاً نبيلاً، في حوالي الخمسين من عمره، تزيد قامته، عن الستة أقدام، وله شارب. قابل الملازم بلطف، وانحنى له، وقال: «حسناً . . لقد وصلت سالماً الى هنا يا صديقي». كان يتكلم وهو يدخن سيكاره بشغف، ويميل برأسه قليلاً مع كل نفحة دخان. واستطرد «حسناً يا صديقي . . أرجو أن تجد المتعة والهناء في وجودك معنا».

لم يسبق للملازم شميدت أن سمع في كل خدمته العسكرية أن ضابطاً أقدم تمنّى للأحداث متعة وهناء، وخصوصاً في وقت الحرب، وفي ممر حلفاية بالذات. . . ولكن كان هذا هو القس باخ.

ضرب هذا القس المثل الرائع للجندية الحقة في تاريخ الحملة الأفريقية، فلم يعط أمراً قط، لم يكن مستعداً لتنفيذه بنفسه. لذلك أحبه جنوده، وقلما كان القائد محبوباً من جنوده. أما البريطانيون، فقد استمروا في الاشادة بحميد خصاله حتى لقبته الجرائد الانكليزية «ببطل ممر حلفاية» و«بالقس الناري».

كانت كتيبته مختبئة في خنادقها في وادي القلال، ودرجة الحرارة قد وصلت الى ؟؟ درجة فهرنهيت في الظل، لم يكن أحد يجرؤ على الزحف في الوادي، فمجرد أن يرفع أحدهم رأسه، كانت طلقات الرصاص تتطاير حول خوذته الفولاذية، كالمطر المنهمر، كما أخذت المدافع البريطانية ٧٥ ملم، تطلق نيرانها من فترة الى أخرى، دون أن يدري أحد من أين تطلق هذه المدافع. وهنا تحرك «باخ» في الوادي بحذر، واتخذ لنفسه موقعاً على حافته، ونظارة الميدان على عينيه. انفجرت النيران فوق رأسه، وصفرت

الطلقات، ولكنه تمكن من اتخاذ ساتر له، في الوقت المناسب، وحدد تماماً مكان المدفع البريطاني، وأرسل المعلومات الى بطارية المدفعية، وفي ربع ساعة سكت المدفع المخيف. وتهامس الجنود «هل رأيتم ما فعل الرجل العجوز؟» وأحنوا رؤوسهم الى الأرض، ولكنهم تقدموا للهجوم عندما رفع الرجل العجوز يده بالإشارة. ونجح الهجوم، وأخلى الحرس البريطاني الممر. وهكذا أصبح ممر حلفاية، مرة أخرى، في يد الألمان.

ابتدأ الهجوم البريطاني في العملية «باتل اكس». وهدرت الدبابات في الرابعة بالضبط من يوم ١٥ حزيران /يونيو/ ١٩٤١. تلك الدبابات الجديدة ماركة ٢ التي وصلت الى الجبهة محملة على ناقلات دبابات خاصة. ودبابات المشاة الضخمة ماتيلدة ماركة ٢ أيضاً.

استمر المهندسون الألمان لمدة أربعة عشر يوماً يحصّنون ممر حلفاية، الذي استولوا عليه بعد عناء شديد. وكانوا سعداء للنتائج التي حصلوا عليها من مجهودهم. ومن العجيب أن هناك أشياء تسبب السرور في الحرب.. ويعلم الله أن المدفع ٨٨ ملم الموجود في الدشمة ـ مما لا يسهل اخفاؤه ـ قد اختفى جيداً وبنجاح. ابتعد الملازم «رشتر» لمسافة ١٥٠ باردة من المدفع، واستلقى على بطنه، لمعرفة مدى إخفاء المدفع وتمويهه، ولم يكن هناك أثر حتى للدشمة، ظاهر للعيان. وهناك سبب آخر، فسراب الصحراء الدائم يخفي كل شيء حتى ارتفاع ثلاثة أقدام، وكل ما هو أعلى من هذا الارتفاع، يظهر أكبر من حقيقته.

دق جرس تلفون الميدان في مساء ١٤ حزيران /يونيو/، وكان المتكلم هو الكابتن باخ.. قال بهدوء: «هناك ما يشير الى وجود شيء في الجو الليلة أو في صباح الغد الباكر، ولكنكم مقاتلون قدامى محنكون، ولديكم جماعة مهندسين قديرة». ثم قال للملازم شميدت. «لك عندي مهمة خاصة... ستكون احتياطي مهندسين، فإذا اخترق انجليزي أي مكان تطرده منه فوراً».. كانت مهمة بسيطة للغاية.. اذا اخترق جندي انجليزي مكاناً اطرده

فوراً. يا لها من مهمة واضحة وجلية تماماً.. لا شيء يمكن أن يكون أوضح من ذلك.. إنها تبدو وكأنها وصفة في كتاب طهي... ضع هذا على ذاك، فتكون الكعكة معدّة... وفي المساء أغلق المهندسون الثغرة، التي كانت في حقل الألغام بين السرية الثالثة وجماعة المدفع المضاد للدبابات، وضوعفت الحراسة، وأرسلت الدوريات الى الخارج، وكان كل جندي متيقظاً في خندقه. في الساعة ٢١,٥٧، سمع صوت المذيع من محطة الاذاعة العسكرية الألمانية في بلغراد. ثم أغنية «ليلي مرلين». استمع الجنود لهذه الأنغام العذبة من أجهزة الاستقبال، في عرباتهم ودباباتهم. فقد كانت أغنية عذبة انتشرت في كل أنحاء المعمورة. إنها تعود بهم الى التفكير في الوطن وفي السلم وفي الزوجات وفي المدن وفي القرى، وتستطيع أن تجعل الدموع تترقرق حتى في عيون ثعالب الصحراء الخشنين الأشداء.. ولم تكن تجلب الدموع في عيون الجنود الألمان وحدهم، فقد كتب «آلان مورهيد» في كتابه عن أفريقيا يقول: «لم يطرب هذا اللحن الجنود الألمان وحدهم، بل أطرب الجنود البريطانيين كذلك». هذه هي أغنية «ليلي مرلين»، التي كانت قطعة من تاريخ الحرب. وكان عواء ابن آوى، يقاطع صوت اللحن في ممر حلفاية، مذكراً بالحقيقة المرة. إنهم ليسوا في أوطانهم، وأنهم بعيداً في الصحراء الموحشة.

أشارت الساعة الى الرابعة، وسيبزغ الفجر عما قريب. وظهرت سحابة ضخمة من الأتربة في الأفق... إنهم قادمون. الفرقة الرابعة الهندية مدعمة باللواء الرابع المدرع. واتخذ الكابتن باخ موقعه مع المدفع المضاد للدبابات، ذلك المدفع ٨٨ ملم الذي كان عليه أن يلعب الدور الرئيسي خلال الساعات القليلة المقبلة.

الأوامر صريحة «لا تطلق النار تحت أي ظرف من الظروف، دعهم يقتربون». أوامر من السهل إعطاؤها... سليمة ومناسبة للموقف. كان الجميع يرقدون في خنادقهم. وتقدمت الوحوش الهائلة ببطء، وارتعشت

الأيدي. . وغشت الأنظار، وقلت الرؤيا، فالعدو قادم من الشرق ووراءه الشمس، وزادت ضربات القلوب. . . وكان السكون قاتلاً. . وأسرعت الدبابات. . . وحوش هائلة ثقيلة سوداء. إذن هذه هي «ماركة ٢» المفزعة المخيفة.

ثم سمع انفجار يصم الآذان ويمزق الجو. نطق المدفع ٨٨ ملم، وصدرت الأوامر بفتح النيران. إصابات مباشرة وأعمدة من النيران. ثم إصابات مباشرة أخرى، وتمزقت أبراج الصلب المقسى من فوق الدبابات «ماركة ٢». لم يتراجع البريطانيون، فهم مصمّمون على احتلال الممر والطريق الساحلي توطئة لاحتلال ميناء السلّوم، ليكون قاعدة للتموين.

تقدم رجال اللواء الحادي عشر الهندي، واللواء الثاني والعشرين حرس، كانوا فتياناً ممشوقي القوام، يتقدمون في الأرض المنبسطة الى مواقع الألمان، حيث ينتظرهم الموت في أطراف الأصابع الموضوعة على الزناد. كان لهم أمهات وزوجات وحبيبات ويحبون الحياة. . ولكن تسلطت عليهم جميعاً فكرة واحدة، هي طرد الألمان الملاعين من خنادقهم في ممر حلفاية. . و. . فتحت أبواب جهنم. . . هذه هي الحرب الحديثة. . . قتل بطريقة فنية وتدمير شامل. ووقفت دستة من الدبابات المحترقة أمام المواقع الألمانية، لا حول لها ولا قوة. وانطلق المدفع ٨٨ ملم على تشكيلات المشاة المنضمة أيضاً، يقتل فيها. . . فتمزق المهاجمون شذر مذر. ومنذ هذه اللحظة، أطلق على ممر حلفاية اسم «ممر جهنم».

يقول التاريخ الرسمي للحرب الأفريقية، الذي نشر بواسطة الحكومة البريطانية عام ١٩٥٦، بعد دراسة مستفيضة لكل المصادر «لقد فشلت عملية «باتل اكس»، التي بدأت بأمل كبير، لعدم إمكان الاستيلاء على ممر حلفاية أو المرور من النقطة ٢٠٨ لعزم الدفاع وشدة نيرانه. وبرهنت المدافع ٨٨ ملم التي كانت مختفية تماماً، إنها مؤثرة على أية دبابة بريطانية. كما لعب عامل المفاجأة دوراً مهماً وبارزاً في هزيمة البريطانيين».

في صبيحة ١٨ تشرين الثاني /نوفمبر/ ١٩٤١، انفجرت الحدود المصرية ـ الليبية بالهجوم البريطاني في معركة «الكروسيدر». وفي ممر حلفاية القريب، أغلق الرائد باخ وجنوده الطريق الساحلي في وجه تقدم البريطانيين. ولمعرفة ما حدث في ممر الجحيم، مفتاح الطريق الى مصر، الذي طال التنازع عليه، فلنستمع الى رواية جنديين عن هذه المأساة، التي أكسبت الرائد باخ، الاسم الذي اشتهر به عند البريطانيين «القائد الجهنمي». . وذلك بعدما تجاوزته القوات البريطانية، وأصبح مع رجاله معزولين في قلب الممر.

«كانت مياهنا تتناقص باستمرار. وبسقوط السلّوم السفلي، احتل البريطانيون بئر مياهنا، وبدأت شفاهنا تتشقق وحلوقنا تجف. وكان علينا أن نعمل شيئاً. أمر الأب باخ قوات الصاعقة بالاستيلاء ثانية على بئر المياه، لفترة قصيرة، حتى نتمكن من إعادة الملء. . يا لها من معركة من أجل المياه.

نجح الملازم «انيجهولز» وجنوده، وبوغت البريطانيون تماماً. ولكن في فوضى المعركة والظلام الدامس، أطلقت كل من المجموعتين الألمانيتين ـ اللتين هاجم بهما الملازم انيجهولز بئر المياه من كلا الجانبين ـ النيران على الأخرى. وقتل عريف، وكشفت صرخة أطلقها أحد الجرحى طالباً حملة النقالات ـ عن المأساة. وعادت القوة ومعها جندي قتيل وآخر جريح وعربة محملة بالمياه. وكاد العريف «جنج» أن يفقد حياته في أثناء هذه الاغارة، كي يحصل على صفيحة مياه اضافية لنفسه ولزملائه. وأنقذه زميله «برون» وحمله على دراجته النارية، قبل أن يبزغ ضوء النهار. ونجح «جنج» في إنقاذ صفيحة المياه، وظل متعلقاً بها كما لو كانت كنزاً. . وفي الحقيقة فإن صفيحة المياه هي كنز في ممر حلفاية. . وخلال أيام عيد الميلاد في العام ١٩٤٢، لم نرسل معايدات الى الوطن، ولم نقم شجرة عيد ميلاد ـ فقط قرأ لنا الأب باخ، قائدنا وقسيسنا، بعضاً من الانجيل، وصرف لنا تعيينات من المياه

خاصة. واستبدلت أجراس أعياد الميلاد، بقذائف ٢٥ رطل البريطانية، التي كانت ترعد فوق خنادقنا وبين الصخور. . يا لها من ليلة عيد ميلاد. .».

وعبثاً حاول «رومل» تنظيم امدادنا، بالطعام والمياه، بواسطة الطائرات، من جزيرة كريت. ففي الرحلة الجوية الثانية، انتظرت المقاتلات الليلية البريطانية، الطائرات «اليونكرز» وأسقطتها في البحر. . . وبعد ذلك لم يصلنا شيء».

وفي الوديان ووسط الصخور، كان الجنود ينتظرون حال الاستعداد عند الغروب. وفي الخنادق والمخابىء ومواقع المدافع وفي الحملة ومطابخ الميدان المتنقلة. . كانوا يظهرون كالأشباح الشاحبة أو كأناس من عالم آخر».

وفي المساء كنا نعود الى الحياة مرة أخرى. فتوزع التعيينات، فناجين من الحساء وعلبة من اللحوم المحفوظة وإبريق من القهوة المغلية في الماء المالح، لكل ثلاثة رجال في اليوم. . . وهو مقدار لا يكفي للموت أو للحياة. . . يكفي فقط للحرب. وتداولت السرية الثالثة المزحة التالية: «بهذا المقدار من الغذاء. . يمكن أن يحتمل الانسان الحياة وهو مستلق فقط».

وكان من الطبيعي أن يعرف البريطانيون، الوضع على حقيقته، في الممر. وبعد تجاربهم الدموية في محاولة الاستيلاء عليه، اعتمدوا على أن يميتوا الحامية جوعاً.

وفي إحدى ليالي منتصف كانون الثاني /يناير/، وصل الى الممر، بضع مئات من فرقة سافونا الايطالية. شقوا طريقهم من نقطتهم القوية غرب الممر، الى مواقع باخ، بموافقة رومل، فكانوا تعزيزاً قوياً، ولكنهم أضافوا عبئاً على التموينات القليلة. وبعد أسبوع، انتهت التعيينات، فأرسل الكابتن فويخت، وكان أقدم قادة السرايا، للتفاوض مع قوات جنوب أفريقيا، وبعد الاتصالات الابتدائية للتسليم ذهب الرائد باخ والملازم شميدت من مهندسي

الفيلق في عربتهم، للإتفاق على ترتيبات التسليم وشروطه. كان المسؤولان في قوات جنوب أفريقيا معقولين، فتقدمت المفاوضات بسرعة وسهولة ويسر. وعندما وقع باخ الوثيقة وغادر الخيمة، أومأ الملازم شميدت الى سائق العربة.. وفهم الجندي، ودون أن ينبس بكلمة رفع العلم الأبيض من على الرفراف اليمين للعربة ووضعه على الرفراف اليسار.. لماذا؟...

كان ضمن شروط التسليم، أن على باخ بعد التوقيع، عدم إعطاء أي أوامر بتدمير الأسلحة والمعدات. لذلك رتّب مع ضباطه خدعة. وأصدر أوامره قبل أن يركب العربة ويذهب الى المفاوضات بالآتي: «أول حارس الماني يشاهد العربة قادمة والعلم الأبيض يرفرف في الناحية اليسرى، عليه أن يرسل فوراً الى رئاسة الكتيبة «العلم الأبيض على الرفراف اليسار». وكانت هذه هي الإشارة المتفق عليها لتنسف كل المواقع مدافعها وعرباتها ومعداتها.. ولو أن المفاوضات لم تصل الى شروط تقسيم شريف لبقي العلم الأبيض على الرفراف اليمين للعربة. ومعنى ذلك أن تبقى كل الأسلحة محشوّة بالذخيرة ومستعدة لإطلاق النيران. ونجحت الخدعة... ولم تتحقق أبداً رغبة قادة جنوب أفريقيا في الاستيلاء على أي من مدافع ٨٨ ملم سليماً.

وأعلنت القيادة العليا الألمانية في بلاغ لها، أنهم قاتلوا حتى آخر طلقة.. وبدا ذلك رائعاً... ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك. والحرب لم تكن أبداً رائعة. كان لا يزال لديهم بعض الطلقات، ولكن الجوع والظمأ جعلهم يجثون على ركبهم.. وسقط الصقر في قبضة أعدائه... حين لم يعد يقوى على التحليق... وانطبق على الرجل ما قاله فريدريك الأكبر «لا يحتاج القائد الناجح الى أن يكون قديراً فحسب... بل يجب أن يحالفه الحظ، أيضاً».

ويبقى القائد «باخ» في النهاية مثالاً للتقدير والاحترام، ليس من قبل جنوده فقط، بل من قبل أعدائه، ومن قبل البشرية جمعاء. فهو جدير بمنصب

القيادة، كما هو جدير أيضاً بأن يقتدى به كجندي وقائد وإنسان. وأمثال «باخ» قليلون في هذا العصر، ولكنهم جديرون بالخلود.

المرجع

١ ـ حسن أبو لبدة. مجلة «الجيل» القبرصية. العدد الأول المجلد الرابع. شهر كانون الثاني/يناير١٩٨٣. ص٣٤ ـ ٤٠.

دقّـة الجاسوسية الألمانية
بين النجاح والفشل

كثيرون جداً من النـاس، هم الذين عشّشت الفـوضى وعدم الانضبـاط في دمائهم، ونخرت عـظمهم في أحيان كثيـرة. أدمنوا عليهـا وأصبحت جزءاً أساسياً من حيـاتهم، تمامـاً ككل المـدمنين على تعاطي المخـدرات، وتناول المشروبات الروحية.

وكثيرون جداً بالمقابل، هم الذين أدمنوا على الانضباط والتنظيم والدقّة في أمور حياتهم. وطبيعي أن يكون هذا الإدمان المفرط سبباً في القضاء على صاحبه؛ وخصوصاً في مجال المخابرات والتجسس، وفي حقل المعلومـات. هذا وقد شكلت الحرب العالمية الثانية تربة خصبة لانتشـار هذه الـظاهرة التي برز في مرتبتها الأولى جواسيس الالمان النازيين، كمـا كان كثيـرون منهم من أهم ضحاياها.

تميّـز الالمان بنـزوعهم نحو الـدقّة، أو بعبـارة أعمّ نحـو «فن مجـابهـة الصعوبات». . وهذا ما يوصف في كثير من الأحيان بالعبقرية.

إزاء ذلـك، كـان لابـد من «التخصّص» الـدقيق لمنـواجهـة هـذا الفن الالمـاني العريق، وتحـطيم هذه الأسـطورة التي يفتخـر بهـا النـازيّـون، رغم نجـاحاتهم الـواسعة في هـذا الحقل. وبمـا أن البريـطانيين كانـوا معنيّين أولاً وأخيراً بهذه الظاهرة، فقـد أدركوا ـ بـلا شك ـ أهميـة ذلك، حتى بـرع فيهم

رجال تفتخر بهم الانسانية، وتقدّر عظمتهم وخبرتهم في مجال مكافحة الجاسوسية، والالمانية منها خاصة.

ويعتبر العقيد البريطاني «أورست بنتو» من أعاظم الرجال الذين تربّعوا على عرش «مكافحة الجاسوسية» في العالم؛ وهو الذي لعب دوراً كبيراً في اكتشاف جواسيس المانيا، وإفشال الكثير من خططهم ومشاريعهم إبان الحرب العالمية الثانية.

وليست قضية الجاسوس الالماني الخطير «تمرمانس»، إلا واحدة من تلك التي ساهم «أورست بنتو» في كشفها رغم دقّتها الفائقة.

فما هي قصة «تمرمانس»؟ وما هي تفاصيل أسرارها؟.

إن الدقّة المفرطة، في الواقع، قد تفضح الكثير، وتؤدي الى الهلاك.

كان «تمرمانس» من أصل بلجيكي، وكان عمره ما يقارب ٣٧ سنة، ولم يكن متزوجاً، وكانت مهنته البحرية، كما كان مظهره يدل على مهنته.

كان يبدو عليه أنه بحار عادي، ويمكنك أن تجد مائة مثله في أيّ ميناء في العالم. كان لباسه نظيفاً، ويبدو أنه يحسن العمل اليدوي، ولم يكن كثير الذكاء، لكنه كان كثير المنطق. وقد كانت عيناه زرقاوين، وشعره أشقر غير منتظم، ويبدو عليه أيضاً أنه عاطفي وغير مراوغ.

من هذا المنطلق، يقول العقيد «أورست بنتو» بأن قصته كانت أكثر اعتيادية من مظهره. فقد قرّر أن يترك بلجيكا بعد احتلالها من قبل الالمان ويلتحق بالبحرية التجارية البلجيكية في انكلترا، والتي كانت تحتل ميناء بركسهام الانكليزي. وقد اخترق فرنسا المحتلة وحده الى احدى المناطق، فجيء به بعد أن اتجه نحو الجنوب ووصل الى جبال «البرينس»... ولكونه بحاراً جيداً تمكن من اجتياز الجبال الى اسبانيا، وقد وضع هناك في السجن لسوء طالعه. وقد أنهى سبعة أشهر في زنزانة مظلمة قذرة في برشلونة حتى تمكنت القنصلية البلجيكية من إطلاق سراحه بعد جهد كبير، وأرسل بعدها

الى لشبونة في البرتغال، حيث قدّمت اسمه القنصلية البلجيكية هناك بين قائمة المنتظرين للذهاب الى انكلترا. وبسبب كون «تمرمانس» شاباً ويمكنه العمل من أجل الوطن، أعطي الأفضلية في اللجوء الى انكلترا التي وصلها في نيسان عام ١٩٤٢. وقد جيء به الى المدرسة الوطنية في «كلافهام» لغرض الاستجواب الاعتيادي... ولأنه مواطن بلجيكي، فقد أرسل الى أحد المستجوبين البلجيكيين. وقد كان هذا أحد تلامذة العقيد «أورست بنتو» حيث لم تكن له علاقة في موضوعه هذا حتى تلك اللحظة، لأنه كان مشغولاً في استجواب إسباني؛ وقد كان موضوع استجواب «تمرمانس» موضوعاً روتينياً ويستطيع ضابط الأمن البلجيكي أن يعالجه لفطنته وذكائه.

لقد كانت المهمة في المدرسة الوطنية تقضي بتفتيش لوازم المتهم بصورة دقيقة، سواء كانت حقائب أو لوازم شخصية. وقد يحمل الأبرياء الصور والجرائد المحلية وأوراقاً قد تنفع الكثير في إعطائها معلومات ممتازة للمستجوب المدرّب. والذي يصل لغرض التجسس يجلب معه عادة الوسائط التي بواسطتها يرسل المعلومات التي يحصل عليها. ولا يمكن للجاسوس مثلاً أن يحمل معه جهاز راديو كجزء من لوازمه، لكنه قد يخفي شيئاً صغيراً مثل آلة التصوير المايكرومي. بالاضافة الى ذلك، هناك قليل من الجواسيس لهم قوة ذاكرة لحفظ الأسماء والعناوين وفي لغة أجنبية غالباً لغرض إيصال المعلومات التي حصلوا عليها. ولهذا كان يقتضي تفتيش جميع حقائب ولوازم المتهمين الشخصية باعتناء كبير، ويؤخذ بهذا عادة بعد الحصول على الاستجواب الأولي منهم، وقبل الاستجواب المفصل الذي يستند عادة على تفتيش لوازم المتهمين والأدلة المستقاة منها.

وفي المدرسة الوطنية كانت هناك غرفة خالية من الأثاث إلا من منضدة طويلة جرداء وكراسي موضوعة على جانبيها، وقد أطلق عليها اسم «غرفة الخشب». وفي كل صباح يجلس المستجوبون وينشرون أمامهم لوازم «زبائنهم»، وقد يفحصون أحياناً تحت زجاجة التكبير كافة حقائب الألبسة

وحقـائب الكتب والمحافظ وكتب الجيب والمـراسلات وأقـلام الحبر وأغلفـة النظارات ومشارب الدخان وعلب السجاير والمفاتيح وكـل شيء غريب يحمله اللاجئون.

ويدقق كل شيء بمنتهى الاعتناء، وعند الفراغ منه يـوضع الى جـانب. وكانت الغرفة على العموم شبيهة بالجمرك أو المزاد.

كان العقيد «أورست بنتـو» جالسـاً الى جانب ضـابط الأمن البلجيكي، وكان الصباح جميلاً في أحد أيام شهر ابريل حيث الشمس المشرقـة والأزهار المتفتّحة، وكان هو منهمكاً في موضوع «تمرمانس». وبينما كان «بنتـو» غارقـاً في التفكير يدرس لوازم اللاجىء الاسباني العنيد، التفت نحوه تلميذه وقـال: «ماذا تظن أن يكون هذا يا سيدي؟».

لقد بدّد تـركيزه هـذا السؤال وأزعجه ـ كمـا يقول بنتـو ـ فنظر اليـه وهو يفرغ محتويات محفظة قديمة سوداء وأخرج منها غلافاً؛ وفتح الغلاف وأخرج منـه مسحوقاً أبيض. فـأجاب العقيـد «أورست» متضايقـاً: «كيف أعرف هـذا بحق السماء؟ إني لست بمختبر. أرسله الى المختبر وأطلب تحليلاً عاجلاً». ثم رجع العقيد الى عمله يفحص لـوازم الاسباني، إلا أنـه انتبه بعـد لحظات الى صـوت (يقول عنـه كسـولاً) يسـألـه: «هـل يمكنني مقـاطعتـك ثـانيـة يـا سيدي؟». فالتفت الى تلميذه الشاب وكـان على وشك إعـطائه محـاضرة عن الشباب غير الكفوء الذي لا يتمكن من القيام بواجباته، ولكنه رأى ما كـان في يده، وكان ذلك رزمة من عيدان الليمون شبيهة بما تستعمله الصبـايا الحسـان لغرض تدوير مجالس أظافرهن... وصرخ عندها: يا الله... مـاذا دهاك يـا سيدي؟ قال:

لا شيء، استمر وأخرج القطن، (أجابه بنتو).

القطن؟ فصاح بـاستغراب والنـظرة التي طفرت على وجهـه كشفت عن شكّه بأن أحدهما يجب أن يكون مجنوناً وأنه ليس بـذاك الشخص، ومع هـذا

نفـذ الأمر ونـظر في الجيب الآخر من المحفـظة وأخرج بـأصابعـه قـطعـة من القطن. وفي هذه اللحظات أنهى قصة جاسوس الماني اسمه «تمرمانس».

إزاء هذا الوضع، يقول العقيـد «أورست»: وبعد أن شـرحت له أهميـة اكتشافه طلبت منه أن يترك موضوع «تمـرمانس» لي ويبـدأ في موضـوع آخر. وأخذت أحدّق بهذا الجاسـوس الألماني والـدقّة الالمـانية التي كشفتـه. ومن يرسل الى انكلتـرا لابد أن يجهّـز بكل الأشيـاء حتى الصغيرة والتـافهة منهـا. ولكن سيّـد الجواسيس (الـذي عـرفنـا بعـدهـا أنـه سكن في دار ضيـوف في لشبونة) أعطاه الرسالة التي أوصلته الى جهاز مكافحة الجـاسوسيـة دون عناء. فلقد زوّده بثلاث ضروريات للكتابة السـرّية: مسحـوق البارميـدون ليذاب في مخلوط من الماء والكحول، وأعطاه عيدان الليمون كواسطة للكتابة، وكذلـك القطن لغرض لفّه على رؤوس العيدان ليتجنب خدش الورق. والشيء الـذي يستحق الرأفة من ناحية «تمـرمانس» هـو أن بالامكـان لأي شخص شراء تلك الضروريات الثلاثة من أي صيدلية في انكلترا، ودون أن يسأل أحد عن السبب في شرائه هذه الأشياء. وهنا أصبح عليه أن يوضح الأمور بسبب دقّة سيده.

والحقيقـة أن اكتشاف حقيقـة الجاسـوس شيء، والاعتراف بـالجريمـة شيء آخـر. وكان من الـواجب الإتيان ببـرهان أمـام محكمة لإدانتـه بمـوجب القـانون. وقـد تمكن العقيد «أورست بنتـو» من وضـع رأس «تمـرمـانس» في المشنقة، إلا أنه لم يسحب الحبل.

ذهب العقيد بعد ذلـك الى غرفتـه، واستدعى سكـرتيرتـه في الهاتف، وطلب منها أن تسجل له كافة لوازم «تمرمانس» بقائمة بحيث لا تترك أي شيء مهما بدى تافهاً. وبعد دقائق كـانت هناك أمـامه قـائمة مـطبوعـة على مكتبه، وأدخل فيها بين المواد العديدة المواد الثلاثة التالية:

غلاف فيه مسحوق...
رزمة واحدة من عيدان الليمون..
قطعة من القطن.

وبقي على «أورست» أن يحصل على اعتراف «تمرمانس» بأن هذه الأشياء الثلاثة هي له. وفي تجربته أن كثيراً من الجواسيس يدّعون بأن الأدلّة التي وجدت بين لوازمهم زرعت معهم من قبل المستجوبين. ودون وجود أي برهان ضد هذا الادعاء يأخذ الحاكم بما يقولونه ويخلي سبيلهم. ولقد غلب العقيد «بنتو» مرة ولا يمكنَ أن يغلب ثانية. وبعدها أرسل بطلب «تمرمانس».

دخل «تمرمانس» غرفة «أورست» بمشية مضطربة، وجلس عندما طلب منه الجلوس... وأخذ ينظر في عيني العقيد ثم ابتسم ابتسامة خجلة دون وعي، فابتسم له «أورست» وقدم له علبة السجاير فأخذ واحدة منها وأشعلها له، ثم تنفس نفساً عميقاً وطرح ظهره الى الخلف. قال له العقيد: حسناً يا «تمرمانس» - في البلجيكية - إن قضيتك غير معقدة لحسن حظك، وقد تحققنا من قصتك ووجدناها كاملة تماماً..

ابتسم «تمرمانس» ثانية. وأضاف العقيد: «قيل لي أنك ترغب في الانضمام الى البحرية التجارية البلجيكية الحرة وتقوم بسهمك من الحرب....».

- نعم تواق جداً يا سيدي، قالها مبتسماً وقد تشجّع.

أجاب العقيد بنتو: اني مسرور أن أسمع هذا، لأن البحرية التجارية البلجيكية تحتاج الى رجال طيّبين مثلك (وأخذت أقلّب بعض الأوراق)، وأردف أورست قائلاً: حسناً ليس هناك حاجة في تعطيلك أكثر من هذا؛ لقد تم استجوابك وأنت كما أعلم ترغب بالالتحاق بمواطنيك بأقرب فرصة ممكنة، وسأطلب من ضابط الهجرة أن يعطيك سمة الدخول حالاً، وإن رافقك الحظ يمكنك أن تركب القطار هذه الليلة الى «بركسهام»، ما رأيك؟.

- هذا رائع يا سيدي، أشكرك جداً (وقد انتشرت ابتسامته من الأذن للأذن).

ثم قلت: هناك شيء واحد، فهذه لوازمك على المنضدة، تأكّد منها،

ووقّع هذا الوصل الرسمي بها، ويمكنك أخذ لوازمك والذهاب في طريقك. . .

تناول «تمرمانس» القائمة من أمام العقيد «أورست» ووقّعها بعد أن قرأها وقال: كل شيء على ما يرام سيّدي.

وساد الصمت أثناء توقيعه حكم نفسه بالموت.

بعد هذا دفع «تمرمانس» كرسيه الى الخلف وتساءل: هل هذا كل ما تطلبه يا سيدي؟ قال العقيد: ليس تماماً. وأخذ يفتح محفظته بهدوء وأخرج المسحوق ورزمة العيدان ثم قطعة القطن، ووضعها بالترتيب على النشّاف، وأخذ ينظر اليه، فاصفرّ وجهه وزالت ابتسامته واضطربت عيناه. . .

قبل أن تذهب أرجو أن تفسّر الأسباب التي جعلتك تحمل مثل هذه الأشياء بصورة خاصة في محفظتك، وهي أشياء اعترفت أنها لك بتوقيعك لهذه القائمة؟.

اضطرب ونظر الى القائمة التي في يدي العقيد، وكان كما لو يتحيّن الفرص لاختطاف هذه الورقة المقيتة من يده، ثم استرخى وطفرت على شفته ابتسامة نصر.

قال: طبعاً يمكنني تفسير ذلك يا سيّدي. . . لقد حيرّتني برهة ولكني أتذكر الآن جيداً، عندما كنت في السجن في برشلونة ـ وقد أخبروك عن ذلك طبعاً ـ نزلت زنزانة في السجن مع شيوعي اسباني. وفي صباح أحد الأيام الباكر جاء اليه الحرس وأخذوه خارجاً. وعند سمعه وقع أقدامهم في الممر، رمى لي بهذه الأشياء الثلاثة وقال إنهم سيقتلونه لو وجدوا هذه الأشياء معه، وطلب مني أن أحتفظ بها له حتى يرجع.

وهنا تنفس عميقاً وأردف قائلاً: ولكنه لم يرجع ثانية. وقد وضعت هذه الأشياء في محفظتي ونسيت كل شيء عنها حتى هذه اللحظة. . . أقسم بشرفي يا سيدي.

لقد أخفى العقيد «أورست» اعجابه بهذا الرد السريع وأخذ ينظر اليـه. . وقد قفزت له فكرة لاكتشافه فجرّبـها فوراً. . .

ابتسم العقيد كما لو أنه بدأ يفهم نكتة لطيفة، ثم اتسعت ابتسامته وأخذ يضحـك من أعماقـه بدون تـوقف، وألقى رأسـه الى الخلف، واحمـر وجهـه وسالت الدموع من عينيه، كما لو لم يكن في الدنيا نكتة ألطف. . .

جلس «تمرمانس» كالشبح طـابقاً فكّيـه واحمرّت جبهتـه وأخذ يـرتجف كلمـا تعالى ضحـك «أورست». وانهار في النهـاية وأخـذ يضغط راحتيه على أذنيه ووقف على قدميه وأخذ يصيح ويشتم ويطلب من العقيد «بنتو» أن يوقف ضحكه الجنوني هذا قائلاً:

سأخبرك كل شيء. . . كف عن الضحك من أجل السماء؟.

وبعد أن حذّره «أورست» من أن أي شيء يقوله قد يؤخذ كدليل ضده، كتب ووقّـع اعترافـاً كامـلاً ثم طبع بصـورة لطيفـة ووضع على مكتب العقيـد المنتصر. وتبين بأن «تمرمانس» هذا من أكبر جواسيس النازية وأكثرهم خطورة ودهاء. لذلك نفذ به حكم الاعدام في «وندبسورث» في السابع من يوليو سنة ١٩٤٢، ضحية للدقة والعبقرية المفرطة.

وهكذا تخلصت البشرية من جاسوس نازي كان بإمكانه أن يعرّض حياة الآلاف من الناس لخطر الإبادة وفق أحدث الفنون الهتلرية في هذا المجال.

الوفاء الهتلري
واختطاف موسوليني من الأسر

النازية تسري مع الدم في شرايين هتلر، والفاشية تتغلغل في عروق موسوليني.. وكلاهما وجهان لعملة واحدة...

«الفوهرر» في المانيا... و«الدوتشي» في ايطاليا.. سرطان خبيث تسلل في النصف الأول من القرن العشرين الى جسد أوروبا وحاول الامتداد والتوسع للسيطرة على الكون بأجمعه وكاد ينتصر وقارب الحلم من التحقق.. والخيال الى واقع.. وأضبحت «الأرض التي لا تتسع إلا لملك واحد» على شفا الولاء لذلك «الزعيم» الممثل بعنصرية «العرق» و«النقاء الدموي».

ولم تكن الحرب العالمية الثانية إلا ثمرة هذا التحالف النازي الفاشي لإخضاع العالم كله لهذا الأخطبوط الجهنمي الذي يسعى لجعل البشرية جمعاء لقمة سائغة لشهيته التي لا تشبع.

وإزاء ذلك اعتقل الدوتشي أثناء الحرب هذه ووضع تحت حراسة دقيقة في أحد الأماكن السرية في ايطاليا. ولكن حليفه الفوهرر لم يتخل عنه في لحظاته الصعبة ودبر عملية اختطافه من الأسر ونجح.

كيف تم ذلك؟ وما هي أسرار هذه العملية؟.

لقد شهدت الحرب العالمية الثانية تحولات هامة في المواقف مع بداية عام ١٩٤٣. ففي الثالث من كانون الثاني /يناير/ ١٩٤٣ انسحب الالمان من

القوقاز. وفي ١٤ منه قامت جبهة الدون بهجوم عام انتهى بـاستسلام الالمـان في ستالينغراد يوم ٣١ منه. أيضـاً وفي ١٢ أيار /مـايو/ انتهت معـركة تـونس وفقد الالمان كل أمل في ممارسة عملياتهم فوق مسـرح شمالي أفـريقيا. وفي ١٠ تموز /يوليو/ ١٩٤٣ أنزل الحلفاء قواتهم في صقليـة. وكان هـذا الانزال حافزاً للقوى المناهضة للفاشية وفي طليعتها الحزب الشيوعي الايـطالي الذي قاد النضال ضد موسوليني ونجح في الاطـاحة بحكمـه يوم ٢٥ يوليو ١٩٤٣. وعملت هذه القوى على تشكيل حكومة ائتلافية وحاولت اتخاذ مواقف متـرددة وغير حازمة تجاه المانيا، كما كان مـوقفها ضعيفـاً من الدوتشي. فعملت على نقله في البداية الى ثكنة الطلاب الرماة ثم الى جزيرة بـونزا ومنهـا الى قاعـدة مادلينا. ولم تكن هـذه المراكـز جميعها صـالحة للمحـافـظة على سـر الأسيـر موسوليني أو حتى لإخفاء شخصيته وعدم إثارة الشكوك حول وجوده.

وكانت حكومة «بادوليو» التي خلفت حكم موسوليني خاضعة لمجموعـة كبيرة من المؤثرات. فقد تابعت رسميـاً الحرب الى جـانب هتلر بعد المقـابلة التي تمت في السـادس من آب /أغسـطس/ وفي الـوقت ذاتـه كـانت هنـاك اتصـالات سريـة تجري في الخفـاء مع الحلفـاء وقياداتهم التي كـانت تـدفـع القوات من الجنوب. وقد التزمت حكومة «بادوليو» أمـام هتلر بالمحافظـة على حياة الدوتشي.

وعندما شعرت المانيا بالدور المزدوج الـذي تمارسـه حكومـة «بادوليـو» قررت توجيه ضربة حاسمة لمعالجة الموقف المتدهور على أمل اعادة عقـارب الساعة الى الوراء. ودفعت قوات كبيرة لدعم فـرقها الثمـاني المتمركـزة على الحدود الايطالية. ومقابل ذلك قام الحلفاء في اليوم العاشـر من آب/أغسطس بـإنزال قـواتهم في صقلية. وفي يـوم ١٧ منه احتلوا مسينـا. وفي الثـالث من أيلول /سبتمبر/ بدأ غزو الحلفاء لإيطاليا.

وبدأت الأحداث في التسـارع بصورة مـذهلة مما دفـع القيادة الالمـانية الى التفكيـر بشن ثورة مضـادة ضد حكـومة «بـادوليـو» وإعـادة الـدوتشي الى

السلطة. وقد ظهرت بعض الشواهد التي أثارت شكوك الايطاليين ومنها تبديل الوزير الالماني المفوض «ماكنسن» بالبارون «راهن» المعروف بدهائه وشخصيته القوية، وما قام به من دور في فيينا للتحريض على قتل «أدولف هتلر». وهو الذي جعل أيضاً من الاميرال استيفا منفذاً لمآربه وخادماً أميناً لمخططاته خلال عملية احتلال تونس. ثم أعقب ذلك وصول عدد من المظليين التابعين للفرقة الأولى والثانية الى روما. وجاءت بعدها الاغارة التي نفذت يوم ٨ أيلول /سبتمبر/ بهدف اختطاف المارشال «بادوليو». أما الخطة الأساسية التي اختفت وراء هذه الشواهد فهي عملية اختطاف موسوليني والتي أعطى الأوامر بتنفيذها شخصياً زعيم الرايخ أدولف هتلر، وتابع الاشراف على الاستعداد لتنفيذها وكلف بها شتودنت من أجل تحضير مخطط التحرك الجوي، وسكورزيني لتنفيذ عملية الاغارة.

وبدأ سكورزيني عمله بالبحث عن الملجأ الذي تم فيه اعتقال الدوتشي. وسرعان ما وصل الى هدفه. ولكن الحكومة الايطالية أصدرت أمرها يوم السابع والعشرين من آب/أغسطس بنقل موسوليني من سردينيا الى حصن مادلينا. وكان المعتقل الجديد يقع في سلسلة قائمة من جبال «غران ساسو» وعلى ارتفاع ٢١٠٠ متر عن سطح البحر فوق مسطح أرضي ضيق شيد ليكون فندقاً لهواة التزلج على الجليد. وكان يدعى «بالنزل الامبراطوري». وكان بطبيعة موقعه سهل المراقبة والحراسة. وفي يوم ٢٨ منه جرى نقل موسوليني بواسطة سيارة اسعاف الى فندق صغير في قرية فيينا عند سفح القطار الهوائي (التليفريك)، والذي يصل المعتقل بطريق اكيلا. وبقي موسوليني في هذا الفندق حتى يوم ٦ أيلول /سبتمبر/ وذلك حتى انتهت عملية تنظيم الحراسة واتخاذ احتياطات الأمن في المعتقل وتنظيم الدفاع عنه. وكان سكورزيني يتابع عمليات النقل، فأرسل في يوم ٢٨ آب/أغسطس المعلومات الى القيادة. وفي اليوم الرابع من سبتمبر أرسل تقريره بواسطة ضابطين. حملتهما سيارة سياحية الى فيينا. وفي يوم ٥ سبتمبر حلقت طائرة المانية فوق المعتقل لاستطلاعه قبل التقاط صور جوية له في اليوم التالي.

وفي ٦ أيلول/سبتمبر أصبح النزل الامبراطوري جاهزاً لاستقبال موسوليني بعد أن تم ابعاد النزلاء عنه. وكان تنظيم هـذا النزل ممـاثلاً لغيـره من الفنادق المخصصة لممارسة الرياضة الشتوية. فكان بناؤه يضم طابقاً أرضياً وضعت به زمرة الاتصال ومعهـا جهاز لاسلكي لـلإتصال مبـاشرة مـع روما. وطـابقاً ثـانياً خصص لإقامة موسوليني في جناح منه. على حين خصصت الغرف المجاورة لإقامة الحرس ورجال الشرطة. وكانت قوة الحـراسة تضم مئـات من القناصـة (مهرة الرماة) بقيادة عقيد من قوات القناصة. وقد نظمت الحراسة على جميع محاور الطرق والممرات التي تصل الى النـزل. كما كـانت الملاجىء تشـرف على جميـع محاور الاقتـراب من النزل. وبـالإضـافـة الى ذلـك فقـد نـظمت الـدوريات ومفـارز الكلاب البـوليسية للتجـول في الضواحي بصـورة مستمرة. ووزعت على رجـال الحرس ثيـاب التـزلـج ومعـداتـه. وكـان المفتش العـام للشرطة «جيلي» المسؤول عن حراسة موسوليني. كما كانت القوى والوسـائط الموضوعة تحت تصرفه كافية لتنفيذ المهمة على أفضل وجه. لا سيّما وأنه كان بـاستطاعتـه الافادة من المـوقع الـطبيعي الحصين للنزل ومـا تتوفـر حولـه من حواجز وعوائق بالإضافة الى عـزلته وبعـده عن كل منـطقة سكنيـة مما يجعـل عملية الاحتفاظ بموسوليني والدفاع عن النزل أمراً مضموناً.

وبتـاريـخ ٨/ ٩/ ١٩٤٣ أعـلـنت الـحكـومـة الايـطـاليـة استسـلامها للحلفاء وأعلنت خروج قواتها من الحرب وبذلك فقدت القوات الايطاليـة كل إرادة للقتال. وأسرعت خمسون فرقة ايطاليـة بالاستسـلام للحلفاء في البلقـان وفي ايطاليا الشمالية وفي الريفييرا الفرنسية. ووافقت قيادات هذه القوات على القاء السلاح والخضوع لشروط معاملة أسرى الحـرب. وفي اليوم التـاسع من أيلول/سبتمبر أنزل الحلفاء قواتهم في «ساليرنو» مما أحبط إرادة القتال عند بقية القوى الايطالية وأخضعها لظروف نفسية سيئة. وقد زاد تردد حكومة «بادوليـو» الأمـر سـوءاً ممـا انعكس على الـوضـع العـام كله وعلى المـوقف الخـاص بموسوليني بصـورة واضحة. فقـد أعطى مـدير الشـرطة الايـطالية في حكـومة «بـادوليو» أوامـره الى المفتش العام «جيلي» عنـد تنظيم النـزل الامبـراطـوري

[illegible]

بشكل دقيق وحازم: «يجب قتل موسوليني وعدم تسليمه اذا حاول الالمان اختطافه» وقد وجدت هذه الأوامر الصريحة المنفذ الحازم لها وهو «جيلي» الذي عرف بشجاعته في تنفيذ جميع الأعمال والواجبات التي كلف بها في الماضي، ومنها أنه قتل بيده زعيماً خطيراً من زعماء العصابات، بالإضافة الى أنه من المناوئين للفاشية. ولكن الأوامر المتناقضة أخذت في الوصول تباعاً. ففي اليوم الثامن من سبتمبر وبعد توقيع اتفاقية الهدنة هرب «بادوليو» مع العائلة المالكة من روما. وفي اليوم التاسع من سبتمبر تحولت روما الى ساحة للقتال العنيف وتابعت الفرق والقوات الايطالية استسلامها للحلفاء في كل مكان.

أما الوزراء فقد بقوا في روما وعقدوا اجتماعاً حضره مدير الشرطة وطرح فيه قضية موسوليني على وزير الخارجية «ريكسي». ودار نقاش حول الاحتمالات المختلفة التي يمكن مجابهتها والى ما يمكن حدوثه من عمليات انتقامية تستهدف الجميع اذا قتل الدوتشي. وانتقل النقاش الى استعراض أحداث الاضطرابات الداخلية.

وتوقف النقاش عندما وصل تحذير القيادة الالمانية الى الحكومة الايطالية ومطالبتها بتسليم المدينة. وإلا ستتعرض روما للقصف من قبل سلاح الطيران وستقوم القوات الالمانية بالانقضاض دون هوادة.

وأمام هذا الموقف أصبحت المقاومة في النزل الامبراطوري تحمل جوانب خطيرة. فأصدر مدير الشرطة أمره الى المفتش العام جيلي وأبلغه هاتفياً: أعمل بمنتهى الحذر. وفي العاشر من سبتمبر هدأ القتال في روما قليلاً وبدأ الموقف في الظهور بشكل أكثر وضوحاً. فأرسل وزير الداخلية تعليماته بالهاتف الى المفتش العام وفيها: عد الى التعليمات الأولية. ولكن القوات الالمانية أسرعت بالتوجه الى روما. وفي يوم ١١ سبتمبر أمكنها فرض سيطرتها على المدينة. وفي يوم ١٢ منه كان لا يزال باستطاعة وزير الداخلية الاتصال مع حكام المدينة الذين كانوا على اتفاق معَه من أجل الابقاء على حياة موسوليني. وتجددت المحاولة للإتصال بالمفتش العام في النزل

الامبراطوري. ولكن الأسلاك الهاتفية كانت مقطوعة في هذه الفترة، فأرسلت برقية باللاسلكي. ووصلت هذه البرقية قبل الاغارة الالمانية بساعات قليلة. وزادت الموقف غموضاً «اعمل بمنتهى الحذر». وأطاع «جيلي» متردداً لا يدري ماذا يجب عمله بدقة لو قام الالمان بهجوم مباغت. ولكن تردده لم يستمر طويلاً فقد ظهرت وبصورة مباغتة القوات الالمانية يتقدمها قائد الشرطة العسكرية «سولتي». وكان دفع قائد الشرطة العسكرية الايطالية أمام قوة الاغارة بمثابة ضربة مباغتة لم تخطر في مخيلة أحد سوى «سكورزيني»، الذي حاول في البداية الحصول على رهينة هامة. وانطلق رجال الغستابو مع مظلّيي الفرقة الثانية في البحث عن مدير الشرطة ولكن هذا اختفى عن الأنظار، فقرر سكورزيني استخدام رهينة أخرى وتقرر اختطاف قائد الشرطة العسكرية «سولتي». وتم تنفيذ ذلك ثم بدأ وضع مخطط العملية موضع التنفيذ.

وفي يوم ١٢ سبتمبر أقلعت من مطار «براتيكا» مجموعة من اثنتي عشرة طائرة تقطر خلفها اثنتي عشرة طائرة شراعية تحمل بمجموعها قوة من المظليين التابعين لقوة سيك ريجيمانت، ويبلغ عدد أفرادها مائة وعسرة مظليين. وفي الساعة الرابعة عشرة وبعد ساعة تقريباً من الطيران وصلت الطائرات الى منطقة النزل الامبراطوري. وتخلت الطائرات القاصرة عن الطائرات الشراعية لتهبط على شكل موجات ثلاث وذلك لتجنب لأخطار التي قد تنجم عن هبوط الطائرات الشراعية في موجة واحدة ضمن نطاق أرضي محدود وأمام قوات قد تقوم بالمقاومة. ووصلت طائرات موجة الهجوم في البداية وتوجهت بسرعة الى المركبة الهوائية (التليفريك) وعملت على قطع الأسلاك. وتم تنفيذ ذلك خلال فترة قصيرة جداً. وبذلك أمكن عزل النزل الامبراطوري ومنع أي محاولة لإخلائه أو الفرار بالمعتقل موسوليني. وخلال ذلك استمرت عملية هبوط الطائرات الشراعية بالتتابع على المنعطفات التي تحيط بالنزل، ولم تكن عملية هبوط هذه الطائرات بمنجاة من كل خطر. فلقد اعترف الالمان بأن خسارتهم قاربت ثلث المنفذين في هذه العملية نتيجة لاصطدام الطائرات الشراعية بالعوارض الأرضية القاسية، وانقسم من

بقي حياً الى زمرتين. الزمرة الرئيسية ومهمتهـا السيطرة على محـاور الاقتراب من النزل الامبراطـوري ووضع المـدافع الـرشاشـة على الطرق والـدروب في مـواجهة النـزل. وكانت مهمـة بقيـة مجمـوعـة التنفيـذ اختـراق مبنى النـزل. وتـوجهت زمرة الى الـطابق الأرضي للسيـطرة على الجهـاز الـلاسلكي، فـي حين تـوجهت زمرة مكـونة من ثمـانية عشـر مقاتـلاً الى الطابق الأول. وذهـل القناصة الايطاليون ذهـولاً تامـاً لظهـور المظليين الالمـان في مواجهتهم، فلم يحاولوا اطلاق النار أو استخدام أسلحتهم. وهبط من الطائرة الشراعيـة الأولى قـائد الشـرطة العسكـرية الجنـرال سولتي وتبعـه سكورزيني وتبعهم جنـد من الالمان الممسكين بمسدساتهم الرشاشة وأصابعهم على الزناد. وتوجه الجميع نحو المدخل الرئيسي للنزل وتجاوزوا بسـرعة مسافة المئتي متر الفـاصلة بين مكان الهبوط وبين النـزل. وفي قلب هذا الـذهول ظهـر الدوتشي من نـافذتـه وصـاح اياكم والـرمي، وردد الجنرال سـولتي بدوره ايـاكم والـرمي. وأسـرع الالمـان الى الدور الأول حيث كـان يقيم الـدوتشي. وانتهت المـرحلة الأولى من العملية بنجاح رائع وبدأت المرحلة الثانية.

في الساعة الخامسة عشرة من يوم ١٢ أيلول /سبتمبر/ هبطت بـالقرب من الفندق وعلى مسطح أرضي تم اعداده بسرعة طائـرة صغيرة نمـوذج فيزلـر يقودها طيار عرف بكفاءته العالية. وكان قد تم طلب الـطائرة بـواسطة الجهـاز اللاسلكي. وصعد موسوليني وسكورزيني. ولكن مرحلة الصعود كادت تنتهي بكارثة لولا عمل المظليين بسرعة على تمهيد الأرض وتسويتها وإزالـة العوائق والصخور والنتوءات حتى أصبحت الأرض صـالحة لـلإقلاع في حـدود ستين متراً. وفي الساعة السادسة عشرة والنصف تقريباً انتهت الاستعـدادات ودارت مروحة الطائرة وقفزت الطائرة فوق حفـرة لا زالت تعترض طـريقها ثم وصلت الى منحدر كادت تنزلق فيه ولكن الطيار استطاع السيطرة على المـوقف ونجح في الارتفاع. وبعد الاقلاع بفترة لا تزيد على الساعة وصلت الطائرة الى روما حيث كانت تنتظرها طائرة نقل. وفي المساء كانت طائرة النقـل تهبط في مطار فيينا وعلى متنها الدوتشي. ووصل موسوليني في النهاية وقابل هتلر بفـرحة لم

يستطع كبح جماحها عندما بدأ حديثه اليه: «كنت أعرف أنكم لن تتخلوا عني». وعاد موسوليني الى روما ليحكم ايطاليا بفضل حراب النازية التي كانت تسير نحو نهايتها. ولقد بقي في روما حتى اقترب الحلفاء منها واعتقل وهو يحاول الهرب الى سويسرا وأعدم في ٢٨ ابريل ١٩٤٤.

يبقى أخيراً أن نقول بأن التاريخ ليس من صنع هتلر ولا موسوليني وأمثالهما. وليس عن طريق هؤلاء يصنع تاريخ حقيقي.

فمن يقامر بمصير الشعب والوطن والبشرية جمعاء ليس أهلاً للقيادة والسلطة والحكم. ومن يعتبر الجماهير والشعب قطيعاً بشرياً لا مهمة له سوى ايصال الطغاة والمتحكمين الى سدة العرش القائم على الدم والجماجم، فهذا ليس من طينة البشر...

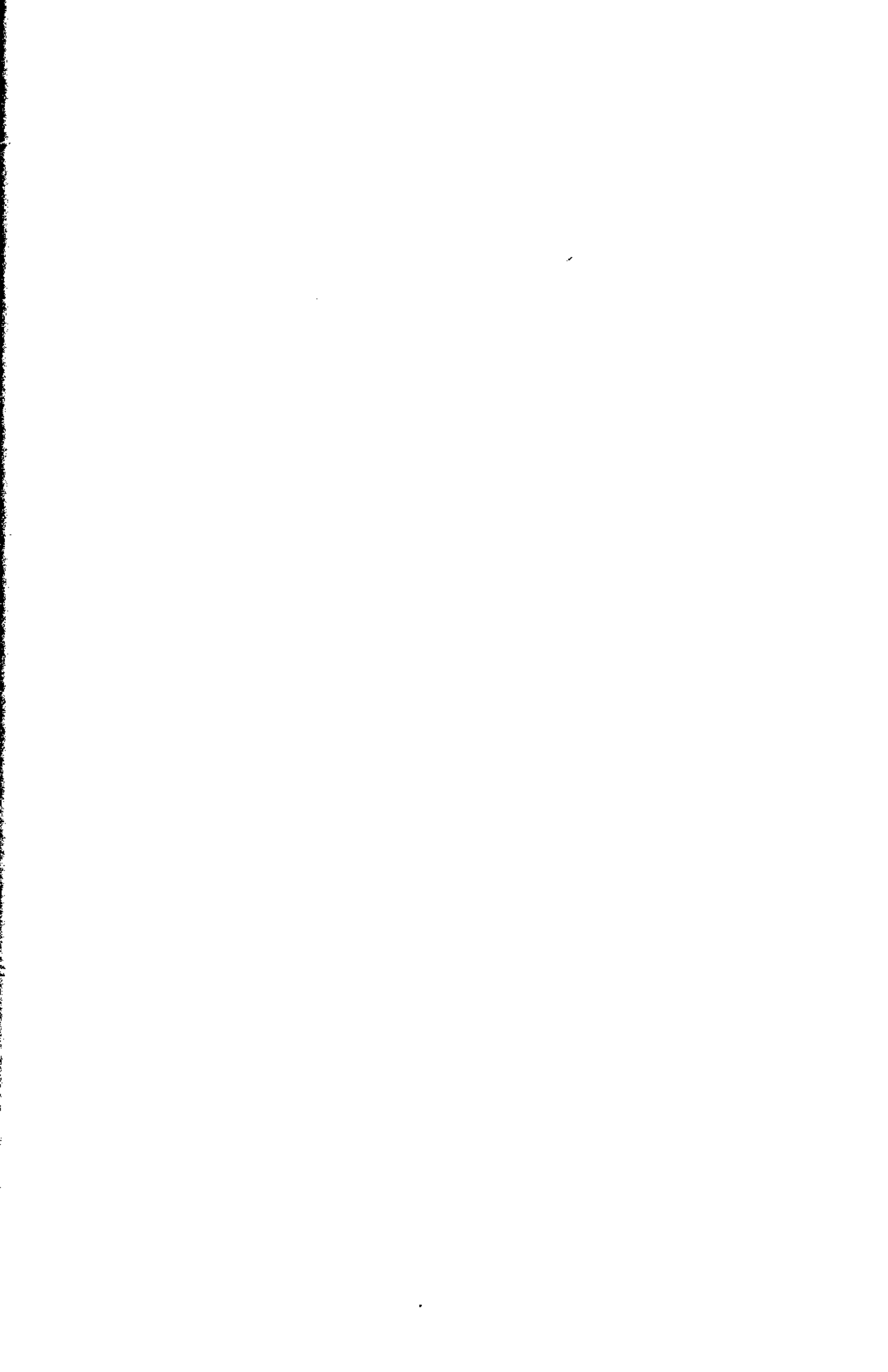
والبشرية بأجمعها شهدت مصير هؤلاء الطغاة الذين قضوا قتلاً أو انتحاراً لا فرق بانتهاء الحرب العالمية الثانية التي أشعلوا فتيل نارها المتفجر محولاً العالم كله الى كومة من لهب، وكان لحم البشر وعظامهم فيها طعاماً لها. واعتبروا يا أولي الألباب.

المراجع

١ ـ «الموسوعة العسكرية» الجزء الأول. بإشراف المقدم الهيثم الأيوبي. منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الأولى بيروت ١٩٧٧. ص ٣٩ ـ ٤١.

٢ ـ عبد الوهاب كيالي وكامل زهيري «الموسوعة السياسية». المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ١٩٧٤.

٣ ـ سكورزيني (سلسلة قادة الحرب العالمية الثانية) ترجمة كمال عبدالله المكتبة الحديثة. بيروت١٩٨٣.



المخابرات الألمانية
وأسرار عملية القطب الشمالي

كثيرون هم الأشخاص في هذا العالم، الذين كانوا عظماء في حياتهم، ولكن الكثيرين أيضاً كانوا عظماء في حياتهم وفي مماتهم على السواء، وكان نابوليون بونابرت في عداد هؤلاء العظماء الذين تفتخر الانسانية ببطولاتهم ومآثرهم. وكم كان مصيباً نابوليون عندما قال بأن «جاسوساً واحداً في الموضع المناسب هو بمثابة عشرين ألف جندي في ميدان المعركة». وكذلك كان رأي الملك جورج الخامس الذي ذكر «أن الجاسوس هو أعظم الجنود، ويكرهه العدو أشد من غيره لأنه يخشاه أكثر من أي شيء آخر»..

ينطبق هذا القول بشكل كبير على الكابتن «اريك فانتر VANTER» من رجال الاستخبارات الالمانية «الغستابو» وبطل عملية «القطب الشمالي» التي هزت بريطانيا في الحرب العالمية الثانية.

فمن هو «اريك فانتر»؟ وما هي أسرار عملية «القطب الشمالي»؟.

تعتبر هذه العملية من أبرز الانجازات التي حققتها المخابرات الالمانية خلال الحرب العالمية الثانية. اذ في شتاء عام ١٩٤١، كلف جهاز «الغستابو»، الكابتن «اريك فانتر» بالاشراف على النشاط الذي يقوم به الجواسيس التابعون لدول الحلفاء في هولندا المحتلة من القوات الالمانية. وكانت مهمته الأولى تنحصر في كشف مقر القيادة السريَة لجماعات المقاومة وأن يحول بينها وبين الاتصال بلندن، وكانت نقطة البداية بالنسبة لهذه

المهمة، عندما استطاع الكـابتن «فانتـر» أن يدخـل أحد عمـلائه ضمن خليـة تابعة لـرجال المقـاومة، حيث استـطاع هذا العميـل أن يزود رئيسـه بكثير من الأسـرار التي حصل عليهـا. وأكد في أحـد تقاريـره الخطيـرة أن أحد ضبـاط اللاسلكي كشف إذاعة سِرية كانت تبث مبتدئـة بالأحـرف (ر ـ ل ـ س)، وفي ساعة معينة من مساء كل يوم، فتقرر الاستيلاء على هذه المحطة. وخلال ثلاثة أشهر تمكن الالمان من الاستيـلاء على المحطة المـذكورة، واعتقـال مديـرها الانكليـزي ويدعى «الكـابتن بويدز». وبعد سـاعتين تم اعتقال بـاقي الأعضاء والمعـاونين. . ومعرفـة جميع الـرموز والشيفرة. وجاءت الأوامـر الى «الكابتن فانتر» بمتابعة الاتصال مع لندن وتضليلها فأوعز الى «الكابتن بويـدز» بمتابعـة الاتصال بلندن، لكنه رفض بإصرار مساعـدة ضابط الـلاسلكي «تيمبس» أيضاً وفشلت عدة محاولات لاقنـاعهما بـالعمل بـاللطف واللين، مما اضطر الالمان الى استعمال التهديد والعنف، وطلبوا منهما الاستعداد لتقديمهما الى المحكمة العسكرية التي ولا شك سوف تحكم بإعدامهما. وكان لهذا التهديد أثره لدى «الكابتن بويدز» فوافق على معاودة الاتصال وقام بإرسال الرسائل الثـلاث التي تعود إرسالها يوميـاً، وتلقى الجواب عليهـا من لندن، مـع رسالـة جديـدة عن وصول مندوب جديد، وطلب إعداد منطقة لهبوطه ومعه كمية من العتاد، وفي وقت كانت فيه عناصر المخابرات الالمانية على استعداد في كل لحـظة لقطع الاتصال مع لندن عند أول بادرة من بويدز. .

وبعد هذا الاتصال لم يستطع المـدير الانكليـزي أن يكتم أسفه وحـزنه على ما قام به، وصرح بأنه لن يقوم بعد ذلك بأي اتصال، وأنه يفضل الموت على أن يرتكب مثل هذه الجريمة بحق مواطنيه.

ولكن المخـابرات الالمـانية عـادت الى التهـديـد، وأفهمتـه أن رفضـه التعـاون سـوف يؤدي بـالمنـدوب الجـديـد الى الاعـدام. أمـا اذا استمـر في معـاونتهم فإنـه ينقـذ من سـوف يحضر غيـره بعد ذلك، فاضـطر الى الرضـوخ ومتابعة الاتصال تحت المراقبة الشديدة. وكانت المخابرات الالمـانية تتعجب

من إخلاص بويدز وعدم محاولته الاشارة الى اعتقاله مع شبكته من قبل الالمان. وبتاريخ ٢٧ آذار/مارس وصلت اشارة من لندن تطلب منهم انتظار وصول الطائرة القادمة من لندن وهي تحمل المندوب الجديد والمعدات..

في الساعة الحادية عشرة ليلاً، انتظرت عدة سيارات صغيرة في غابة بالقرب من الموقع المحدد لهبوط الطائرة التي تأخرت ساعتين عن موعدها، وهبطت لمسافة بسيطة عن سطح الأرض في المكان المحدد وألقت خمس مظلات، أربعة منها تحمل صناديق العتاد، والخامسة تحمل المندوب الجديد وهو ضابط لاسلكي. ثم عادت الطائرة من حيث أتت، وبعد دقائق كان الضابط والعتاد في حوزة المخابرات الالمانية. وكلف بويدز بالاتصال بلندن للإعلام عن وصول المندوب الجديد والعتاد..

وهكذا فعل..

مضت عدة أسابيع بعد وصول المندوب الجديد ضابط اللاسلكي والحالة هادئة. لكن المخابرات الالمانية كانت تخشى أن يكون البريطانيون قد كشفوا الخدعة، ثم علمت المخابرات الالمانية أن قيادة المخابرات الهولندية البريطانية ومركز لندن لا تزال تتصل ببعض الفدائيين وفرق المقاومة. واستمع الاخصائيون الى إذاعات سرية جديدة تبث من منطقة «اوترخت»، كما عثر على جثة فدائي بريطاني في منطقة «هولتن» كان قد قتل على الصخور عند هبوطه بالمظلة، وعثر في جيوبه على ورقة سرية سجل بها مراكز خمس محطات إذاعة سرية وشيفرة جديدة لكي يذيع لها.. عند ذلك رسم «اريك فانتر» خطة لكشف باقي العملاء والاستيلاء على هذه المحطات... فتركت الجثة على حالها، وشددت المراقبة حولها حتى حضر اثنان من الفدائيين لدفنها، والاستيلاء على ما في الجيوب من الأوراق. فاعتقلا، وعثر معهما على شيفرة ثانية وجديدة. ومن ثم اعتقلت باقي المجموعات. وأخذت المخابرات الالمانية تذيع الى لندن من الشيفرة الخاصة بالمحطة الجديدة، وانطلت الخدعة على الانكليز. وفي نفس اليوم اطمأنت لندن، وأخبرت

الالمان عن وصول فوج جديد من الفدائيين مع كمية كبيرة من العتاد والمؤن الى موقع معين. . واعتقل الجميع، لكن لندن أبلغت عن وصولهم سالمين. . واستمر الاتصال، ثم أخبرت لندن أن ضابط الارسال لقي حتفه، وأنه يجري تدريب غيره لكي يحل محله، فوافقت حالاً. وهكذا أصبح لدى المخابرات الالمانية ثلاث شيفرات للإتصال بلندن. ثم أخذت المخابرات الالمانية تتخلص من الانكليز واحداً واحداً، بعد أن تزعم للندن بأن الشكوك أخذت تحوم حولهم، فتوافق لندن على تغييرهم في الحال، حتى أصبح أغلب مذيعي المحطات السرية المستولى عليها، من الالمان. وأصبحوا يديرون أجهزة الارسال والاستقبال كأحسن ما يكون ضباط اللاسلكي. وكانت المخابرات الالمانية تخشى في هذه الحالة أن يكون البريطانيون قد قاموا بتسجيل أصوات عملائهم قبل إرسالهم، وبذلك يكتشفون الخدعة الالمانية. ولكن مع الأسف لم يجر شيء من هذا، اما لعدم اهتمام المسؤولين في المخابرات البريطانية بهذه الناحية، أولعجزهم عن تمييز الأصوات. واستمر الالمان في خداعهم حتى أصبح لديهم بعد شهور، أربعة عشر شيفرة اتصال يقوم بالاتصال بموجبها الضباط الالمان. . وتوالى إرسال المندوبين وكميات كبيرة من العتاد من أسلحة وذخائر وأجهزة لاسلكية جديدة. .

والقيادة في لندن لم تنتبه الى هذه الخدعة ولا الى مصير عشرات المندوبين الذين يقعون تباعاً بين يدي الالمان. . ومما زاد في عملية الخداع هذه المدة التي وصلت فيما بعد الى سنتين، ان المخابرات البريطانية لم تكن في حينه بمستوى إرسال مندوبين سريين في أوقات متفاوتة للتأكد من حسن عمل المندوبين السابقين، وإلا كان من الممكن كشف خدعة الالمان هذه منذ فترة طويلة. .

ومع سير العمل وتكرار المهمات ومتابعة خداع الغستابو للمخابرات البريطانية، عهدت لندن في أحد الأيام الى المسؤولين في محطة (ر. ل. س) القيام بمهمة خطيرة تتعلق بنسف المحطة اللاسلكية في

«كوتوجك». وهذه المحطة كانت تستخدمها البحرية الالمانية للإتصال مع غواصاتها المنتشرة في المحيط الاطلنطي، فأجابت المحطة (المخابرات الالمانية) بأن هذه المهمة سوف تكون سهلة وأنهم في طريق التنفيذ. ولكي يكون الأمْر طبيعياً أبلغت لندن في اليوم التالي بأن مهمة نسف محطة «كوتوجك» باءت بالفشل مع الأسف، وأن عناصر المهمة فقد منهم خمسة وجرح اثنان عاونهم رفاقهم بسبب وجود حقل ألغام حول منطقة المحطة وبغية جعل الأمور طبيعية أكثر، أخبرت لندن في الصباح بأن اثنين من المفقودين تمكنا من العودة سالمين بعد جهود عظيمة، وأبلغوا عن وفاة رفاقهم الثلاثة وأن الالمان قد شددوا الحراسة «بعد هذه المحاولة». وردّت لندن بأنها تأسف للخسائر التي لحقت بالفرقة وطلبت عرض ما تراه مناسباً لتذليل تلك العقبات بسبب إصرارها على نسف المحطة..

واذا تعمقنا في مضمون مثل هذه الأمور، نجد أن المخابرات وأعمالها هي المخابرات في كل زمان ومكان، لا تتأخر عن القيام بأي عمل من شأنه استفادة الدولة منه وبالتالي القوات المسلحة، خصوصاً في أوقات الحرب. وهذه الواقعة عن الخدعة الالمانية خير دليل على عمل المخابرات. فقد أوعزت المخابرات الالمانية بعد أيام من محاولة نسف محطة «كوتوجك» البحرية الى احدى الصحف بنشر خبر يقول بالحرف الواحد:

«أحبطت محاولة غادرة لنسف احدى المحطات اللاسلكية الكبرى قامت بها عناصر إجرامية قتل منها ثلاثة ولاذ الباقون بالفرار. وبعد فحص المواد المتفجرة تبين أن لأعداء البلاد يدا في هذه المحاولة الغادرة. وصح ما توقعه جهاز الغستابو من نشر هذا الخبر، حيث وصلت الصحيفة التي نشرته الى لندن عن طريق احدى الدول المحايدة التي تصلها الصحف الهولندية بطبيعة الحال. وبعد أسبوعين اتصلت لندن بالمحطة (ر. ل. س) وهنأتهم على محاولتهم لتحطيم المحطة، وزادت لندن بأنها قررت منح المدير «الكابتن بويدز» وساماً رفيعاً تقديراً لجهوده. ويعتبر هذا الوسام بلغة المخابرات

من حق المخابرات الالمانية المعروفة «بالغستابو». .

واستمرت الاتصالات والأعمال الوهمية، حتى أبلغت لندن أنها بصدد إرسال مندوب جديد يدعى «جامبروز» الى هولندا ومعه فرقة من المواطنين الذين رغبوا في الاشتراك لتحرير وطنهم هولندا. وكانت تعليمات لندن تقول أن هؤلاء المتطوعين سوف يقومون بتأليف فرقة للمقاومة يتألف كل منها من مائة رجل. .

قامت المخابرات الالمانية باعتقال الجميع لدى هبوطهم مع معداتهم. وكان عليها أن تخبر لندن بأنباء وصولهم ونشاطهم، فاتصلت بلندن زاعمة أن بعض المخبرين كانوا مدسوسين بين «جامبروز» وفرقته فأوجدوا التفرقة بينهم. ولكن «جامبروز» تابع مهمته بترتيب الفرق بعد أن تخلص من المدسوسين. ولمتابعة الخدعة، طلبت المخابرات الالمانية من لندن إرسال مدربين فنّيين للقتال واللاسلكي. . فأرسلت لندن في شهر تشرين الثاني سبعة عشر فنياً بينهم خمسة ضباط لاسلكي مع أجهزتهم الجديدة ولكل منها ذبذبة خاصة. اعتقلوا جميعاً، وزاد الالمان من خدعتهم حيث أخبروا لندن بانضمام ١٥٠٠ متطوع هولندي الى فرق المقاومة ويجري تدريبهم حسب التعليمات، وطلبوا إرسال ملابس وأحذية جبلية وكميات من المؤن (علب لحم محفوظ ـ شاي ـ تبغ ـ الى آخره) وكعادة لندن سارعت بتلبية الطلب وإرسال ما زنته عشرة أطنان من هذه الطلبات بواسطة الطائرات. .

نظراً لاستمرار هذه الخدعة لمدة سنتين، كان على جهاز «الغستابو» أن يوافي لندن دورياً بأنباء وهمية عن تدريب ونشاط الفرق. ونظراً لتعدد محطات الارسال والشيفرة، وخشية كشف الخدعة، فقد أعلمت المحطة الرئيسية (ر. ل. س) لندن بأن بعض المحطات سوف تتوقف عن الاتصال لضرورة الأمن. وصدقت لندن وأمرت بوقف معظم هذه المحطات مما تسنّى للألمان الاستمرار في خدعتهم، وهم مطمئنون. حتى وصل مندوب انكليزي جديد يدعى (آري) وقد اعتقل فور هبوطه كالعادة فطلب من الالمان أن يسمحوا له

بأن يتصل بلنـدن ليقول لهم جملة اتفق عليهـا مع المسؤولين هنـاك وهي «قد سافر الاكسبرس في الوقت المحدد» وأكد أن عـدم إذاعته هـذه الجملة بنفسه يكون دليلاً على أنه وقع في أيدي الالمان.

وخشيت المخابرات الالمـانية أن يكـون العكس هو الصحيـح، أي أن معنى هذه الجملة بالذات أنه وقـع بالأسـر، فوضعتـه في السجن وأذاعت في الوقت المحدد رسالة الى لندن جاء فيها: «لقد وقعت حادثة مؤسفـة لـ «آري» وهو فاقد الوعي، وقرر الطبيب الفاحص أنه مصاب بالارتجاج في المخ» وبعد يـومين أرسلت الى لندن «تحسنت حـالة «آري» وهنـاك أمل في انقـاذه» وتتمة للعبة أرسلت بعد يومين آخرين: «أن آري قـد توفي فجـأة» ومع الأيـام طلبت لندن أن يرسل اثنان من المندوبين للتشاور معهم. وأسقط في يـد المخابـرات الالمـانية هـذه المرة لكنهـا استمـرت بجـرأة في الخـداع فـأخبـرت لنـدن أن بالإمكان إرسال ما تطلبه ولكن طريق العودة غير مأمون بسبب انتشار الحـراس في كـافة المناطق. فعادت لنـدن وطلبت تحديـد أنسب الأماكن لهبـوط طائـرة تخطف مندوباً واحداً فقط للتشاور.

وأجابت المخابرات الالمانية باستحـالة ذلـك لأن أنسب مندوب لـديهم قتل في غارة المانية على «روتردام» فألغت لندن طلبها وأرسلت فـريقاً جـديداً من المنـدوبين بإشـراف «غولف غـروب» فاعتقـل الفريق، واتضـح أن مهمته الأولى هي البحث عن طريق آمنة لمساعدة الـراغبين في العودة الى انكلتـرا. وتشـاء الصدف أن يقـع طياران انكليـزيـان بين يـدي المخـابـرات الالمـانيـة ويرضيان بالتعاون معهما فأبلغت لنـدن بانهـا هيأت طـريقاً آمنـاً حتى باريس، وهي سوف ترسل رسولين للتشاور حسب طلب لندن من قبل، وكان الرسولان همـا الطيـاران... أرسلا حسب الاتفـاق... وبعـد أسبـوعين أرسلت لنـدن تهنىء بوصول الرسولين سالمين، وتشكر جميع الفرق على نشاطها في سبيـل تحـطيم العدو. وبعـد ذلك أخـذت المخـابـرات الالمـانيـة تخـدم الحلفـاء خـدمـات حقيقيـة غير ضـارة استرمـالاً في خداعهم. فكانوا يتعهـدون بعض

الطيارين الذين تسقط طائراتهم في سهول وهضاب هولندا وبلجيكا، ويوصلونهم عبر طرق وعرة الى الحدود الاسبانية باعتبار من أوصلهم أنهم من رجال المقاومة. وكانوا يذيعون هذه الخدمات عبر محطات الارسال ذاكرين أسماء ورتب الذين ساعدوهم وأنقذوهم من الموت المحقق..

ومع الأيام خشيت المخابرات الالمانية من افتضاح أمرها لدى الحلفاء بسبب عدم توافق المعلومات التي تحصل عليها من الدول المحايدة عن أعمال التخريب المزعومة التي ترسلها لهم، فعمدت الى افتعال حوادث تخريب «مصغرة» فكانت تضع أكوام الورق والأقمشة والمتفجرات الفاسدة قرب محطات السكك الحديدية، وتضرم فيها النار، ويرتفع اللهب عشرات الأمتار.

وتنشر هذه الحوادث في اليوم التالي في الصحف... ومن ثم في لندن. كما قامت المخابرات الالمانية لنفس الغرض بنسف سفينة المانية في وضح النهار (وكانت هذه السفينة ناقلة قديمة محطمة لا تصلح لشيء) وقد وصل خبر نسفها الى لندن فهنأت «المخابرات الالمانية» باعتبارها من أعمال فرق المقاومة...

واستمرت عملية الخداع هذه سنتين قامت بها ونفذتها المخابرات الالمانية بواسطة الكابتن «اريك فانتر» وباتقان تام دون أخطاء حتى تاريخ ٣١ آب/أغسطس ١٩٤٣، حيث تمكن اثنان من المندوبين المعتقلين من الفرار ليلاً، وعرف الالمان أنهما في طريقهما الى لندن، وسوف يكشفان كل شيء فأسرعوا للإبراق الى لندن مع اقتراح «فانتر» بوقف هذه العملية وأجيب على طلبه. وسميت هذه العملية من أولها لآخرها «عملية القطب الشمالي». وأوعز الى العشر محطات التي تعمل بنفس الوقت بشيفرات مختلفة ومعتمدة من لندن بإذاعة هذه البرقية: «الى المخابرات البريطانية» نشعر الآن أنكم تحاولون أن تديروا المعركة السرية في هولندا بدون معاونتنا... ونحن نأسف لذلك.. فقد بذلنا كل ما بوسعنا لخدعتكم.. وكنا وكلاؤكم الأمناء طيلة هذه

المدة في هذا البلد، ونؤكد لكم أنه ما فكرتم في إرسال مندوبين جدد لزيارة هـذا البلد أو العمل بـه فإننـا سوف نستقبلهم ونـرعـاهم ونـرحب بهم أجمـل ترحيب.. الامضاء: «المخابرات الالمانية..».

وأصيبت المخابرات البريطانية بالذهول لعظمة هذه الصدفة.. ولم يعد للندم نفع في مثل الحالات... وما فات مات...

المراجع

١ ـ د. حمدي مصطفى «حرب الجاسوسية»: دار الوثبة. دمشق. دون تاريخ. ص ٥ و٨٤.

٢ ـ سعيد الجزائري «المخابرات والعالم». مكتبة النوري. دمشق. الطبعة الثانية. ص ٣٢١ ـ ٣٢٨.

صراع الدهاء بين رجال البحر

منذ أن ظهر الانسان على سطح الأرض، برزت موهبته وتفوقه على سائر الكائنات والمخلوقات الأخرى. حتى أصبح بحق سيد هذه الأرض وما عليها. وفي الوقت الذي جبل فيه الانسان على الطمع، فإنه لم يكتف بسيادته على الأرض وحدها، بل تعداها الى السيطرة على الفضاء، حتى أن البحر والمحيط لم يفلت من قبضته، ولم يعد هناك بحر اسمه «بحر الظلمات» ماخراً عبابه ومحطماً جميع المصاعب التي اعترضت طريقه بهدف جعله مستقراً وممراً الى دنيا جديدة..

وعلى هذا الأساس وجدت الأساطيل البحرية كما وجد الدهاة من رجال البحر. وكم من معركة كبرى حسمتها الأساطيل لتقلب موازين القوى وتؤثر على سير الحرب بشكل عام. ولم تكن البارجة الالمانية المعروفة بـ «شارنهورست» التي أغرقتها السفن الحربية البريطانية في الحرب العالمية الثانية، سوى حلقة صغيرة في سلسلة الصراع بين الأساطيل أو بين دهاة البحر..

فما هي هذه البارجة المسماة «شارنهورست»؟ وما هي أسرار إغراقها؟.

ربما كان النازيون على علم بتلك القافلة البريطانية التي تشق طريقها الى «مرنسك» حول أقصى نقطة في شمال النروج، وربما كانوا قد أنفذوا البارجة «شارنهورست» في جوف الليل الى تلك المنطقة القطبية عساها تقع على شيء فيها. ولكنها خرجت على كل حال من مرساها في خليج نروجي، وقد عقد لواؤها «للأميرال باي».

توفرت لهذه البارجة ـ وحمولتها ٢٦ ألف طن ـ جميع المقومات

المطلوبة للإغارة على قافلة. فقد وضع تصميمها لتكون أسرع من أية بارجة بريطانية، ومدافعها الكبيرة تسعة من عيار احدى عشرة بوصة. فهي اذ تنبذ أي طراد بريطاني معروف في تلك الفترة، ومدافعها الثانوية تتيح لها اذا ما توسطت قافلة ما، ان تمعن في إغراق سفنها كما يمعن الثعلب في قتل الفراخ اذا ما تسلل الى حظيرة الدجاج..

خرجت «شارنهورست» مساء يوم عيد الميلاد في الوقت الملائم تماماً، وقد أخذ الفجر يرسل ضياء شاحباً على مياه البحر المظلمة في تلك الأصقاع الشمالية. فالتقت بالقافلة وكانت حمولة سفنها قرابة نصف مليون طن. وكان في إمكان «شارنهورست» أن تنزل بها من الضرر في الساعة التالية ما يستطيعه اسطول الغواصات كله في مدى ستة أشهر..

كانت القافلة البريطانية متجهة شرقاً على ١٥٠ ميلاً شمال الرأس الشمالي. وكان يحرسها من خطر الغواصات حلقة من سفن الكورفيت والمدمرات والسفن الحربية الصغيرة، وكان «للأميرال بيرنت» - قائد الاسطول الحارس - ثلاثة طرادات هي: بلفاست، ونورفوك وشفيلد، فعين لها مكاناً الى الجنوب الشرقي من القافلة، ومن هذه الناحية أقبلت بارجة «الأميرال باي»، شارنهورست. وتراءت الدارعة والسفن الحربية البريطانية، على مسافة ستة أميال. وكان في السفن البريطانية تلك العين الساهرة التي تحملها كل سفينة من سفن المملكة المتحدة. فكانت تسهر على سلامتها، فأنذرت أول نذير، وأخذت تبين مكان ذلك الدخيل الذي لا يكاد يشك في أنه عدو، وتنبىء بوجهته. وكانت المدافع تسدد وفقاً لإرشادها وضباط المدفعية ينتظرون اللحظة المناسبة لقذف نارهم..

واستدارت القافلة بناء على أوامر القائد، على حين انطلقت الطرادات الثلاثة الى ملاقاة العدو. وكان في وسع مدافع «شارنهورست» الجانبية أن تقذف من القنابل ما يزيد وزنه على ما تقذفه الطرادات الثلاثة مجتمعة. وأن طراداً تصيبه قذيفة مدفع قطره ١١ بوصة ولا يدمر فهو ولابد طراد محدود،

على حين تذود دروع «شارنهورست» السمكية قنابل الطرادات عن أحشائها إلا ما أصابها عن كثب. فالصراع لا تعادل فيه على ما يبدو، ومع ذلك فقد اندفعت الطرادات الثلاثة نحو البارجة الالمانية «شارنهورست». .

وفي نور ذلك الصباح، كنت ترى الماء الذي يشقه مقدم «شارنهورست» المسرعة وإن غابت أجزاؤها العليا المربدة، وأطلق مدفع من الجانب البريطاني، فارتسمت في السماء أقواس ساطعة من الضوء الأبيض، قبل أن تنفجر القنبلة المنيرة فوق البارجة فأضاءت البحر حولها في دائرة قطرها ميل، ثم أطلقت الطرادات نيرانها وصفرت القنابل في انطلاقها. ورأى ضابط المراقبة في الطراد «نورفوك» بمنظاره وميضاً باهراً أخضر على هيكل «شارنهورست» ساعة وقعت القنابل عليها. وكانت مدافع «نورفوك» من عيار ٨ بوصات، ومدافع الطرادات الأخرى من عيار ٦ بوصات فمن المحتمل أن تكون «شارنهورست» قد أصيبت. .

واستدارت الدارعة مسرعة فأخطأتها القنابل التالية، ثم مرقت من الدائرة المنيرة حولها واختفت. ولقد قضى «الأميرال باي» نحبه، فلن تعرف الدوافع التي حدت به الى الفرار، وليس من المحتمل أن يبلغ هيّاب رعديد مرتبة امارة البحر في الأسطول الالماني، ولعل «باي» كان ينفذ خطة وضعها من قبل. فالقافلة هي هدفه، وقد عرف الآن أين كانت القوة الرئيسية التي تحرسها، ففي وسعه أن يقدر في شيء من الدقة أين سفن القافلة فليبتعد متلفحاً بالظلام ثم ليسدد اليها ناره. وكان على أمير البحر «بيرنت» ـ على الطراد بلفاست ـ أن يدرك ما ينويه «باي»، وأين يهاجم القافلة؟ ومتى؟ ففي طاقة بارجة سريعة كهذه أن تدور حول القافلة في ساعة، وقد تهجم عليها من أية ناحية وتغرق منها في ١٠ دقائق سفناً كثيرة. فعلى «بيرنت» وهو واقف في المرفأ العالي المكشوف على ظهر الطراد بلفاست ورشاش الماء يتطاير من حواليه وهي تمخر عباب البحر الزاخر بأقصى سرعتها أن يقدر ويحكم التقدير لأن في الخطأ خطر عظيم. .

وفي منتصف الساعة الواحدة، أي بعد ثلاث ساعات من اللقاء الأول في الجنوب الشرقي عادت «شارنهورست» الى الظهور في الشمال الشرقي، فألقت «بيرنت» وطراداته أمامها. «فبيرنت» قد أحكم التقدير، أما ما جال في خاطر «باي» حين لاح له شبح هذه الطرادات الثلاثة العنيدة، على حين كانت جميع الاحتمالات تشير الى وجودها على بعد عشرين ميلاً، فيمكن أن نستشفه من خلال ما فعل في تلك اللحظة. فقد أطلقت «شارنهورست» فجأة عدة مدافع دفعة واحدة، فانفجرت قنابلها على مؤخرة الطراد «نورفوك» ثم أدبر مسرعاً الى قاعدته . .

لم يكن «باي» يشك في أن «بيرنت» قد أرسل منذ ثلاث ساعات إشارات لاسلكية الى الأميرالية البريطانية والى الأسطول البريطاني الرئيسي ينبئهما بخبره. ولم يكن يشك في أن البريطانيين لن يتوانوا عن إرسال السفن والطائرات للهجوم على بارجة عظيمة مثل «شارنهورست» . .

بل ان الخطر كان أعظم مما يتصور. فعلى نحو ١٥٠ ميلاً في الجنوب الغربي منه، كانت قوة بحرية تسير مسرعة لتقطع عليه خط الرجعة ـ وهي قوة تستطيع أن تجعل سفينته ركاماً من حديد ـ وكانت مؤلفة من البارجة «ديوك اوف يورك» والطراد «جاميكا» المرافق لها وأربع مدمرات لحراستها. وكان لواؤها معقوداً للأميرال السير «بروس فريزر» قائد اسطول الجزر البريطانية . .

ويندر من يعلم كم مرة نصبت البحرية البريطانية مثل هذا الفخ، وكم مرة خرجت قوة مؤلفة من بوارج وسفن أخرى تشق طريقها الى روسيا في خط مواز لخط سير القافلة وعلى مسافة غير يسيرة منها، عسى أن تلتقي بقوة نازية بحرية تخرج من النروج. وهذا أول جزاء جوزي به العزم والمثابرة . .

وكانت البارجة «ديوك اوف يورك» على نحو مئتي ميل حين تلقت اشارة «بيرنت» الأولى، وكانت «شارنهورست» تفوقها سرعة، وعلى «فريزر» أن يضمن قطع الطريق بينها وبين قاعدتها. فاتجه الى أقرب نقطة اليه على خط مستقيم بين آخر مكان ظهرت فيه «شارنهورست» وقاعدتها . .

ولما أرسل «بيرنت» إشارته الثانية بعد أن عادت «شارنهورست» الى الظهور عرف «فريزر» مكانها بدقة، فهي لم تزل على بعد ١٥٠ ميلاً . .

وآن الأوان «لبيرنت» أن يأتي بطريدة أخرى كانت «شارنهورست» بعد أن أصابت «نورفوك» قد اتجهت جنوباً، فبادر «بيرنت» يقتفي أثرها، اذ كان يحب أن يحاط «فريزر» علماً بمسيرها فعلى «بيرنت» أن يظل متصلاً بها. بيد أن الاتصال ببارجة مدافعها من عيار ١١ بوصة أمر يسهل طلبه ويشق تنفيذه، فإن في طاقة تلك المدافع أن تصيب هدفاً وراء الأفق، ولا يحتاج الأمر الى عدة طلقات دفعة واحدة تقع على أحد طرادات «بيرنت» لتغرقه . .

وبعد ظهر ذلك اليوم الذي ساده القلق والانتظار لم يأت «فريزر» شيئاً يكشف عن مكانه، فإن همسة واحدة من جهاز الراديو على سفينته تكفي لتدل «شارنهورست» على وجود قوة بريطانية أخرى في جنوبها. على أن الشكوك تبددت فجأة في منتصف الساعة الخامسة اذ قطعت «ديوك اوف يورك» صمتها اللاسلكي بأمر من «فريزر» الى «بيرنت» أن «أضيء مكان العدو بقنبلة منيرة» واذ ذاك أيقنوا أن «فريزر» كان على رمية منهم، وأن ضباط الملاحة على بارجته أحكموا التوجيه الى طريدتهم، وقد حسبوا حساباً دقيقاً لسرعة بارجتهم وسرعة تيارات البحر والرياح واستدلوا على مكان «شارنهورست» من بيانات «بيرنت» . .

لقد خيم الظلام. و«شارنهورست» على يسار «فريزر» والطراد بلفاست على ثمانية أميال يجدّ في أثرها. وانطلقت من أحد مدافع بلفاست قنبلة من نار بيضاء تعالت في الفضاء الأسود، وانفجرت عالية فأضاءت الظلمات بنورها الوهاج . .

في وسط ذلك الفيض من النور لاحت شارنهورست، ورأى المراقبون وضباط المدفعية في اسطول «فريزر» أجزاءها العليا بارزة للعيان مرتسمة على صفحة الأفق البعيد. وصبت خمسة مدافع من عيار ١٤ بوصة نيرانها في دوي

صـاخب منقطع النـظير، وقـذفت ثـلاثـة أطنـان ونصف طن من حمم الصلب والمواد المتفجرة على هدفها. وظلت القنابل تهدر في الجو عشرين ثانيـة ومرة في مسيرها المقوس فوق احدى المدمرات المرافقة للبارجة «ديوك اوف يورك» فسمعهـا من على المدمـرة كأنهـا قطارات سـريعـة تنهب الأرض نهباً. ووقعت القنابل قاب قوسين أو أدنى من شارنهورست، فاستطار الماء أعمدة ذهبت في الجو مئتي قدم وسجلت الطلقة التالية بعد نصف دقيقة اصابة مباشرة..

فأدار «باي» دارعتـه نحو اليسار، وانطلق بهـا الى الشرق مسـرعاً يبتغي الأمان في الظلام المخيم، فـاندفعت في أعقـابها البـارجة (ديـوك اوف يورك) وأصيبت شارنهورست مرة بعد مرة. بيد أن اصـابتها لم تكن من الخـطر بحيث تخفض سـرعتهـا من فـورهـا. وقبيــل منتصف السـاعــة السـابعــة كـانت «شارنهورست» خـارج مرمى المـدافع محـطمة مهشمـة تضطرم فيهـا النيران، ولكنها آمنة ـ الى حين ـ مدافع «ديوك اوف يورك»..

ولـم تكد مدافع «ديوك اوف يـورك» تسكت عن دمدمتهـا حتى التمع في الأفق البعيد ضوء نيران المدافع من جديد. كانت المدمرات الأربـع المرافقـة للبــارجـة «ديــوك اوف يـورك» قــد أدركت بسـرعتهــا المتفـوقــة البـارجــة «شارنهورست».

فهجمت اثنتـان من اليمين واثنتان من اليســار لتسد طـريق النجـاة على «بـاي» قبل فـوات الوقت. وأطلقت «شـارنهورست» نيـران مدافعهـا الثانـويـة عليهـا، فكان دفـاعها يستـوقف النظر. منهـا هي ذي شعلة من اللهب الأحمر البرتقالي الخارج من فوهـات مدافعهـا ومن هذه النـواة المتأهجـة ينطلق عـدد عـديد من خـطوط الرصـاص القصاص على أنـه من الصعب وقف مـدمـرات منـدفعة بسـرعة هـائلة. وكانت «شـارنهورست» الى ذلـك قد أصيبت اصـابات بالغة حيث لحقت بمـدافعها ونـظام مواصـلاتها أضـرار لا ريب فيها، فكـانت نيرانها غير محكمة، فلم تصب من المـدمرات المـطاردة إلا واحدة. وتـابعت المدمرات البريطانية هجومها، ومن على مسافة قريبة حيث سددت طـرابيدهـا

الى البارجة الالمانية ثم انثنت مبتعدة عنها بعد أن قربت ساعتها. .

أصاب «شارنهورست» عدد من الطرابيد اصابات مباشرة، لكنها ظلت عائمة على الرغم منها، وظلت مدافعها تصب ناراً قوية كانت تخطىء الهدف في أكثر الأحيان ولكن كان لها في النفس وقع مهيب. .

ونقصت سرعة «شارنهورست»، فدنت البارجة، «ديوك اوف يورك» الى المرمى مرة أخرى، وشرعت مدافعها من عيار ١٤ بوصة تدكها دكاً. وكذلك دنا الطراد «جاميكا» المرافق للبارجة «ديوك أوف يورك» الى مسافة قريبة جداً من «شارنهورست». وفي الوقت نفسه وصلت الى ساحة المعركة طرادات «بيرنت» الثلاثة وأربع مدمرات من المراكب الحارسة للقافلة. وفي الظلام الدامس أطبق على «شارنهورست» ما لا يقل عن ثماني مدمرات وأربعة طرادات وبارجة كبيرة. وحينئذ حان الوقت لليد العليا المدبرة أن تتولى الأمر، فصدرت أوامر «الأميرال فريزر» بلغة واضحة: «افسحوا ميدان الهدف إلا من سفن الطربيد ومدمرة واحدة بنور كشاف» فانحرفت جميع السفن ما عدا اثنتين ووجهت مدمرة أنوارها الكاشفة الى حطام «شارنهورست»، وكأنها رماح مشرعة من النور الأبيض الناصع تنفذ في الظلماء واقترب الطراد «جاميكا» للقضاء عليها. واستدار نحوها وقذف عدداً من الطرابيد دفعة واحدة، فانفجرت انفجاراً مريعاً حين أصابت الهدف.

وحين انقشع الدخان بدت «شارنهورست» آخر مرة مائلة على جنبها ولم تزل نيران ذخيرتها تندلع من جوفها، ثم أطبق عليها الدخان مرة أخرى وغابت في قرار اليمّ، على حين هرعت الطرادات البريطانية الى التقاط الناجين. على أن تلك النيران كانت قد أحرقت أكثر من ألف رجل. وهكذا ان أكبر الدارعات الالمانية خرجت محطمة. ومن الممكن أن يكون الفوهرر هتلر وحاشيته من النازيين، قد تأسفوا وحزنوا على دارعتهم ورجالها البحريين. إلا أنه من المؤكد لم يتأسفوا ولم يحزنوا مرة واحدة على ملايين الضحايا والجرحى والمفقودين والمشوهين الذين أحرقتهم نار حربهم العالمية الثانية.

وكان طبيعياً أن يكون مصيرهم كمصير رجالهم من الدارعة «شارنهورست».

وقليل جداً في هذا العالم من الذين اكتووا بنار هذه الحرب المدمرة، قد تأسف أو بكى على المصير الذي لاقاه النازيون والفاشيون بعد هزيمتهم النكراء. وما من ظالم الا سيبلى بأظلم. والتاريخ لا يرحم...

المرجع

١ ـ س. س. فورستر «كيف أغرقت البارجة «شارنهورست» الالمانية؟». ملخصة عن «سترداي ايفننج پوست». مجلة «المختار من ريدرز (م) دايجست». السنة الأولى. أوغسطس/آب ١٩٤٤. المجلد الثاني. العدد ١٢. ص ٢٢ ـ ٢٧.

بدعة الصهاينة ومحكمة نورمبرغ

كم هي بليغة فعلاً تلك الحكمة القائلة بأن «العفو عند المقدرة من شيم الكرام». لكن هذا القول لا ينطبق مطلقاً على اليهود التلموديين، أبالسة الجحيم، والأفاعي الرقطاء التي تنتهز أية فرصة ملائمة للغدر والانقضاض. فمنذ فجر التاريخ، وللحروب أعراف وتقاليد يحترمها المتقاتلون، ويعملون بمقتضاها، وإن كانت تتبدل من حين لآخر، ولكنها تظل أبداً ضمن نطاق المثل العليا، وتدور دائماً حول محور الشرف والرجولة. ولذا كان المفروض بالمنتصر الذي استعمل أثناء المعركة أشد أنواع البطش والوحشية، أن يعمد بعدها الى التعالي عن الصغائر ويتّصف بالحلم والشهامة، وأن يعف عن خصمه المغلوب ويرد عنه كل منكر. والتاريخ يحفل بالأحاديث الشيقة التي تروي لنا مدى ما كان عليه أبطال العصور الغابرة من النبل والرجولة، ومنها مواقف الفراعنة الكريمة من أعدائهم بعد النصر، اذ كانوا يعاملونهم أكرم معاملة، ويجلونهم عن الذل والمسكنة، تقديراً لما أظهروه من البطولات في المعركة. ومنها أيضاً مواقف أبطال الفرس واليونان والرومان على من تغلبوا عليهم. هذه المواقف التي كانت تبلغ حد إعادة الملك المغلوب الى عرشه، والقائد المهزوم الى قيادته. اذ كان المفهوم السائد آنذاك هو إكرام البطل الشجاع إن غالباً أو مغلوباً. أما ما يرويه التاريخ عن النبي محمد (ﷺ) في هذا المضمار فهو من أروع الأمثال في كل ما قيل وسيقال عن مواقف الشهامة والشرف، وخصوصاً مع اليهود الذين خانوا عهده مراراً، وكذلك مع عدوه أبي سفيان عند انتصاره على قريش، ما كان إلا ليذكرَ الناس بأن لا انتقام ولا تشفّي عند الاستسلام. أما صرخة عمر بن الخطاب التي أطلقها في وجه قواده

ليحدّ من غلوائهم، والتي قال لهم فيها: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟». هذه الصرخة ما زالت حتى اليوم تعتبر آية من الآيات في سجل التاريخ، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على ما كان عليه سادة العرب من الاحترام لحقوق الناس، والتقديس لكرامة الانسان، حتى وإن كانوا من أخصامهم في الأمس. وكذلك الحال مع البطل العربي الكبير صلاح الدين الأيوبي الذي أرسل الى عدوّه ريكاردوس الملقب بـ «قلب الأسد» طبيبه الخاص، لمعالجته بعد اصابته في الحملة الصليبية التي كان على رأسها ضد المسلمين في بلادالشرق. كما عامله معاملة نابعة من كرامة العرب وأخلاقهم، يعترف بها الأعداء قبل الأصدقاء.

هذه المواقف الرائعة التي يزخر بها التاريخ العربي، هي التي دفعت بكرام المؤرخين الى الاعتراف بأن التاريخ لم يشهد فاتحاً أعدل من العرب. وعلى العموم فإن كافة الأمم والشعوب التي بحث عنها التاريخ القديم، كانت تراعي نسبياً هذه التقاليد والأعراف وتعمل بموجبها، اللهم إلا اليهود الذين انفردوا بين شعوب الأرض في انكارها، واستنبطوا سنناً وشرائع خاصة بهم لم يشهد التاريخ لها مثيلاً من قبل. حتى أن مؤرخيهم يفاخرون بأنهم كانوا يدمرون المدن التي يحتلونها، ويعذبون كل من يقع في أسرهم، ويطبقون شريعة القتل العام على جميع السكان، وهي تعترف بأن اليهود احتلوا الجبال الفلسطينية بفضل تطبيقهم لهذه الأساليب الوحشية التي تستنكرها جميع شعوب الأرض. حتى أن القرون الوسطى وما أعقبها من الأزمان، صقلت نفوس الشعوب أكثر فأكثر، ودفعت بها الى إحداث قواعد وشروط تحدد العلاقات بين الغالب والمغلوب.

وفي العهود الأخيرة، أضيفت الى تلك الشروط اتفاقات جنيف الأربعة المشهورة، المحدّدة لحقوق الأسرى والمصابين. وأسوأ هذه المفاهيم ما كانت لتتعدى حدود فرض استعمار الغالب على المغلوب، وكل ذلك كان بغية ابقاء الشرائع الحربية ضمن نطاق المفاهيم المتجانسة مع تطور الحضارة

والثقافة الانسانية. . ولم يكن في تفاصيل هـذه الشروط الحـربية مـا يشير الى اباحة محاكمة قادة الجيوش المهزومة أو معـاقبة الأسـرى وإساءة معـاملتهم أو قتلهم أو التنكيل بهم. ولهذا رأينا بريطانيا تعامل نابوليون بعد انتصـارها عليـه وأسره في ساحة القتال، أكرم معاملة رغم كل ما أذاقهـا من الهزائم. كمـا أن الروس بعد انتصارهم على القائـد التركي عثمـان باشـا، الذي كبـدهم أعظم الخسائر، عـاملوه معاملة الأبـطال تقديـراً لشجاعتـه وصموده في وجههم أمـداً طويلاً. . .

وفي الحرب الكونية الأولى لم يقع ما يغاير هذه التقاليد العـريقة، رغم معاهدة فرساي التي فبركتها العقلية الصهيونية حتى جاءت بنصوصها وشروطها القاسية بحق الالمان. وعندما سئل تشرشل عن رأيه فيها أجـاب: «انها ليست معاهدة سلام، بل هـدنة مـدتها عشـرون عامـاً». وبعد عشـرين عامـاً بالضبط قامت الحرب العالمية الثانية؛ وقد كان العالم يظن خـلالها أن تقـاليد الشـرف والشهامة هي التي ستنظم الأمور بعد انتهائها. ولكن الناس فوجئوا قبيل انتهاء الحرب بجنوح أميركا الى سنّة القتل العـام وذلك عنـدما ألقت قنـابلها الـذرية على اليـابـان، وفتكت بعشرات الألاف من العـزل الأبـريـاء في غضـون ثـوانٍ معـدودات، بأمـر من الرئيس الاميـركي «هاري تـرومان» المـاسـوني وصـديق حاييم وايزمن. فهالهم الأمر، واستعظموا إقدام الأميركـان على هذه الجـريمة النكراء. وقبل أن ينتهوا من التفكير بها، اذا بهم يفاجـأون بأخـرى أشد هـولاً وأكثـر خـطراً على مستقبـل ومصيـر الانسـانيـة، ألا وهي جنـوح الحلفـاء الى محاكمة المغلوب كمجرم حرب، وظهرت للوجود ما أسماها الحلفاء بمحكمة نـورمبـرغ، وعلى أثـرهـا سمـع النـاس عن الـذين أطلق عليهم اسم مجـرمي الحـرب تأتي بهم هـذه المحكمة الغـريبة من نـوعها، ليمثلوا أمـامهـا مكبلين بالأصفاد لتقاضيهم على مسلكهم في جبهات القتال.

وإزاء هـذه البدعـة الجديـدة نؤكد بـأننـا لسنـا ضِـد محـاكمـة النـازيين والفاشيين الذين أغرقوا العالم في بحر من الدم والكوارث، ولكننا نتساءل عن

الأسباب التي دفعت بالحلفاء الى تبني هذه البدعة ومن استنبطها، وعن الظروف التي جعلتها شريعة يؤخذ بها بين عشية وضحاها؟.

وما هو سر هذه المحكمة المسماة «محكمة نورمبرغ»؟.

يقول المؤرخ التركي المعاصر الجنرال «اتيلهان» في هذا الصدد: «يخطىء من يظن أن الحلفاء أوجدوا محكمة نورمبرغ أو فكروا في ايجادها، أو أن هذه المحكمة وجدت فعلاً لمحاكمة من خرجوا على التقاليد والأعراف والقوانين الحربية، لأن الحلفاء لم يكن لهم مع الالمان أي حساب سوى حساب الغالب مع المغلوب. ولم يكن بين القادة من يمكن اعتباره خارجاً على القوانين والتقاليد أثناء حربه مع الحلفاء. ولكن محكمة نورمبرغ كانت من جملة الأهداف التي حدّدها مؤتمر بال الصهيوني عام ١٨٩٧، وسعى أعضاؤه وحلفاؤهم أكثر من نصف قرن لبلوغها من أجل اقامة الدولة اليهودية العالمية»...

لقد كانت محكمة نورمبرغ، المؤسسة التي عهد اليها بتصفية المقاومة الالمانية، والعقبة الثالثة في طريق أهداف اليهود بعد الدولة العثمانية وروسيا الأرثوذكسية. ولكي تكون محكمة نورمبرغ جاهزة ومحققة لأغراض ايجادها، كلّف بوضع مخططاتها اليهودي «صامويل روزنمان» الذي كان يشغل وظيفة المستشار القانوني للرئيس روزفلت، فخط لها المنهاج، وانتقى لها القضاة والمنفذين، وكانوا جميعاً حتى الجلاد من اليهود الموثوقين من قبل الرئيس روزفلت بالذات. فلما انهارت المانيا بعد أن تورطت في حربها مع الروس، سارع اليهود، الى اقامة محكمتهم التي كانوا قد اشترطوا اقامتها ضمن الشروط التي انبثقت عن مؤتمر يالطا.

ولقد كتب عن هذه المحكمة كثير من الكتاب في البلاد الغربية، وأجمعوا على أن كافة أعضائها كانوا من اليهود الصهاينة. وقال الكاتب «موريس بارديش» في كتابه المسمى «محاكمات نورمبرغ» بأن رئيسها المدعو «روبير جاكسون» كان مزوداً من قبل «روزنمان» بأسماء من يجب عليه

محاكمتهم، وبمدد ونوع العقوبات التي كان عليه أن يفرضها بحق كل منهم. و«روزنمان» هو الذي عينه لرئاسة هذه المحكمة لعلمه الأكيد بحب جاكسون لليهود، باعتباره ابن أشهر مدافع عن اليهود في أميركا. وعين له كمستشار حقوقي اليهودي «شولدن كلوك» الذي اشتهر بعداوته للألمان. واختار لهما الماسوني «والش» كمساعد في أمور التحقيق. ولقد اشتهر هذا الأخير بثرائه الفاحش بعد عودته من المانيا. واختير الكولونيل اليهودي «اندروز» رئيساً للهيئة التنفيذية، وهو بدوره اختار جميع مساعديه من بين اليهود. كما أن الأطباء الذين عينوا لمساعدة الدائرة القضائية أمثال الدكتور «دوغلاس مردخاي كيلي» و«غولد نسوهن» و«كاتز» كانوا جميعاً من اليهود الحاقدين على كل الماني في الوجود. وهكذا أصبح مصير قادة الالمان، بل مصير المانيا بأسرها بين أيدي هؤلاء اليهود. ولما كان غرضهم الحقيقي هو الثأر والاذلال وليس التحقيق أو اقامة العدالة فقد أذاقوا القادة الالمان كل أنواع العذاب. حتى أن أكثر المعتقلين كانوا ينتظرون ساعة الموت بلهفة ليتخلصوا مما كانوا يتعرضون له من الظلم والمهانة على أيدي جلاديهم من اليهود. ولقد روى «جوليوس ستريش» الزعيم الالماني المعروف قصة اعتقاله وتفاصيل معاملته في السجن فقال: عندما أعتقلت في ٢٦ ابريل ١٩٤٦ وزججت في السجن، جرّدني اليهود من كافة ثيابي، وظللت أربعة أيام عارياً تماماً، وعندما كنت أروم النوم كان ينهال علي اليهود ضرباً بالسياط ليمنعوني من الراحة. وإمعاناً في الاهانة كانوا يرغمونني على تقبيل أقدام خدمهم من الزنوج، ويقطعون الماء عني، فلما أعطش وأطلب ماء يأتون لي بكأس مليئة بصاقاً ويقدمونها اليّ، فكان من البديهي أن تمج نفسي هذا الشراب وأرفضه، فينهالون علي ضرباً وركلاً؛ ومن ثم يفتحون فمي بقطعة من الحديد ويقذفون بمحتويات الكأس في فمي. وكم من مرة قدموا لي البول بدلاً عن الماء، فلما كنت أرفض عطاءهم، كانوا يقذفونه في وجهي ويقولون لي أنني لا أستحق شراباً خيراً منه. ولما قرروا إعدامه سيق الى باحة السجن ورفعَ الى منصة الاعدام حيث لف الجلاد اليهودي «وودز» الحبل حول عنقه. وعند ذلك رفع جوليوس قامته

الجبـارة، واتجه نحـو المتفرجين وصـاح بصوتـه الجهوري الـذي هزّ جنبـات السجن قـائلاً: «انـظروا كيف ينتقم قضاء نـورمبرغ (المثلث اليهـودي) مني، وكيف يطبقون تعاليم التلمود. إن حقدهـم الأسوأ هو الذي يدفعهم لقتلي دون حق. فلتكن مشيئـة السمـاء، وكـل مـا أرجـوه هـو أن يحفظ الله المـانيـا من كيدهم». ولكن الجلاد اليهودي لم يترك له فرصة لإكمال حديثه فقذف به في الفراغ.

ومن أغرب الجرائم التي ارتكبها اليهود في المانيا هي اعدامهم الجنرال «دوستلر» في ساحة القتـال بعد أسره، بحجة أنـه عذب بعض اليهـود في أحد المعتقلات عام ١٩٤٣. والمـاريشال «كيتـل» القائـد الأعلى للجيش الالماني تعرض أيضاً لأبشـع أنواع العـذاب في سجنه، حتى أن اليهـود كانـوا يأمـرون الزنوج بضربه ورميه بالأقذار. ولقد شجّ رأسه عـدة مرات قبـل أن يعدم، ولم ينقـذه من براثنهم إلا هـذه الخاتمـة المفجعة. وأعمـال الضرب والاهـانة في سجن نورمبرغ كـانت أكثر من أن تحصى. حتى ان الكتـاب يعتبرونهـا احدى التقاليد اليومية التي كانت سائدة في معتقلات نورمبرغ.

أمـا معاملة الأسـرى الالمـان فلم تكن أحسن من معـاملة من أسمـوهم بمجـرمي الحـرب. وفي هـذا الصـدد يـروي لنـا المخبـر الصحفي الحـربي البريطاني «ليونار موسلي» الحادثة التالية، فيقول: . . . «عندما كنت في شهـر ابريـل ١٩٤٥ في مـدينـة بلسن طلبت زيـارة معتقـلات الأسـرى من جنـود الصـاعقة (S. S.). وكـانت هذه المعتقـلات تخضـع لقيـادة الضبـاط اليهـود. وسمـح لي بذلـك، وصدف أن مـات في ذلك اليـوم المشؤوم بعض الأسـرى على أثـر التعذيب الـوحشي الذي تعـرضوا لـه من قبل ضبـاط اليهود. فـأمـر الضباط الأسرى من رفاقهم الأحياء بـأن ينقلوهـم الى حيث يوارون بـالجملة، ودعيت لمشاهدة هذا التسخير المفجع. وكان الجنود قد أمـروا بأن ينقلوا كـل جثتين معاً. ولما كان هؤلاء التعساء منهـوكي القوى من أثـر الجوع والتعـذيب وغيـر قـادرين على حمـل جثتين معاً، فقـد عمـدوا الى حمـل الجثث على

ظهورهم، ورغم كل ذلك كانت بعض الجثث تفلت من أيديهم وتقع على الأرض... عندها كان اليهود ينهالون عليهم بالسياط والقضبان الحديدية ضرباً ولكزاً، وأحياناً يطعنونهم بالحراب، ولقد قتل كثير من هؤلاء الأسرى من جراء هذه المعاملة وأصيب أكثرهم بعاهات مستديمة.

هكذا يبدو بأن اليهود كانوا قد صمموا على إذلال الشعب الالماني منذ أمدٍ بعيد، ولما حانت الفرصة راحوا يتفنّنون في أعمال التعذيب والافناء تحت ظل محكمة أضفوا عليها الشرعية بفضل مؤازرة الرئيس روزفلت لهم. أما الأغراض البعيدة المدى التي توخّوا تحقيقها من بدعة محاكمة القواد والحكام فهي أخطر بكثير من كل ما يخطر على بال. وتتلخص هذه الأغراض بأن اليهود أرادوا أولاً إرهاب القادة العسكريين في المستقبل حتى لا يعمدوا الى مناوأة مخططاتهم الرامية الى استعباد الشعوب، خصوصاً وهم على ابواب الاعلان عن تأسيس دولتهم في فلسطين المحتلة، ولكي يسهل عليهم ثانياً شراء القادة وإخضاعهم لمآربهم، باعتبار أن القادة سوف يفكرون مراراً قبل أن يقدموا على القتال الذي يعني الموت المؤكد في حالة الانهزام.

وفيما يتعلق بالبحث عن محاكمات نورمبرغ، فقد كتب المؤرخ البرتغالي «جواس داس راغراس» يقول: «وإن كانت الحيثيات التي اعتمدتها محكمة نورمبرغ في إصدار أحكامها هي من الأمور المستحيلة على الفهم والادراك، إلا أن الأسباب والأغراض التي تكمن خلف أحكامها ليست من الغموض بالقدر الذي يظنه بعض النقاد. ويقيناً أنها جدّ واضحة، وهي لا تخرج عن كون العالم الغربي المسمى بالديمقراطي المتحضر، والمتخوم بالثروات الطائلة والمسيّر من قبل أخسّ أنواع البشر، لم يعد يحتمل أن يرى نصب عينيه وجود الدولة الالمانية الشامخة التي تمردت على سادة الغرب طويلاً، وسارت في دروب العلم والحضارة، رافعة الرأس عالية الجبين، ولا تنظر الى مخازي الغرب إلا بكل ازدراء. ولذا انقضَ عليها الغرب المهوّد بكل ما لديه من امكانيات مادية، ومع كل ما يجيش في صدور سادته من

الحقد والتعطش للدماء، ولما قيّض القدر الغاشم له النصر عليها، ضرب بكل المفاهيم والمثل عرض الحائط، وراح يلوغ في الدماء الالمانية بكل لذة وتشفي. ويعدم قادتها ويقتل الظفر الحقيقي في هذا الصراع المحزن».

وهكذا قضى اليهود على العقبة الثالثة، ومن ثم فرضوا على العالم إرادتهم وأسسوا نواة دولتهم عام ١٩٤٨ التي يأملون الانطلاق منها الى ما تبقى لهم من الأهداف التي أقرت في مؤتمر بال ١٨٩٧ .

المراجع

١ ـ س. نـاجي «المفسدون في الأرض» منشـورات العربي لـلإعلان والنشـر والطباعة. دمشق. الطبعة الثانية ١٩٧٣. ص ٣٩١ ـ ٤٠٤.

٢ ـ وليم كار «اليهود وراء كـل جريمـة» تعليق خيرالله الـطلفاح. دار الكتـاب العربي. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٢. ص ٢٠٠.

٣ ـ أتيلهـان «الاسلام وبني اسـرائيل» ص ٢٠٢ و٢٧٩ و٢٨٣ و٢٨٦ و٣٨٠ ـ ٣٨١.



اينشتاين بين العبقرية واللصوصية

حفل تاريخ البشرية بأسماء الكثيرين من العلماء والمخترعين الذين قدموا للإنسانية الخدمات الجلّى في مختلف الميادين. وعندما كان هدف العلم يتمحور حول خدمة الانسان وتطوير المجتمع، فقد كان لكل مخترع وعالم دوره وأهميته في هذه الحياة. ورغم ذلك لم يَحْظَ عالم على طول تاريخ البشرية بما حظي به «ألبرت اينشتاين» من دعاية في أجهزة الإعلام الجماهيرية من صحافة وإذاعة وتلفزيون. ولم تحدث محاولة من قبل هذه الأجهزة لكي تبيع للناس رجلاً من العلماء كما حدث في حالة اينشتاين.

فمن هو ألبرت اينشتاين؟ وما هي أسرار شهرته المميزة؟.

تضاربت الآراء في الواقع حول شخصية اينشتاين. فمنهم من رشقه بتهمة مجرم حرب كالعالم الالماني «البرخت انسولد» الذي قال بأن اينشتاين ارتكب جرائم لا تقل خطورة عن تلك التي قام بها هتلر، وكان عليه أن يدرك أن رسالته المشهورة الى الرئيس الامريكي روزفلت في العام ١٩٣٩ التي أكدت امكان التطبيق العملي للتفجير الذري كانت ستقود الى تدمير هيروشيما وناغازاكي. وكانت هذه الرسالة قد وصلت الى روزفلت عن طريق مستشاره الاقتصادي «ألكسندر ساكس» الذي كان صديقاً حميماً لأينشتاين.

ومنهم من وصفه بالعبقري الفذ وحاك حول هذه العبقرية الكثير من الخرافات والأساطير، كما هو حال الدعاية الصهيونية والغربية. ومنهم من رماه بتهمة «اللصوصية» حسب رأي المؤرخ التركي الجنرال اتيلهان. ويبقى السؤال الكبير من هو اينشتاين؟ وكيف تربع على هذا العرش الضخم من المجد والشهرة؟.

ولد اينشتاين في ١٤ مارس سنة ١٨٧٩ في مدينة اولم بألمانيا من أبوين يهوديين. وبعد سنة من مولده أفلست تجارة أبيه فانتقلت العائلة الى مدينة ميونيخ حيث أسس والده وعمه ورشة للأعمال الكهربائية الكيميائية. ولقد أدخله والده هو وشقيقته مدرسة ابتدائية كاثوليكية في ميونيخ. وفي هذه المدرسة كان الأطفال الآخرون يعيرونه بديانته اليهودية. وكان لهذه المشاكسات الصبيانية الفضل في أن ينشأ اينشتاين متمسكاً بعنف بتراثه الديني وثقافته اليهودية.

لم يكن اينشتاين محبوباً من أساتذته. وكان كثير الجدل والمخالفة. ولم يكن يخفي نفوره من مدرّسيه، الى درجة أن مدرّس اللغة اليونانية استدعاه مرة وطلب منه أن يغادر المدرسة فوراً قائلاً له: انك لن تكون شيئاً في هذه الحياة.

كان اينشتاين سعيداً جداً بوجوده في سويسرا مقارناً بين الديمقراطية السويسرية وبين العسكرية الالمانية حيث بلغ عداؤه لأسلوب الحياة الالمانية الى درجة تخليه عن جنسيته الالمانية عام ١٨٩٦. وظل خمس سنوات بلا جنسية حتى حصل على الجنسية السويسرية عام ١٩٠١ وظل محتفظاً بها طول حياته.

استطاع اينشتاين الدخول الى المدرسة العليا للتكنيك في زيورخ عام ١٨٩٦ حيث قضى فيها أربع سنوات نجح بعدها بمساعدة زميله «مارسيل غروسمان»، وهو نفس الشخص الذي ساعده رياضياً على صياغة النسبية العامة بعد ذلك بسنوات، والذي كان يحتفظ بمذكرات ممتازة عن محاضرات الأساتذة التي تغيب اينشتاين عن أكثرها.

تولّع اينشتاين بالفيزياء النظرية. وفي عام ١٩٠١ كتب أول بحث فيزيائي له، واستطاع نشره في مجلة علمية سويسرية مرموقة وهي مجلة «حوليات الفيزياء».

وحاول اينشتاين أن يستفيد من هذا البحث في ايجاد عمل جامعي له. فأرسل منه نسخاً الى كثير من العلماء، ولكن أحداً لم يهتم بالبحث ولا بصاحبه. ثم توسط له والد صديقه وزميله مارسيل غروسمان لدى مدير إدارة براءة الاختراع في برن حيث عين عام ١٩٠٢ موظفاً في الإدارة. وفي هذه الإدارة التي كان العمل فيها محدوداً جداً اختمرت عبقرية اينشتاين الفيزيائية في السنوات السبع التي قضاها هناك وهي بالتأكيد أخصب سنوات حياته في الفيزياء النظرية. وفي عام ١٩٠٤ كان اينشتاين قد نشر أربعة أبحاث في نفس المجلة العلمية السويسرية المرموقة. ومع أهمية هذه الأبحاث إلا أنها لم تكن غير مقدمة لعبقريته التي انفجرت مرة واحدة عام ١٩٠٥.

ان عام ١٩٠٥ يعتبر عاماً أساسياً في تاريخ علم الفيزياء النظري، حيث نشر فيه اينشتاين بحثاً بعنوان حول «كهروديناميكية الأجسام المتحركة». كان أول عرض جاد لما يعرف اليوم باسم «نظرية النسبية الخاصة». ورغم أن البحث لم يزد عن تسعة آلاف كلمة، إلا أن اينشتاين رمى فيه جانباً كل الأفكار النيوتونية السائدة عن الزمان والمكان بشكل بدا وكأنه اهانة للذوق العام.

حتى ذلك الوقت كان السائد هو ما أكده نيوتن في البرنسيبيا، من أن الزمان مطلق والمكان مطلق أيضاً. وكان هذان المبدآن مقبولين من جمهرة العلماء. ولقد قدم اينشتاين افتراضين أساسيين هما جوهر نظرية النسبية الخاصة: أولهما ينص على أنه لا توجد تجربة من أي نوع قادرة على اكتشاف السكون المطلق أو الحركة المطلقة المنتظمة في خط مستقيم، وهذا ما سماه بمبدأ النسبية بالمعنى الضيق. وثانيهما ينص على أن الضوء يتحرك في الفضاء الفارغ في خطوط مستقيمة وبسرعة ثابتة.

والغريب أن في ثورة اينشتاين هذه على مفهومي الزمان والمكان لم يستخدم غير معادلات كانت موجودة قبله وتعرف باسم معادلات لورنتز. وفي عام ١٩٠٧ أكمل اينشتاين ثورته في علم الفيزياء بنشر بحثه الذي أثبت فيه أن

الكتلة والطاقة متكافئتان. وفي هذا البحث قدم معادلته المشهورة:

الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء

وكانت هذه المعادلة هي أول تفسير جدي لظاهرة الأجسام المشعة ذرياً، والتي تستمر سنوات طويلة في إشعاعها. وقد وجدت هذه المعادلة تأكيدها الفاجع لأول مرة في قنبلتي هيروشيما وناغازاكي في اليابان عام ١٩٤٥.

ولقد وقف معظم المشاهير من علماء الفيزياء موقفاً متردداً مدة طويلة إزاء ثورة اينشتاين هذه. وينطبق هذا على وجه الخصوص على «لورنتز» صاحب المعادلات التي استخدمها اينشتاين لإثبات وجهة نظره. كما ينطبق على «بوانكاريه» الذي كانت أبحاثه على بعد خطوة واحدة من الوصول الى النظرية النسبية الخاصة. ولكن العالم الالماني الكبير «ماكس بلانك» كان ايجابياً في موقفه منذ نشر اينشتاين بحثه الشهير عام ١٩٠٥. اذ أن «ماكس بلانك» هذا يمتدحه «انسولد» بكثير من الثناء كعالم فاضل حقاً. حتى أن اينشتاين قال عنه اذا هبط ملاك الرب وجال منازل هيكل العلم فإنه سيطرد أكثر العلماء ويبقي الحبيب بلانك، وكان بلانك رئيساً لدائرة الفيزياء في جامعة برلين بعد وفاة استاذه كيرتشوف أحد عباقرة الفيزياء الكهربائية. وبقي في برلين حتى عام ١٩٢٨.

انشغل بلانك في عام ١٨٩٧ بدراسة سريان موجات الطاقة المنبعثة من أجسام ساخنة. وكان الرأي السائد أن الطاقة تسري كنهر غير منقطع. لكن بلانك لم يقتنع بالمبدأ الذي فشل في تفسير ظواهر كثيرة. فقال بأن الطاقة تنطلق بالتواتر. أي أن الاشعاع المنطلق من جسم ساخن يتم على دفعات مثل قفزات الضفدع. كل انطلاق أو قفزة منفصلة عن أختها. وابتدع معادلة تبين العلاقة بين القفزة الحرارية أو الضوئية والموجة، وأدخل رقماً لا يتغير في المعادلة يعرف اليوم باسم «الرقم الكوني الثابت لبلانك»، سرعان ما فسرت هذه النظرية أموراً كثيرة ومهمة، وأصبحت معادلته ركناً في كل العلوم

الطبيعيـة . . . نـادى بالنظريـة فـي ١٤ ديسمبر سنة ١٩٠٠ ومنح جائزة نـوبل عـام ١٩١٨ . كان اينشتـاين أول المتحمسين للنظريـة وتبناهـا لتطويـر قوانينـه المعروفة في عالم الطاقة والموجات الضوئية .

وأخيراً عين اينشتاين استـاذاً مساعـداً للفيزيـاء بجامعـة زيورخ في مايو ١٩٠٩ بعـد أن استقال من إدارة بـراءة الاختراع في بـرن . ومنذ ذلـك الوقت انهـالت العروض الجـامعية على اينشتـاين ، وتبارت الجـامعات في عـروضها المغرية لكي يقبل الذهاب اليها . وقد قبل العـرض المغري الـذي تقدمت بـه بـرلين بواسـطة «ماكس بـلانك» نفســه من أجل عضـوية الأكـاديمية البـروسية للعلوم ، ووظيفة مدير معهد القيصر ويلهلم للبحوث ، وحرية كـاملة في البحث أو التدريس حسب رغبته ، مع حقه في الاحتفاظ بجنسيته السويسرية اذا شاء . ومع أن اينشتاين كان يكره العسكرية الالمانية إلا أن اغـراء العرض كـان قويـاً جـداً بحيث لم يستـطع رفضـه . وهكـذا عـاد اينشتـاين الى بـرلين في ابريـل ١٩١٤ . لكن نشـوب الحرب العـالمية الأولى أعـاد قلق اينشتاين بـالعسكريـة الالمانية بعد اعلانها الحرب على روسيا في آب/أغسطس ١٩١٤ .

وفي عام ١٩١٦ بلغ قمة مجده العلمي بنشر بحثـه الأساسي في نـظرية النسبية العامة . وتألق نجمه في ٢٩/ ٥/ ١٩١٩ عندما أثبت الفلكي البـريطاني الكبير آد نجتون (الاستاذ بجامعة كامبردج) صحة هذه النظرية .

وفي عام ١٩٢١ تحول اينشتـاين الى العقيدة الصهيـونية ووافق على أن يشترك مع وايـزمان (أول رئيس لـدولة اسـرائيل) في رحلة الى أميـركا لجمـع التبرعات للحركة الصهيونية . وزار فلسطين بعد ذلك حيث حاضر في الجامعة العبرية هناك . وفي هذا العام بالتحديد منح اينشتاين جائزة نوبل للسلام .

وعندما أصبح هتلر مستشاراً لألمانيا عام ١٩٣٣ كان اينشتاين في أميركا يقضي اجازة هناك ، فقدم استقالته من عضوية الأكاديمية البروسيـة وذهب الى بلجيكا حيث استقبله ملك بلجيكا . ثم قضى صيف ١٩٣٣ في بريطانيا حيث قابل ونستون تشرشـل . ثم عاد الى أمـريكا في أواخـر ١٩٣٣ وعيّن استاذاً في

جامعة برنستون وبقي فيها كل حياته.

والواقع أن الحماقة ليست مستحيلة حتى على العلماء النوابغ. فقد كان اينشتاين غير صهيوني في بادىء الأمر ثم تحول الى هذه العقيدة العنصرية بحجة مناهضة حركة عنصرية أخرى هي النازية الالمانية. ولقد قدم اينشتاين نفسه كداعية للسلام وضد الحرب أياً كان سببها. ولكنه غيّر رأيه عام ١٩٣٣ عندما وصلت النازية الى الحكم، حيث دعا الى الحرب ضد النازية. وبعد الحرب العالمية الثانية كان اينشتاين واحداً من دعاة الحكومة العالمية الصهيونية. وعلى الرغم من المذابح التي ارتكبها الصهيونيون ضد المدنيين من الشعب الفلسطيني في دير ياسين وغيرها لم يرتفع صوت اينشتاين احتجاجاً على هذه الجرائم، وكأن الجرائم ضد الأوروبيين شيء وضد شعوب العالم الثالث شيء آخر. وفي عام ١٩٥٥ كتب اينشتاين الى صديق له يقول: لقد بدأت أنظر للموت كدين قديم واجب السداد. وفي ١٨ ابريل ١٩٥٦ مات اينشتاين وأعلنت اسرائيل بعد وفاته أنه كان يعد بياناً لإذاعته بمناسبة الذكرى الثامنة لتأسيسها.

وبالنظر الى النشاط السياسي الواسع الذي تمتعت به جمعية القابالو الصهيونية في أمريكا، فقد بلغ حد إصدار النشرات التوجيهية الدورية وتوزيعها سراً على اليهود بغية تشجيعهم على التمسك بقوميتهم وحضّهم على متابعة النضال. ومن بين هذه النشرات يذكر المؤرخ اتيلهان واحدة منها في كتابه «الاسلام وبني اسرائيل» قائلاً بأنه تلقى عدداً منها من بعض أصدقائه الاميركيين المخلصين لبلادهم. وقد جاء في هذه النشرة مايلي: ثقوا أيها الاخوة (اليهود) اننا خطونا في تحقيق مناهجنا خطوات واسعة خاصة بعد أن فزنا بثقة الكفرة (يعني غير اليهود) في الميادين العلمية بفضل العلماء والعباقرة أمثال «سيغموند فرويد» و«ألبرت اينشتاين» و«جونا سالك» الذين أوجدناهم. وهم اليوم يعتبرون من قبل الأجيال الصاعدة آلهة العبقرية والعلم لأنها تجهل حقيقتهم. أما نحن فنعرف كيف ولماذا أوجدناهم، لأننا قدرنا أن بإمكانهم

التأثير عن طريق العلم على معتقدات الشعوب وإضعافها.

ويعلق المؤرخ اتيلهان على هذا التعميم اليهودي فيقول: ان ما جاء في هذه النشرة عن مقدرة اليهود في رفع شأن من يرضون عنهم عن طريق الدعاية له بواسطة ما يمتلكونه من وسائل الاعلان والأعلام، فنحن نقر بكل أسف بقدرتهم هذه، لأننا نعلم الكثير عن الأساليب التي اعتمدوها لإيصال بعض رجالاتهم كأينشتاين وسواه الى قمة المجد والشهرة. مع أن أبطالهم كانوا يفتقرون لكل المقومات اللازمة لبلوغ تلك الشهرة. فمثلا نعرف أن اينشتاين لم يكن في عام ١٩٠٥ سوى مسجلاً للإختراعات الحديثة في الدائرة الفنية في سويسرا، وكانت مهمته تنحصر في قيد وتسجيل ما يرده من الاختراعات أو النظريات العلمية الحديثة ومقارنتها بسابقاتها، حتى لا يكون هناك إزدواج في الاختراعات أو النظريات الحديثة، وحتى لا تتورط الدولة في منح إجازات أو براءات مكررة. ومهنته هذه كفلت له الاطلاع على كل النظريات العلمية التي أوجدت في تلك العهود. ولما كان ذا إلمام كافٍ في العلوم الرياضية، بادر الى الاستفادة مما كان يرده من المعلومات الجديدة وعمد الى المقارنة والتدقيق ومن ثم حوّر بعض النظريات بصورة جزئية وزعم أنه واضعها أو موجدها. ومن جملتها نظرية التحوّل التي سبق للعالم «لورنتز» أن أوجدها. فما كان من اينشتاين إلا أن حوّر طريقة حلها الى طريقة «غاليله» وادّعى ملكيتها، ، وبنى عليها نظريته الخاصة النسبية، التي اشتهر بها. مع أن التباين في طريقة الحل لا يعتبر خطأ في معالجة المسائل العلمية طالما كانت القواعد والنتائج واحدة. ولقد قيل أن اينشتاين ساهم في الأبحاث الذوية، مع أن مساهمته في هذا المضمار لم تتعدّ حدود التعمق في النظريات التي أوجدها سواه، وخاصة ما وضعه العالم الالماني «اوتو هاهن» و«ماكس بلانك» الذي اكتشف تكوين المادة وحدد جزئيات الذرة وأثبت نوعية الاشعاعات وطريقة انتشارها منذ عام ١٩٠٠. وهذه المعلومات كانت في متناول يد اينشتاين بحكم عمله، وهي التي هيأت له ظروف التعمق في دراساته العلمية. فاستثمرها لحسابه الخاص ونسبها لنفسه، مع أنها كانت أصلاً مما وجده العالم بلانك.

وفيما يتعلق بالنظريات العلمية التي وجدت في القرن العشرين، نشر العالم الذائع الصيت «لوي دو بروغلي» جدولاً يتضمن أسماء أصحاب النظريات العلمية، قال فيه أن «ماكس بلانك» هو الذي أوجد نظرية الطاقة وانتشار المادة السوداء عام ١٩٠١، وأن اينشتاين وجد نظرية النسبية عام ١٩٠٥ المنبثقة من نظريتيَ لورنتز وغاليله، والعالم روت هيرفور أوجد نظرية الدائرة أو الدورة الذرية السيازة عام ١٩١٠، ومن ثم أوجد نظرية القدرة الاشعاعية الاصطناعية عام ١٩١٩.

ويثابر اتيلهان في تعداد النظريات العلمية التي أوجدت في مستهل هذا القرن، ويؤكد اعتداء اينشتاين على حقوق أصحابها وسرقتها منهم ونسبتها لنفسه. وراحت أجهزة الدعاية الصهيونية تهلل له ولما سرقه من النظريات العلمية حتى توهم الناس أنه رب العلوم الحديثة وسيد عباقرة الأرض. بينما هو ليس إلا لصاً عاديا جعلت منه الأبواق اليهودية ما هو عليه من الشهرة والمجد.

بعد كل هذا لابد من القول بأن من يغتصب الأوطان ويشرد الشعوب ويقيم دولة عنصرية على جبال من الجثث والجماجم والدم مدعياً بأنه «شعب الله المختار» لا يستغرب عندها أن يخلق من اللصوص عباقرة، ويحول الباطل حقاً، وهم ليسوا في النهاية سوى مجموعة لا تتقن إلا فن اللصوصية القائم على الدم والمجازر.

ولكن الظلم الى زوال... ولكل ظالم نهاية.

المراجع

١ ـ سمير شيخاني «مع الخالدين». دار السمير للطباعة والنشر. مطبعة جوزف صيقلي. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٢. ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

٢ ـ د. ابراهيم الدر «عالم الماني كبير يقول: اينشتاين مجرم حرب». مجلة «الجيل» (القبرصية). العدد الأول. المجلد الرابع. كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٨٣. ص ١٨ ـ ٢٣.

٣ ـ ألان اسحق وڤاليري ييت «الفيزياء». ترجمة د. محمد دبس. معهد الانماء العربي. بيروت ١٩٨٠. ص ١٤٨ ـ ١٥٠.

٤ ـ عبد العظيم أنيس «ألبرت اينشتاين هذا العبقري الصهيوني». مجلة «العربي» (الكويتية). العدد ٢٥٠. أيلول/سبتمبر ١٩٧٩. ص ٢٣ ـ ٢٩.

٥ ـ د. عبد العظيم أنيس «روبرت أوبنهايمر من انتاج القنبلة الذرية الى محكمة مجلس الشيوخ». مجلة «العربي» (الكويتية). العدد ٢٤٥. نيسان/ابريل ١٩٧٩. ص ٣١.

٦ ـ س. ناجي «المفسدون في الأرض» منشورات العربي للإعلان والنشر والطباعة. دمشق. الطبعة الثانية ١٩٧٣. ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦ و٣٥٠ ـ ٣٥٢.

٧ ـ اتيلهان «الاسلام وبني اسرائيل». ص ١٢٥ ـ ١٢٧ و١٣٠ ـ ١٣١.



الكبرياء الألماني ووثيقة الاستسلام

عرفت البشرية منذ أزمانها الأولى كثيراً من الفظائع والأهوال. بيد أن النصف الأول من القرن العشرين، شهد ما يمكن تسميته في قاموس البشرية بأرقى أنواع الإبادة لبني الانسان والمتمثل بالنازية والفاشية، التي ترتكز على نفي العقلانية والانسانية وتتسم بالكراهية للعقل البشري وعبادة الغرائز الحيوانية.

من هذا المنطلق، كانت «الوصية» الالمانية التي تعبر عن مفهوم كامل حملته الفاشية في مسيرتها لإخضاع العالم، تلك «الوصية» التي تبتدىء بها مفكرة كل جندي في الجيش الالماني، وتقول: «سوف نرغم العالم أجمع على الركوع. أنت الماني، ومثلما يليق بالالماني عليك أن تبيد كل حي يقاومك في طريقك»...

لكن هذه العقلية الاجرامية لم تدم طويلاً، حيث سحقت في نهاية الحرب العالمية الثانية، بعد «أن تمكن الجيش الروسي بالذات من تمزيق إمعاء ماكنة الحرب الالمانية» على حد تعبير ونستون تشرشل.

وهكذا تصور احدى الأغاني السوفياتية الشهيرة عظمة الانتصار على النازية والفاشية، وتقول: «يتركنا المنتصرون وهم عجائز ولكن النصر يبقى شاباً». ويبقى الانتصار على الفاشية في ذاكرتنا شاباً لأنه جدّد العالم وغير خارطته السياسية فعلاً بعد أن وقع النازيون وثيقة الاستسلام دون قيد أو شرط ليلة التاسع من أيار/مايو سنة ١٩٤٥.

كيف كان ذلك؟ وما هي أسرار هذا الاستسلام اللا مشروط؟.

في نهاية شهر نيسان/ابريل من عام ١٩٤٥. تسلم الأميرال الالماني «دونيتز» قيادة المانيا الشمالية بعد أن نقل مقر قيادته من «برنو» الى «بلون»، وقد كان يساعده المارشال «بوخ» كقائد للقوات البرية.

تلقى من الأنباء ما أذهله وجعله يشعر بأن مسؤوليات مفجعة قد أخذت تثقل منكبيه... كانت أولى المفاجآت وأقلها خطورة هي خلع «غورنغ». أما الثانية فكانت برقية صادرة عن «مارتن بورمان» تفضح خيانة «هملر» ومفاوضاته السرية. وقد لخص فيها «بورمان» النتيجة التالية: «يعتقد الفوهرر هتلر انك ستقتص من الخونة جميعهم في الحال ومن غير هوادة».

لم يكن «دونيتز» رجلاً سياسياً. كان قد انزلق تحت تأثير هتلر المفسد، إلا أنه لا يحب «بورمان» ولا «غوبلز» ولا «هملر». ومع هذا فقد تردد، وبدل أن يضرب هذا الأخير «في الحال ومن غير هوادة»، طلب أن يقابل المتهم (هملر)، وقبل الموعد الذي ضرب له في ثكنة قوات الصاعقة في «لوبيك»، خرج من الثكنة تسليماً معافى فتنفس مساعدوه الصعداء. عاد «هملر» فأعرب عن إخلاصه غير المشروط للفوهرر، وأكد أنه ضحية لمؤامرة. وصلت الى «بلون» برقية أخرى مذيلة بتوقيع «بورمان»، تخبر «دونيتز» بأن الفوهرر قد عينه خليفة له بدلاً من «غورنغ» مارشال الرايخ سابقاً، وبأن سلطات خطية ستبلغه عما قليل. وأضافت البرقية: «إلا أنك تستطيع منذ الآن أن تتخذ من التدابير كل ما يفرضه الموقف». ولم توضح البرقية ما اذا كان هتلر قد قتل أو اعتزل مهامه مستقيلاً في النكبة كما فعل غليوم الثاني عام ١٩١٨.

كان «هملر» أول من أنبىء بهذا التدبير. استدعي الى «بلون» فأتى يحيط به ستة من ضباط الصاعقة المسلحين. فاستقبله «دونيتز» ومسدسه موضوع على الطاولة، وما تليت برقية «بورمان» حتى امتقع لون «هملر» غضباً، وقال بحدة: «آمل أن تسمح لي بأن أكون الرجل الثاني في دولتك». لقد انهارت المانيا، وغدا زعماء الاشتراكية القومية موسومين بطابع آجال شائنة مخزية، وهم مع ذلك يتنافسون على الحكم بضراوة رجال العصابات

وطرقهم في الإخراج.

وفي تمام الساعة ٧,٤٠ من اليوم التالي، أول مايو، وردت من برلين برقية جديدة تثبت وفاة أدولف هتلر.

وبدأت الجيوش الالمانية تتقهقر... وبدأ «دونيتز» نفسه مفاوضاته مع الظافرين، فقد توقف ليل ٢ أيار/مايو، أثناء فراره نحو «فلينزبورغ»، عند جسر «ليفنسور» على قناة «كييل»، ليكلف الأميرال «فون فريد بورغ» قائد سلاح البحر الأعلى، مهمة الذهاب الى «مونتغمري» البريطاني، ليقدم له استسلام الجيوش الالمانية الموجودة في المانيا الشمالية كلها، وليطلب مساعدته من أجل تخفيف بؤس اللاجئين.

أتت رحلة «فريد بورغ» ثأراً لمفوضي الهزيمة المطلقي الصلاحية منذ عام ١٩٣٨، الذين اضطروا الى إلقاء خضوع أممهم عند قدمي «هتلر». رافقه في هذه الرحلة الجنرال «كينزل» رئيس أركان المارشال «بوخ»، ورئيس هيئة أركانه هو الكونتر أميرال «فاغنر»، وواحد من الضباط يدعى «فريدل». سد اللاجئون الطرقات، وعرقلها الحطام المتراكم، وأدماها الطيران الحليف باستمرار. وإذ أدرك المفاوضون خسرائب «هامبورغ» أوقفهم الحاكم العسكري «كوفمان» وأعرب عن عزمه على رميهم بالرصاص... فلم يبلغوا ضاحية «لونبورغ» حيث توقف مركز قيادة «مونتغمري» المتجول إلا قبيل الظهيرة نزل «مونتغمري» من سيارته المقطورة، فأدى الالمان التحية، فأشار اليهم «مونتي» اشارة عدم مبالاة وسأل: «من هم هؤلاء الرجال؟ وما شأنهم؟». يا للحظة الجليلة المهيبة...

أما الاستسلام المرجو فقد رفضه «مونتغمري»، فالجيوش المعروضة عليه تحارب ضد الروس: فلتسلم سلاحها للروس. أجاب «فريد بورغ» بأن جندياً واحداً لن يمتثل لأمر إلقاء السلاح أمامهم، لا محافظة على شرف، ولكن لأن الأسر لدى السوفيات يعني ضروباً من المعاملة السيئة يعذب إزاءها حتى

الموت. وبدل أن يجيب «مونتغمري» أدخل «فريد بورغ» الى سيارته وأطلعه على خرائطه، مشيراً الى القوات الضخمة الهائلة التي تزحف للإنقضاض على ما تبقى من المانيا. واذا بالأميرال الالماني يجهش بالبكاء. ولكن ساعة الغداء بدلت الجو قليلاً. أشار «مونتغمري» بأن يقدم الطعام للألمان في خيمة على حدة، وراح «فريد بورغ» يملح الطعام بدموعه. ثم استؤنفت المقابلة في خيمة القيادة الكبيرة وسط الخرائط التي لا تلين ولا ترحم. وهنا أعرب «مونتي» عن اقتراح معاكس، فاقترح أن تستسلم في الحال القوات الالمانية البرية والجوية والبحرية المتاخمة لجنبات مجموعة جيوشه ناحية الغرب والشمال، أي المقيمة في «هولندا» وفي جزر «الفريز» و«هيليغولاند» و«شيلزفيغ هولشتاين» و«الدانمرك». فلو تم هذا الشرط لعومل الجنود الالمان الذين سيتقدمون من المراكز الأمامية البريطانية، معاملة أسرى الحرب، فرادى أتوا أو جماعات، أما اللاجئون، فقد أكد «مونتغمري» أنه لا يستطيع أن يأذن لهم رسمياً باجتياز خطوطه، ولكنه وعد بأن ينظر في السبل التي تساعد على تخفيف آلامهم، وقال: «لست برجل مات فيه الشعور الانساني». وأعطى الدليل على ذلك اذ أمر بتعليق عمليات القصف الجوي قبل توقيع وثيقة الاستسلام.

أجاب «فريد بورغ» أنه لا يتمتع بالصلاحيات اللازمة ليأمر باستسلام القوات الالمانية المرابطة في «هولندا» و«الدانمرك». فتم الاتفاق على أن يذهب في طلبها الى «فلينزبورغ»، على أن يبقى الأميرال «فاغنر» والجنرال «كينزل» في مقر القيادة الانكليزية. وعينت الساعة ١٨ من ٤ مايو موعداً أقصى للتوقيع على الاتفاقية.

وبعد مفاوضات ومباحثات مع «دونيتز» وقيادات الجيوش التي يشرف عليها الجيش الالماني، عاد «فريد بورغ» عند نصف الليل ممتقع اللون منهوكاً، فاستؤنف بحث الشروط التي جاء بها أمام «كيتل» و«غودل» و«شفيرين». تردد الأميرال لحظة أمام ضرورة تسليم السفن كاملة سليمة، ثم

ما لبث أن رضخ، فخول «فريد بورغ» سلطة توقيع استسلام جيوش الشمال كلها. ثم طلب منه أن يواصل مهمته حتى «رامس» ليعرض على الأميركيين استسلاماً مماثلاً للجيوش الأخرى.

ولما حانت الساعة ١٨ من ٤ أيار/مايو مثل «فريد بورغ» من جديد أمام سيارة «مونتغمري» الذي طرح عليه سؤالاً واحداً: «نعم أم لا؟» فأجاب الالماني: «نعم». ولم تمض عشرون دقيقة حتى أكب يوقع وثيقة الاستسلام أمام مراسلي الصحف والمصورين وعدسات السينما وأجهزة الاذاعة. عاد بعد ذلك الى «فلينزبورغ» على متن طائرة انكليزية، وفي الغد أقلعت به من هناك طائرة المانية تقله الى «رامس»، حيث وصلها عند العصر برفقة الجنرال «كينزل» وكولونيل يدعى «بوليك». فاستقبله «بيدل سميث» استقبالاً جعله يأمل في الحصول على تفهم صامت كالذي لقيه لدى «مونتغمري». وسرعان ما خاب ظنه عندما عاد «سميث» من اجتماعه «بأيزنهاور»: «كانت الشروط غاية الشدة والقساوة، فلابد لوثيقة التسليم من أن تنال توقيع الجيوش الالمانية كلها، ولابد من أن تعقد مع «الروس» كما تعقد مع الغربيين».

ولما حتم على «فريد بورغ» من جديد أن يجيب بـ «لا أو نعم» حصل على فرصة استشارة «فلينزبورغ». فذهب كينزل وقدم تقريره. فقرر «دونيتز» إرسال «غودل» في محاولة أخيرة. ولقد لحظ «فرنسيس دي غنغاند» الذي قاده من مركز «مونتغمري» التكتيكي الى «رامس»، هدوءه ورباطة جأشه، كما أعرب عما شعر به من قلق لوجوده في الطائرة ذاتها مع الرجل الذي كان روح هتلر الشريرة. وعندما أخفق «غودل» في المهمة، وسدت السبل في وجهه، أبرق الى «فلينزبورغ» عند انتصاف الليل وقال أنه لم يبق أمامه إلا واحد من حلين: فإما التوقيع، وإما الفوضى. وفي الساعة ١,٣٠، أجابه «كيتل» يقول: «ان الأميرال الكبير «دونيتز» يمنحك كل الصلاحيات اللازمة للتوقيع».

كانت قاعة استقبال المدرسة المهنية قد أعدت لهذه الدقيقة المهيبة التي تستسلم فيها المانيا بعد حرب دامت ٦٨ شهراً، وفجأة صدر الأمر

بسحب المصابيح الضخمة وأجهزة التسجيل. وأبلغ المراسلون الـ ١٦، الـذين استقدموا من باريس في طائرة خاصة، أن عليهم أن يحفظوا «طي الكتمان» نبأ الحدث الذي من أجله استدعوا، اذ ينبغي أن يحاط استسلام المانيا بين يدي الحلفاء الغربيين بالسرية. ولذا قرر «أيزنهاور» ألا يظهر في الاحتفال، تاركاً لـ «بيدل سميث» شرف ترؤسه، على أن يجلس الى يمين الجنرال الانكليزي «هارولد بورو»، والى يساره الجنرال الروسي «ايفان سوسلو باروف»، وهو رئيس مفرزة اتصال، ويكمل الناحية الحليفة من المائدة طيار أميركي وطيار انكليزي هما «كارل سباتز» و«ج. روب» والجنرال الانكليزي «فريدريك مورغان»، وأخيراً الجنرال الفرنسي «فرنسوا سيفيز» الذي دعي في اللحظة الأخيرة. وجلس في الناحية المقابلة «غودل» و«فريد بورغ» والميجر جنرال «فيلهلم اوكسينيوس» الذي استقدم لتمثيل سلاح الطيران الالماني. جرى كل شيء خلال بضع دقائق عقب تصريح لـ «غودل» قال فيه ان الشعب الالماني يسلم أمره الى مروءة الظافرين. هكذا كان طمس حقيقة التوقيع في «رامس» بمثابة تنازل جديد أمام «ستالين». ويبدو أن غضبته قد ألقت بالأركان الحليفة في حالة من الذعر المريع، فبادرت تعلن أن الاحتفال الحقيقي انما سيجري بعد يومين، في «برلين» وسط جيوشه المظفرة.

ولقد علم العالم الغربي بحقيقة الأمر، وذلك بفضل الجرأة المدنية التي تحلى بها مراسل «الاسوشايتد برس» «ادموند كندي»، الذي تحدى الخطر وخدع الرقابة. إلا أنه وجب منع جنراليسم الغرب «دوايت أيزنهاور» من المبادرة الى برلين ليلعب الدور الثاني وراء المارشال جوكوف.

كانت برلين ما تزال طعمة للنيران، تهز خرائبها انفجارات صادرة عن مستودعات الذخيرة أو عن بعض القنابل الحليفة التي لم تتفجر، والتي راح الحريق يفجرها. أخضعت طائرات النقل القادمة بالوفود الغربية لتدابير ومعاملات دقيقة، وواكبتها المطاردات السوفياتية حتى مطار «تمبلهوف»، وقد انتشر فيه حطام المعركة. وقد أثار تحليق الطائرات فوق العاصمة المدمرة ذهول الغربيين مع أنهم كانوا قد أعدوا له.

هذا وقد جرى الاتفاق على أن يوقع وثيقة التسليم المارشال «جوكوف»، ومارشال الجو «تيدر» نائباً عن «أيزنهاور». أما الجنرال الأميركي «سباتز» والجنرال الفرنسي «دي لاتر» فسيوقعان عليها كشاهدين. . . اذن فقد سلم الشرف الفرنسي من الأذى. . . وكان «دي لاتر» قد وصل الى برلين مع رفيقيه الكولونيل «ديميتز» والكابتن «بوندو».

افتتحت الجلسة في قاعة الشرف التابعة لمعهد الضباط في «كارلهورست»، في ٩ مايو، بعيد منتصف الليل. وفي الدقيقة العاشرة بعد نصف الليل، دوى صوت المارشال غيورغي جوكوف في القاعة يأمر بإدخال الوفد الالماني، وكان «دونيتز» قد عين المارشال «كيتل» رئيساً له.

وعن هذه اللحظات، كتب شاهد العيان الصحفي والكاتب السوفياتي «الكسندر كريفيتسكي» الذي كان مراسلاً لصحيفة «النجم الأحمر» يقول: «وفتح الضباط الخافرون مصراعي الباب» فظهر على عتبته الفيلد مارشال «كيتل» وأميرال الاسطول «فريد بورغ» والفريق الجوي «شتومف». ثلاث خطوات بين الباب والطاولة المخصصة للوفد الالماني. وتقدم «كيتل» ووقف وراء الكرسي الأوسط، ومد يده اليمنى بعصا المارشالية، وأبقاها أمامه بعض الوقت ثم نترها الى صدره. فعل ذلك مرتين. وكان في هذه الحركة المناجئة ما يثير السخرية: ثم جلس على الكرسي واضعاً العصا على الطاولة. وجلس الى جانبيه الأميرال «فريد بورغ» وعلى وجهه صفرة الأموات، والجنرال «شتومف» ممثلاً المارشال «فون غرايم» الذي سمره الجرح الذي أصيب به في برلين في أحد المستشفيات البافارية. واصطف خلفهم ستة ضباط «في غاية الروعة» على حد قول نقيب المحامين «بوندو» «وقد حملوا جميعاً صليب الفرسان ذا السيفين، ووقفوا جامدين يعضون شفاههم كي لا يجهشوا بالبكاء. . .» كأنها، لعمري، صورة مؤثرة لجيش مهزوم.

وأعلن المارشال «جوكوف»: الآن يجري توقيع وثيقة الاستسلام من دون قيد ولا شرط. فهز «كيتل» رأسه موافقاً ويعيد بصوت حيوي: نعم،

الاستسلام. وبعد أن سأل جوكوف عن وثيقة تثبت توفر الصلاحيات لتوقيع وثيقة الاستسلام باسم القيادة الالمانية العليا، واستعداد الوفد للتوقيع، أجاب كيتل : أجل... أجل... موافق... الاستسلام... أجل...

وهنا حدث التالي: عندما كان «كيتل» يهز رأسه ويكرر «أجل... أجل»، أومأ بيده اليسرى ايماءة تدل بوضوح على رغبته في أن يوضع أمامه على الطاولة ما ينبغي توقيعه. في حين كان يرسم بأصابع يده اليمنى حركة تشبه حركة انسان يكتب.

عندئذ نهض مدير الجلسة وقال بصوت منخفض: يطلب من مندوبي القيادة الالمانية العليا أن يتقدموا ويوقعوا المحضر هنا. وبحركة آمرة من يده رسم نصف دائرة توضح الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الجنرالات الالمان من أماكنهم الى الكرسي الصغير الموضوع أمام الطاولة الرئيسية. وهكذا كان...

واستسلمت المانيا بعد أن أعطاها التاريخ درساً قاسياً يصعب نسيانه أبد الدهر. وتحطمت عنجهية النازيين وكبرياؤهم «الحار» أمام «جليد» الاتحاد السوفياتي وثلوجه «الباردة».

ومن يعمل اليوم على الثأر لألمانيا وأخذ دورها في سبيل حرب عالمية ثالثة، فليقرأ التاريخ بعمق ويدرسه بتمعن، اذا كان طامعاً في الحياة، عله يتعظ... ويعقل... ويرتاح.

وإلا... فعلى البشرية السلام..

المراجع

١ ـ ريمون كارتييه «الحرب العالمية الثانية». الجـزء الثاني. نقله الى العـربية سهيل سماحة وانطوان مسعود بإشراف جبران مسعود. منشورات مؤسسة نـوفل للطبـاعة والنشـر. و«بيت الحكمـة». مـطابـع الأهليـة اللبنـانيـة. بيروت. آذار/مارس ١٩٦٧. ص ٣٤٦ ـ ٣٥٠.

٢ ـ ألكسندر كريفيتسكي «الاستسلام من دون قيد أو شـرط». مجلة «المدار» (السوفياتية). العدد ٥. أيار/مايو ١٩٨٥. ص ٢٧.



المجرم الصهيوني يحاكم المجرم النازي
«اسرار عملية اختطاف أدولف أيخمان الى اسرائيل»

النازية والصهيونية وجهان لعملة واحدة... والصراع بينهما هو صراع قائم على الاجرام والمذابح... ومن جمع في سجله العدد الأكثر، من الجثث، وفاحت منه رائحة الدم والموت أكثر من الآخر... استحق لنفسه لقب : «البطولة».

ويبقى الانسان في النهاية هو الهدف والضحية.

وتبقى مصيبة العصر أن يعمد مجرم محترف لمحاكمة مجرم محترف آخر. هذا هو الحال في محاكمة المجرم النازي «أدولف أيخمان» من قبل المجرم الصهيوني «ايسر هرئيل» وسيده بن غوريون.

انها محاكمة غريبة بالفعل وتحمل في جوهرها الكثير من الخفايا والأسرار... كيف حصل ذلك؟ وكيف انتهت؟ وكيف تمكن «الموساد» الصهاينة من اختطاف أيخمان من الأرجنتين. ويحاكمونه أمام محاكمهم في اسرائيل؟ ولماذا؟.

كان أدولف أيخمان من رؤوس النازية ومن مساعدي هتلر الأقوياء. عيّن في عام ١٩٣٤ بالقسم اليهودي من خدمات الأمن التابعة للقمصان الزرقاء س. س. S. S. بوصفه خبيراً في قضايا الصهيونية، ولعب دوراً أساسياً في صياغة الحل النهائي للمسألة اليهودية وتنفيذه أيضاً. كان يعتز كثيراً بسهولة تنفيذ العمليات التي نظمها. وفي محاكمات «نورمبرغ» قدمت الأدلة على أنه

كان يفتخر بمساهمته في تصفية ملايين اليهود، وقد اشتملت تلك المساهمة على الدور الكبير الذي لعبه في «توسيع أوشفتس» الذي أصبح أكبر معسكر للإبادة بالجملة، حيث لقي حوالي مليونين من اليهود مصرعهم حسب الدعاية الصهيونية.

تمكنت دول الحلفاء من القاء القبض على عدد من كبار النازيين بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وقدموا للمحاكمة في «نورمبرغ». في حين جرت تصفية حساب عدد آخر منهم على أيدي جماعة صهيونية أطلقت على نفسها اسم «المنتقمين»، وهي من اللواء اليهودي التابع للجيش البريطاني بمساعدة رجال عسكريين متعاطفين معهم من فرنسيين وانكليز وأميركان وغيرهم من قوات الاحتلال. هذا في الوقت الذي تمكن عدد قليل منهم من الفرار والافلات من يد «المنتقمين» السريعة. وكان من بينهم «أدولف أيخمان» بالذات الذي عرف عنه الذكاء والخبرة في شؤون البوليس وقضايا الأمن، وتمكن من اخفاء مسالكه فيما يبدو اخفاء تاماً، حتى حل خريف ١٩٥٧.

في هذا الوقت كان رئيس الموساد الصهيوني «ايسر هرئيل» قد حصل على معلومات موثوق بها من الدكتور «فرتس باور» المدعي العام في مقاطعة هيسي بألمانيا مفادها أن أيخمان يعيش في الأرجنتين.

درس ايسر هرئيل ملف أيخمان دراسة عميقة، وصمم على ضرورة الاتيان به ومحاكمته. وإن القاء القبض على هذا المجرم الخطير، الذي ما من شك في انه يحيا باسم مستعار، وتحوطه رعاية أصدقائه في الحكومة الأرجنتينية وخارجها، سوف تكون واحدة من أصعب المهمات التي واجهها في حياته، ثم، ما العمل به اذا تم القاء القبض عليه؟ سيكون من السهل اليسير القضاء عليه بالأسلوب الذي يتبعه «المنتقمون». ولكن ايسر هرئيل لم يكن يعتزم قتل أيخمان، بل كان ينوي الاتيان به الى اسرائيل ليمثل للمحاكمة أمام نازية جديدة بأسلوب قديم جديد على «أرض الميعاد»، حيث بذل أيخمان قصارى جهده لإبادة «شعب الله المختار» الذي يدّعي بأن

فلسطين العربية هي «أرض الميعاد».

ذهب ايسر هرئيل فوراً لمقابلة رئيسه دايفيد بن غوريون، ولم يكن الرجلان يناقشان عظائم الأمور على الهاتف. وقد تميز اللقاء بينهما بالقصر، اذ دخل ايسر مكتب بن غوريون وأخبره بأن لديه معلومات عن مكان اقامة أيخمان وقال: «أود أن تمنحوني الضوء الأخضر لجلبه الى اسرائيل». قال بن غوريون: «افعل ذلك».

ومنذ تلك اللحظة أعطي لايسر هرئيل الأولوية رقم (١) لهذه المهمة.

أما المدعي العام الالماني «فرتس باور» فقد استدل على أيخمان من يهودي أعمى في بيونس ايرس. كان شاب يطلق على نفسه اسم نيكولاس أيخمان يتودد لابنته، وكان هذا هو اسم أحد أبناء أدولف أيخمان الذين ولدوا له في المانيا، وأدى ذلك الى التعرف على عنوان عائلة أيخمان، وهو ٤٢٦١ شارع شاكابوكو في ضاحية أوليفوس في مدينة بيونس ايرس. وفي وقت مبكر من عام ١٩٥٨ أرسل هرئيل أحد العملاء للإشراف على مراقبة المنزل. بيد أن خطأ ما قد وقع، وأحس أيخمان بالمطاردة، ومنيت الملاحقة بالفشل.

وفي آذار/مارس من ذلك العام بعث ايسر الى بيونس ايرس رجلاً حنكته التجارب يدعى «أفرايم الروم». وقد انتقى ايسر ذلك الرجل بنفسه لأنه وجد فيه الشخص المطلوب لهذه المهمة.

وصل «الروم» الى بيونس ايرس، فذهب على الفور لزيارة «لوثار هرمان» وهو المحامي الالماني الأعمى الذي كانت ابنته تواعد نيكولاس أيخمان، وسمع «الروم» منه كيف ثارت شكوكه لمباهاة ذلك الشاب بالدور الخطير الذي لعبه أبوه في جهود الحرب بألمانيا.

وسارت الاستفسارات التي قام بها الرجلان عن المشتبه بأنه أدولف أيخمان في تريّث ودقة. ولم يكن المتحرّيان يريدان الوقوع في المخاطر.

وتم تسليح العملاء بملفات تحتوي على جميع النتف المعلوماتية التي

تتيح لهم التحقق من هوية أيخمان. ومن هذه المعلومات سماته البدنية، وصوته الأجش، ويوم الاحتفال بزفافه أيضاً، وقد حرص النازي السابق على إتلاف كل صورة من صوره وقعت يده عليها، فلم يدع لمطارديه سوى صور باهتة تعود الى أيام ما قبل الحرب.

وفي ديسمبر ١٩٥٩ تعرف بعض عملاء الموساد على أيخمان في هيئة رجل ينتحل اسم: «ريكاردو كليمنت» وقد أفلح الفريق «الموسادي» بعد اقتفاء أثر الابن في تحديد موقع المنزل الذي تعيش فيه العائلة، وهو يقع في شارع «غاريبالدي» في منطقة «سان فرناندو» المنخفضة بالمدينة، ودأبوا على مراقبة البيت وصوّروه من جميع زواياه باستعمال عدسة مقربة مع عائلته في ذلك المنزل، واطمأنوا الى أنه لابد من أنه سيكون «أدولف أيخمان»، ولم يبق عليهم سوى الظفر بالبرهان القاطع على هوية الرجل.

ويوم ٢١ آذار/مارس ظفروا بالبرهان. . .

ففي غسق ذلك اليوم، نزل ريكاردو كليمنت من سيارة الباص وسار متمهلاً نحو المنزل، وفي يده باقة من الزهر. وحنى كليمنت رأسه من تحت الأسلاك التي تحد أرضه، ثم قدم باقة الزهر الى المرأة التي قابلته بحرارة لدى الباب. وبدا طفلهما الأصغر الذي كان في العادة مهمل الملابس أو يلعب وهو عار في الحديقة، بدا أنيقاً حسن الهندام آنذاك، ومن بعد علت ضحكات المحتفلين من وراء ستائر المنزل المسدولة.

ولكن، فيم كان يقام هذا الاحتفال؟.

وتناول أحد العملاء نسخته من ملف أيخمان فوجد فيه أن ٢١ مارس هذا هو العيد الخامس والعشرون لزفاف أيخمان.

وهنا انقشعت جميع الريب المتبقية حول «ريكاردو كليمنت». فقد كان هو أدولف أيخمان. ولم ينقض وقت طويل بعد تحقق عملاء ايسر هرئيل من هوية أيخمان، حتى قرر الذهاب الى الأرجنتين ليشرف بنفسه على عملية

القاء القبض عليه. كما اختار ايسر بنفسه كل رجل في تلك المهمة من خيرة رجاله السرّيين، وكلهم كان قد قام بمهمة في الخارج مجازفاً بحياته. وجميعهم كانوا ممن بقوا على قيد الحياة ونجوا من الاضطهاد النازي وشاهدوا اخوتهم وآباءهم وأمهاتهم يساقون بعيداً الى معسكرات الاعتقال للمرة الأخيرة في حياتهم. وكان بعضهم - كما تقول الموساد - الوحيدين الذين بقوا أحياء من عائلات ابيدت تماماً. وكان أحد هؤلاء «شالوم داني»، وقد ترعرع هذا في أحياء الغيتو، ثم نقل من معسكر الى آخر بعد الغزو النازي لمسقط رأسه في المجر. أما أبوه فقد سيق الى الموت في غرف الغاز في «بيرغن بنزن» حسب ما تروّج له الدعاية الصهيونية.

وذاق «شالوم داني» عذاب السجن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية على يد البريطانيين. أما دوره في هذه العملية، فقد تمثل بإعداد الوثائق اللازمة لأعضاء فريق الموساد ولأيخمان نفسه من أجل تسهيل عملية اختفائه من الأرجنتين. هذا وقد بلغ أعضاء الفريق اثنين وثلاثين شخصاً عاملاً ومسانداً داخل الأرجنتين.

وبدأت العملية بدون إحداث متاعب في نهاية شهر ابريل. وطار العملاء من جميع أرجاء المعمورة الى الأرجنتين، ولم يكن أي اثنين منهما من مدينة واحدة، وقليل منهم من كانوا من البلد نفسه، وقد شرع هؤلاء على الفور في استئجار منازل «آمنة» لتكون قواعد انطلاق لعملياتهم. كما استأجروا أرتالاً من السيارات، كانوا يبدلونها دائماً وباستمرار كي لا ينتبه اليهم أحد.

وأعدت الترتيبات سلفاً لنقل الأسير جواً بإحدى طائرات شركة العال الذاهبة الى بيونس ايرس لإنزال وفد اسرائيلي، يشارك في الاحتفال المقام في الذكرى المئة والخمسين لاستقلال الأرجنتين. وكان الحظ مواتياً كل المواتاة لتمكن ايسر من المشاركة الفعالة في تحديد زمن السماح للطائرة بالاقلاع من الأرجنتين.

وفي ١١ مايو كانت قد أنجزت جميع الاستعدادات، وتقرر أن يتغلب

رجال الموساد على أيخمان في ذلك اليوم حين يعود الى بيته مساء، وأن يختطف ويودع في أحد منازل الاسرائيليين «الآمنة».

وفي الساعة السابعة والدقيقة ٣٤ وقفت سيارتان في شارع غاريبالدي، وكان غطاء إحداهما مكشوفاً، ورجلان يتدارسان ما بدا أنه عطل ما في السيارة، وفي المقعد الخلفي كان رجل متأهب للوثوب.

وكان لدى السيارة الأخرى الواقفة على بعد ٣٠ متراً رجل آخر يحاول تبين العلّة في توقف محرك سيارته.

وكان أيخمان يعود الى البيت في سيارة الباص في الساعة السابعة وأربعين دقيقة، وسيقومون بالقبض عليه وهو يسير في طريقه الى البيت.

وصل الباص في الوقت المحدد. ولكن أيخمان لم يكن فيه. وازدادت حدّة التوتر بين أفراد الجماعة، وقرروا انتظار قدوم الباص التالي، الذي لم يكن فيه أيضاً، وكذلك في الباص الثالث. وعقد العملاء مؤتمراً عاجلاً، فلو بقيت سياراتهم طويلاً، لبدأت الشكوك تحوم حولهم، وسيؤدي ذلك الى احباط المهمة بتمامها، بيد أنه لم يكن من السهل عليهم التراجع بعد كل ما فعلوه، اذن، بضع دقائق أخرى. . .

وفي الساعة الثامنة تماماً، لاحت سيارة باص أخرى، وهبط منها شخص وحيد. وفي أثناء مسيره تجاه العملاء عرفوا فيه رجلهم المطلوب. لحظات من الصمت، بقي فيها العملاء ينتظرون وصول أيخمان الى المكان الملائم.

وفجأة بهرت عيني أيخمان أضواء السيارتين. ألقى رجلان القبض عليه، فصدرت عنه صيحة فزع وحيدة، ثم ألقي في المقعد الخلفي من احدى السيارتين، ورأسه مضغوط بين ركبتي أحد رجال الموساد. وشد وثاق أيخمان، وسد فمه بسداد ما، ووضعت نظارتان قاتمتان على عينيه، كيلا يعرف مختطفيه، ويكوّن أية فكرة عن الغاية التي يساق اليها، وقد دثر ببطانية

وطـرح على أرض السيارة. وانحنى أحـد رجال المـوساد من فـوقـه وقـال لـه بالالمانية: «اذا قمت بحركة واحدة، فسنطلق عليك النار».

وفي أقـل من ساعـة بعد الاختـطاف، كـان أيخمـان يستلقي معصـوب العينين في الفراش بمنزل يقع في الجانب الآخر من المدينـة، وكانت احـدى سـاقيه مشـدودة الى هيكل السـرير، وقـد استبدلت ثيـابه ببيجـاما اشتـريت له مؤخراً.

وعندما تفحّص رجال الموساد خصائصه المميزة الـواحدة تلو الأخـرى، وجدوها مطابقة بـأجمعها لمـدوناتهم، وذهبت الى غيـر رجعة عجـرفة ضـابط القمصان الزرقاء .S. S. وكانت طريقة تهريب أيخمان الى الخـارج قد خـطط لها سلفاً، في كثير من العناية والحرص. فقد وضع أحد العملاء في مستشفى محلي، بادعاء أنه يعاني من ضرر في الدماغ اثر حـادث مزعـوم. وكان أحـد أقاربه طبيب الموساد يعوده كل يوم فيخبره كيف يصف أعراض حالته. الخطة تقضي بأن يحدث تحسن بطيء ومنتظم لهذا المريض.

وفي صباح ٢٠ مايو استعاد المريض صحته مما أتاح لأطبائه المسرورين أن يامروا بإخراجـه من المستشفى، انهم منحوه شهـادات صحية وإذنـاً خطيـاً حسب طلبه بالعودة الى وطنه بالطائرة.

ولم يكـد المريض يخـرج من المستشفى حتى أخذت منـه أوراقه على عجل، واستبدلت بها صورة أيخمان ووثائقه الشخصية.

كانت أصعب فترة في حيـاة ايسر هـرئيل هي تلك الفتـرة الحرجـة التي سيتم فيها تهريب أيخمـان من بين موظفي الجمـارك والجوازات، وعبـر شبكة الأمن التي تحيط بالمطار أيضاً. وقد نقـل ايسر مقـره المتنقل الى منضـدة في مـطعم الموظفين بالمـطار، حيث بقي جـالسـاً طـوال اليـوم يتلقى التقـاريـر من عملائه.

والى جانب ايسر هرئيل، أمام أبصار سلطات بيونس ايرس كـان شالـوم

داني جالساً يضع اللمسات الأخيرة على جوازات السفر المزيّفة، ويتأكد من أن الوثائق التي وصلت اليه قد تم دمغها بأختام حكومة الأرجنتين الرسمية.

وفي أثناء ذلك كان رجال الموساد يعتنون بحلاقة أيخمان واغتساله ونظافته، وقد ألبسه رجال الموساد بذلة مما يستخدمها رجال طيران شركة العال، وقام طبيب من الفريق بحقنه بإبرة خاصة فيها عقار تم تركيبه بحيث يشوش احساسات أيخمان فلا يعي شيئاً مما يدور حوله، ولكنه يظل واعياً في الوقت نفسه مما يتيح له السير اذا أسنده رجلان عن يمينه وشماله.

وفي السيارة الثانية، من قافلة مؤلفة من ثلاث عربات ممتلئة جميعاً بملاحي الطيران، سيق أيخمان الى مدخل الموظفين في المطار، وعندما اقتربت القافلة من مقر الحراس، أخذ رجال السيارة الأولى يغنون ويقهقهون، وأوضح سائق سيارتهم الذي بدا عليه الارتباك، أوضح للحراس أن. . . جماعته قد استمتعوا بحياة الليل في بيونس ايرس كثيراً، حتى أنهم كادوا ينسون أنهم سيسافرون الى وطنهم في ذلك المساء نفسه. وكان بعض الرجال يهومون من النعاس، مما جعل الحراس يتندرون بأنهم لن يتمكنوا من استعمال الطائرة مع هذا الخبل الذي أصابهم وقال السائق: أنهم على ما يرام، وما هؤلاء سوى الملاحين البدلاء، وفي وسعهم أن يكملوا نومهم في داخل الطائرة. عندها أشار الحراس للقافلة بالتقدم.

وأخذ اثنان من عتاة الفريق يضغطان أيخمان بينهما بذراعيهما، وهما يسندانه عن يمينه وعن شماله ويساعدانه في تسلق المجاز المؤدي الى الطائرة.

وعلى متن الطائرة تم دفع أيخمان، وجره ثم وضعه في مقعد مجاور للشباك، بالقسم الأمامي من الطائرة، ومن حوله كان الملاحون يتظاهرون بأنهم يغطون في نوم عميق، ثم أطفأ ربان الطائرة الأنوار في ذلك الموقع، ومضى الملاحون الآخرون يقدمون وثائقهم الواحد تلو الآخر الى موظفي الجمارك والجوازات، وكان كل شيء يسير بدون أدنى متاعب.

وأخيراً قدم ايسر هرئيل وثائقه وصعد على متن الطائرة، وكان كل شيء معدّ للإنطلاق. وبعد قليل، هدرت محركات الطائرة، واندفعت في الممر بالمطار. وما هي إلا لحظات حتى كانت تحلق في الجو. وكانت الساعة حينذاك قد تجاوزت منتصف الليل بخمس دقائق. وبعد ٢٤ ساعة من إقلاع الطائرة من بيونس ايرس، هبطت في مطار اللد وساق ايسر هرئيل سيارته على الفور الى مكتب بن غوريون، ولأول مرة أتاح لنفسه أن يتبسط في حديثه معه وقال: «أتيتك بهدية صغيرة».

واعترى بن غوريون الوجوم لعدة ثوان. فقد كان يعرف أن ايسر يطارد أيخمان، ولكنه لم يكن يعلم أنه على وشك الاتيان به.

وبلغت فترة غياب ايسر عن «اسرائيل» ٢٣ يوماً. وعندما عاد الى منزله في تلك الليلة سألته زوجته «رفكة» أين كان، فكان جوابه الوحيد: في مكان ما. غير أنها حصلت على معلومات أوسع في اليوم التالي عندما ألقى بن غوريون خطاباً قصيراً بالغ الأهمية في الكنيست قائلاً: «يتوجب عليّ الاعلان عن أن الاستخبارات الاسرائيلية قد عثرت قبل وقت قصير على واحد من كبار مجرمي النازية وهو أدولف أيخمان الذي كان مسؤولاً مع سواه عما سمّوه بالحل النهائي للمشكلة اليهودية، أي ابادة ستة ملايين يهودي في أوروبا.

إن أيخمان رهن الاعتقال في اسرائيل الآن، وسيقدم قريباً للمحاكمة. وكان صوت بن غوريون يتهدج من فرط الانفعال. وبينما كان بن غوريون يلقي خطابه اتجهت أنظار الحاضرين في الكنيست من رجال ونساء الى مكان في القسم الذي لا يشغله أعضاء الكنيست، وهناك كان ايسر هرئيل الذي قلما ظهر علانية في الاجتماعات، وكان لا ينبس ببنت شفة.

وكان طبيعياً أن يحكم على أيخمان بالاعدام في دولة قامت على الاجرام والدم والجثث.

إلا أنه من الطبيعي ايضاً أن نعادي كل ما يمثله أيخمان والنازية من قيم

واتجاهات لا انسانية وأن نعادي في الوقت نفسه وبمنطق ذات الموقف، بن غوريون والصهيونية العالمية كحركة وكيان عدواني باسرائيل.

فإذا كانت النازية عدواناً تدثّر بالعنصرية وأثار عاصفة الحرب العالمية الثانية ضد الانسانية فكذلك الصهيونية، تيار استعماري عدواني يقتات بالعنصرية ويؤسس بالقتل وسفك الدماء ومعونة أعتى القوى الاستعمارية، قاعدة عدوانية في فلسطين تنطلق منها حملات التخريب المسلحة والسياسية لحركات التحرر في آسيا وأفريقيا.

واذا كان أيخمان النازي مسؤولاً عن قتل الملايين من اليهود في أوروبا فكذلك بن غوريون.. الصهيوني - وتلاميذه الكثر - مسؤول عن قتل آلاف من العرب، وتشريد ما لا يقل عن مليون منهم..

واذا كانت الدماء التي أهدرت في معتقل أوشفتس النازي تلطخ جبين أيخمان والنازية، فكذلك الدماء العربية التي سفكت ولا تزال تسفك كل يوم في فلسطين المحتلة، وفي الدول العربية المجاورة، تلطخ جبين بن غوريون والصهيونية. وإذن فالجريمة في الحالتين من نوع واحد، ولا يهم أمامهما عقد المقارنات بين كمية الدماء المهدرة في «اسرائيل» الصهيونية والمانيا النازية. فإبادة انسان واحد كإبادة ألف. كل منهما جريمة قتل، ولا يستطيع المجرم - كما قال الفيلسوف أرنولد توينبي في مناظرته التاريخية مع سفير اسرائيل في كندا - «أن يكون قاتلاً أكثر من مائة في المائة».

وحقاً لابد من محاكمة المجرم وإنزال العقاب به. ولكن من يملك سلطة المحاكمة؟ من الواضح أنه اذا كان المجرم «محلياً» فحق محاكمته منوط بالدولة التي ارتكبت الجريمة في اقليمها. أما اذا كان المجرم «دولياً» فحق محاكمته يتعلق عندئذ بالانسانية جمعاء.

وأيخمان النازي هو مجرم حرب دولي وبالتالي فالانسانية ممثلة في تنظيماتها الدولية، لا اسرائيل، هي سلطة الاتهام والمحاكمة المختصة. وهذا تقليد دولي سبق اتباعه بعد الحرب العالمية الثانية في محاكمات نورمبرغ، أما

أن يحاكم مجرم مجرماً آخر وتقف الصهيونية موقف الاتهام من النازية فهو وضع أقرب الى الصورة الكاريكاتورية الساخرة منه الى محاكمة موضوعية تلقي الأضواء على جرائم النازية وتكشفها أمام الضمير الانساني فتمنع تكرارها بصورة أخرى.

والحق أن اسرائيل تخشى المحاكمة الموضوعية لأيخمان لأن فيها كشفاً أيضاً لجرائم الصهيونية كامتداد لجرائم النازية. ولهذا لم تكن محاكمته عادلة. وهكذا لم يكن إعدام أيخمان إعداماً لشخص، بقدر ما كان إعداماً للوثائق والمعلومات التي يمتلكها أيخمان في تعاون النازيين مع الصهيونية والوكالة اليهودية، قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها.

ويوماً ما، قرب هذا اليوم أو بعد، سيقف حتماً بن غوريون وغيره من زعماء الصهيونية في قفص اتهام الانسانية، يحاكمون محاكمة موضوعية عن جرائم اسرائيل المرتكبة لا ضد العرب فحسب بل وضد اليهود أيضاً الذين غرر بهم تحت شعار الوطن القومي، فعصف باستقرارهم وأمنهم ومصالحهم في كل بقعة من العالم.

المراجع

١ - دينيس أيزنبرغ وآخرون. «الموساد جهاز المخابرات الاسرائيلية السرّي». المؤسسة العربية للدراسات والنشر ودار الجليل للنشر. الطبعة الأولى. بيروت ١٩٨١. ص ١٧ - ٢٩.

٢ - لطفي الخولي «أيخمان بين النازية والصهيونية» جريدة «الأهرام» القاهرية بتاريخ ٢٤ آذار/مارس ١٩٦١.

٣ - مجلة «نحن والعالم». العدد السادس. دار النشر العربية. بيروت ١٩٦١. ص ١٨ - ٢١.

٤ - نزار عمار «الاستخبارات الاسرائيلية». المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الأولى. بيروت ١٩٧٦. ص ٧٧ - ٨٤.

٥ - زفي ألدوبي وجيرولد بالينغر «الجاسوسية الاسرائيلية وحرب الأيام الستّة» تعريب غسان النوفلي. بيروت ١٩٧٢. ص ١٢٣ - ١٢٤.

دحرجة الرؤوس في بون

بعد أن شهد القرن العشرون كثيراً من التطورات في عالم الاختراع والتكنولوجيا، كان طبيعياً أن ينعكس ذلك على وسائل الاعلام في أي بلد من بلدان الدنيا، كما أصبح تعداد المدن والدول، من المواد «الاستهلاكية» الضرورية في عملية بث الأخبار واختلاف البرامج. إلا أن اسم «دولة المانيا» يبقى له الوقع والوزن الأكبر في هذا القرن، حيث ترتسم فوراً في أذهان الناس صورة ذلك المارد الذي يحمل فتيل الحرب لإشعال شرارتها المحرقة..

وهل تنتظر البشرية أكثر من حربين عالميتين لتؤكد ذلك، بعد أن حمّل العالم أجمع مسؤولية إشعال هاتين الحربين الى «المانيا» وفي قرن واحد فقط؟ وهذا ما يجعل الكثيرين من الالمان، أكثر من غيرهم، عرضة لعملية «تدحرج الرؤوس» في مسلسلات تجسسية قلّ نظيرها. ولم تكن حادثة رئيس دائرة مكافحة التجسس في المانيا الغربية المدعو «هانس تيدغي» في الشهر الثامن من عام ١٩٨٥، سوى الحلقة الأساسية في هذا المسلسل.

فمن هو «هانس يواكيم تيدغي»؟ وما هي أسرار عملية هروبه الى المانيا الشرقية؟.

في الحقيقة، ضجّت وسائل الاعلام على اختلافها، بأخبار هذه الحادثة. كما تبارت في التقاط تفاصيلها وأدق أسرارها حتى صورت أخيراً وكأن كل أسرار الغرب كانت داخل كأس من النبيذ على حد قول جيران «هانس تيدغي» رئيس دائرة مكافحة التجسس في المانيا الغربية والذي فر الى المانيا الشرقية. ويضيف هؤلاء الجيران بأنه «كان مخموراً دائماً، واذا ما ظهرت امرأة شقراء

في النافذة، راح يناديها بصوت عال مع أن مهمته تقتصر على النظر من ثقب الباب.. كان بإمكان الذئاب أن تدخل من الباب ساعة تشاء» هذا ما قالته صحيفة بيلد تساميتونغ التي أضافت أن الوثائق والمعلومات كانت تتناثر على الطاولات وأحياناً على المقاعد كما لو أنها زجاجات فارغة. ولا شك أن الكثير منها قد «تطاير» عبر النوافذ..

كان «هانس يواكيم تيدغي» رجلاً متوازناً للغاية لكنه كان يدّعي حالة السكر لإخفاء، علاقاته السرية. فالرجل الذي كان مفترضاً فيه أن يكافح الجاسوسية، أنشأ شبكة للقيام بكل عمليات التجسس التي تأتي بالفائدة على الاتحاد السوفياتي. وقد تمكن من السيطرة النفسية على رؤسائه ومرؤوسيه. وكان يبدو أكثر الناس كراهية للاتحاد السوفياتي، حتى أنه لم يتردّد في القول ذات مرة أمام مسؤول فنلندي أنه كان يفترض بالرئيس هاري ترومان أن يلقي القنبلة الذرية على موسكو لأن قيام الثورة البولشفية هو السبب الحقيقي لاندلاع الحرب العالمية الثانية، وستكون السبب لاندلاع الحرب العالمية الثالثة...

كان «تيدغي» على علاقة وثيقة، وبحكم مركزه، بوكالة الاستخبارات المركزية. واذا كانت المانيا هي بوابة العبور باتجاه الشرق، فقد كان الرجل يعرف تقريباً، بكل عميل أميركي يتوجه الى الاتحاد السوفياتي أو الى أية دولة أوروبية شرقية أخرى. كان يحصل على كل التفاصيل ثم يبثها عبر البقال الى مركز الـ «ك. ج. ب» في موسكو. هذا وقد وصل الأمر الى حد، يردد فيه في أكثر من عاصمة أوروبية أن «تيدغي» استطاع أن يخدع الجميع وأن يحصل على معلومات يفترض وصولها الى الاتحاد السوفياتي لإعادة النظر، وبصورة كاملة، بالخطط الاستراتيجية الغربية، لأن معرفتها تؤدي فعلاً الى زعزعة المانيا الغربية والمعسكر الغربي برمته..

«الحارس الكبير» هو الذي سقط وسقطت معه المانيا في كأس من النبيذ: «أجل لقد تحطمت أسرارنا، ولقد تحطم رجالنا أيضاً. لكن الأهم هو

أن ثقة الآخرين بنا هي التي تحطمت». هذا ما قاله عضو في «البندستاغ» عن الحزب الاشتراكي مشيراً الى أنه خلال القمة الأخيرة للدول المصنعة السبع، بدا واضحاً أن واشنطن وبون أعلنتا نوعاً من الاخوة التكنولوجية بعدما أبدت الدول الغربية الأخرى وعلى رأسها فرنسا، تحفظات عميقة على المشاركة في «مبادرة الدفاع الاستراتيجي» التي تعرف بـ «حرب النجوم». .

انّ كل الأسرار الاميركية كانت بين أيدي الالمان. ولقد بات هذا معروفاً للغاية، أما الآن فكل الأسرار الاميركية هي بين أيدي السوفيات الذين طالما قال الاميركيون انهم يعيشون في عصور الجليد، لكن الجليد يحرق الأصابع الغربية كما يبدو، وثمة تفاعلات لقضية «تيدغي» قد لا تقتصر على المستشار «هيلموت كول» وحده، حيث من المعروف أن وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية تقيم نوعاً من المظلة الأمنية السرّية فوق المانيا الغربية. لكن الـ «ك. ج. ب» (أي المخابرات السوفياتية) تمكنت من إحداث ثقوب واسعة في هذه المظلة. والدليل أن «هانس تيدغي»، الحارس الكبير، انتقل الى برلين الشرقية ومنها الى موسكو على الأرجح ليتطاير رجال الغرب في الشرق. . .

الاميركيون بدأوا بالدفاع عن الاحتمالات وهم يقولون أنهم يعرفون جيداً بأن العديد من الالمان لم يتخلصوا من عقدهم، ولم يتجاوبوا بالتالي مع مبدأ العيش المشترك مع الأمم التي دحرتهم في منتصف الأربعينات، وبالطبع فإن هؤلاء الذين يتسللون كالثعابين الى المراكز الحساسة مستعدون لفعل أي شيء ينشر التوتر في العالم، ويجعل احتمالات الصدام أكثر حدة. فالالمان يجب أن يكونوا في حالة حرب مستمرة مع الجميع الى أن تتوحد المانيا. . .

ولهذا السبب يدعي الاميركيون بأنهم لا يضعون سوى الأسرار العديمة الجدوى أمام حلفائهم الالمان، منذ أن ألقي القبض على «غونتر غيوم» مستشار المستشار «ويلي برانت» في أيار/مايو سنة ١٩٧٤ . .

ويلاحظ «دوغلاس لوفين»، وهو من الأميركيين الذين سبق لهم وعملوا في الـ «سي. آي. أي» أن جهاز الاستخبارات في أي دولة من الدول لابد من أن يكون انعكاساً للوضع المجتمعي. وفي الولايات المتحدة حيث يعاني المجتمع من التفتت العميق، لا مجال للحديث عن التماسك في أي قطاع حتى ولو كان هذا القطاع هو الـ «سي. آي. أي» حيث يفترض أن يقوم توازن دقيق في عبقرية الألهة وعبقرية الشياطين. لكن «لوفين» يعتقد أن السوفيات ليسوا بحاجة الى التجول داخل البيت الأبيض.. وقد يكونوا هناك فعلاً كي يطلعوا على الأسرار الاستراتيجية الأميركية. اذ يكفيهم أن يتجولوا في أمكنة أقل أهمية كي يعثروا على الأسرار وهي مبعثرة على الأرض. هكذا كانت حالة منزل «هانس تيدغي» وقد بدا بعد تفقده ـ الذي أعقب فرار صاحبه ـ كما لو أنه مقهى سوفياتي من الدرجة الرابعة. ولقد كان مثيراً أن يتساءل كاتب سياسي أميركي عما اذا كان السوفيات قد زرعوا جهاز بث الكتروني في بطن الرئيس رونالد ريغان لدى إجراء العملية الجراحية في أمعائه المصابة بالسرطان..

وبعبارة أخرى، يقول «دوغلاس لوفين» أن أزمة الثقة هي اتي تحكم العلاقات بين هذه الدول، وقد تم بحث الموضوع أكثر من مرة في الاجتماعات السرية لقيادة حلف الأطلسي. وتتخذ التوصيات التي تزيد الأمور تعقيداً. وهنا يقول «لوفين» الذي يملك الآن مزرعة صغيرة في كاليفورنيا أن السوفيات موجودون في كل مكان: «لقد خدمت في باريس وروما وبروكسل وأعرف تماماً أن قرارات حلف شمالي الأطلسي كانت تصل أحياناً الى موسكو قبل أن تصل الى واشنطن»..

والواقع أن المانيا الغربية تمثل الآن العمق الحقيقي لحلف شمالي الأطلسي. فالفرنسيون انسحبوا من الجناح العسكري للحلف في مارس ١٩٦٦ كما أن البريطانيين يعانون من الترهل، فيما تتراقص ايطاليا بين الأحزاب المتصارعة. ويبقى أن الظروف الالمانية هي الأفضل بحيث أن الجنرال

«الكسندر هيغ» وقد شغل لفترة منصب القائد العام لقوات الحلف، وصف بون ذات مرة بأنها عاصمة الأطلسي، مع أنها لا تطل على المحيط، بل تغتسل بمياه بحر الشمال...

لكن الالمان يشعرون وكأن عليهم أن يتصرفوا كما العمالقة الذين فرض عليهم المكوث في القاع. هذا ما قاله «هنريش بويل» تحديداً: «اننا نتنفس نصف الهواء، نرى نصف السماء، نعمل لنصف المستقبل» اذ ينبغي أن تنقسم الكرة الأرضية الى قسمين، أو بالأحرى يجب أن تنفجر. حيث أن احدى الصحف الفرنسية طلعت بتعليق خلصت فيه الى أن كل الماني جاسوس حتى يثبت العكس. مضيفة بأن الالمان «جعلوا الاتحاد السوفياتي العضو الرئيسي في حلف شمالي الأطلسي.. أجل إنه يوجد بيننا، وينبغي أن نفتش رؤوس الجنرالات الالمان بدقة قبل أن يدخلوا، فهناك توجدالأبالسة». لقد تطرقت هذه الصحيفة الى هذا القول بعد أن أثيرت قصة «مانفريد روتش» الشهيرة حيث كان هذا الأخير رئيس قسم التخطيط في شركة «ميسر شميث - بولكوف - بلوف» واعتقل في شهر سبتمبر ١٩٨٤، بعد اتهامه بالعمل لحساب الاستخبارات السوفياتية وتسليمها معلومات تتعلق بمشاريع أطلسية بالغة الحيوية من بينها: مشروع الطائرة المقاتلة «أ. س. ف» الذي بدأته خمس دول أوروبية قبل سنتين. وتصاميم الطائرة المقاتلة «تورنادو» التي تنتجها ايطاليا وبريطانيا والمانيا الغربية. ومشروع «ستيلث» ذي الحيوية التكنولوجية الخاصة، والذي يهدف الى جعل الطائرات والصواريخ غير مرئية على شاشة الرادار. إن هذا الرجل، وكما ورد في قرار الاتهام، عمل لحساب الاستخبارات السوفياتية، طوال ثلاثين عاماً. والمثير أنه لدى العودة الى ملفه الشخصي، تبين أن جهاز الاستخبارات الفيدرالية الذي أخضعه للمراقبة ولفترة طويلة، كما هي الحال بالنسبة لجميع الذين يشغلون مراكز حساسة، لم يأخذ عليه أي مأخذ. بل على العكس من ذلك أشارت الى انضباطيته المطلقة

ولكن دائماً يلقى القبض على المتهم بعد فوات الأوان. فقبل انفجار

قضيـة «تيدغي» كـانت السلطات الالمانيـة الغربيـة تحقق في اختفاء سكـرتيرة تعمل في مقر قيادة الجيش في بون وتدعى «أورسولا ريختر» (٥٣ عاماً)، فيما تشير المعلومات الى تورطها في عملية تجسس لحساب المانيا الشرقية. وهذه التحقيقـات جاءت في أعقـاب اختفاء السكـرتيـرة السـابقـة لـوزيـر الاقتصـاد الالماني الغربي، وتدعى «سوينا لوينبرغ» (٦٠ عاماً) اضافـة الى شخص آخر يحمل اسم لورنز (٥٣ عاما) وهو من العاملين أيضا في مقر قيادة الجيش. وها أن عملية أكبر بكثير تظهر على السطح بعدما تبين ان «مارغريت هـوكي» التي تعمل سكرتيرة في مكتب الرئيس الالماني هي «جاسوسة خطيرة». .

البعض يصفـونهم بـ «الجراثيم الثمينة». الكن ضابـطاً فرنسيـاً قديمـاً هو «لـوران بيترلي» لا يتـورع عن الدعـوة الى تقسيم المانيـا الى أربـع دول على الأقل، لأن تقسيمها الحالي لا يحل المشكلة، بل إنه يتيح المجال أمام الالمان كي يزرعوا الألغـام في القاع حيث هم الآن: «انهم أشعلوا الحـرب العالميـة الثانية وهزموا. لكنهم يخططون الآن للحرب العالمية الثـالثة ليهـزموا مـا تبقى من البشرية انتقاماً لهزيمتهم.

والـواقع أن مـوجة هـائلة من الخـوف سـادت الأوسـاط العسكـريـة في الغرب، حتى أن صحيفة «لاكروا» الفرنسية ألمحت الى ضرورة تحديد أسس جديدة لتداول الأسرار. والى حد الدعوة الى «تحييد» المانيا الغربية عسكرياً، بحيث لا تبقى عبارة عن صندوق بـريد تنتقـل عبره كـل الأسرار الاستـراتيجية الغربية الى الاتحاد السوفياتي. وتبعاً لمـا تقولـه الصحف المقربـة من الحزب الديمقراطي المسيحي في بون، فإن الهدف السوفياتي من زرع الجواسيس قد لا يكـون جمع المعلومـات فحسب، بل زعـزعة الـبنيـة النفسيـة في المـانيـا الغربية، وذلك من خلال هـذا النوع من «الانقـلابات الباردة». وهذا مـا يدفـع «هيلموت كول» أن لا يكتفي بدحرجـة بعض الرؤوس التي لن تكـون الأخيرة بأي حال. والواقع أن قضية تيدغي أكبر من أن تعالج بإطـاحة «هيلينبـرويش» الذي كان رئيساً لتيدغي قبل تعيينه رئيساً للإستخبارات الفيدراليـة. . . وبعيدا

عن ذلك، أصبح «هانس يواكيم تيدغي» بمأمن تام لكي يمضي شيخوخة ذهبية بعد «الانجازات» الهائلة التي حققها لألمانيا الشرقية والاتحاد السوفياتي. والمثير أن ترتفع أصوات أوروبا تدعو الى اعتبار الجاسوسية في المانيا الغربية أمراً مشروعاً. فإذ ذلك يمتنع حلف الأطلسي عن «وضع حياة شعوبه بين أيدي السكرتيرات والمخمورين والقتلة». فيما يدعو البعض الآخر الى وقف الخطأ الاميركي بعسكرة المانيا. لكن الأوروبيين لا يفهمون المانيا ولا الالمان جيداً... الذين يتنفسون نصف الهواء ويرون نصف السماء ويعملون لنصف المستقبل: «اننا نرتدي تاريخاً ممزقاً، ونعيش موتاً ممزقاً» هكذا يقول الماني آخر هو «كورت لينتغر». كلام خطير يعني أن الالمان لم ينسوا جراحهم القديمة بمجرد أن قامت المباني الجديدة، وعليهم أن يدمروا العالم مرة أخرى..

هؤلاء الذين يتذكرون جيداً ساعات برلين «التي اغتصبت كنساء الأرصفة» كما يقول النازي الجديد «هربرت براكل» يملكون كل الكراهية التي تجعل منهم جواسيس الدرجة الأولى...

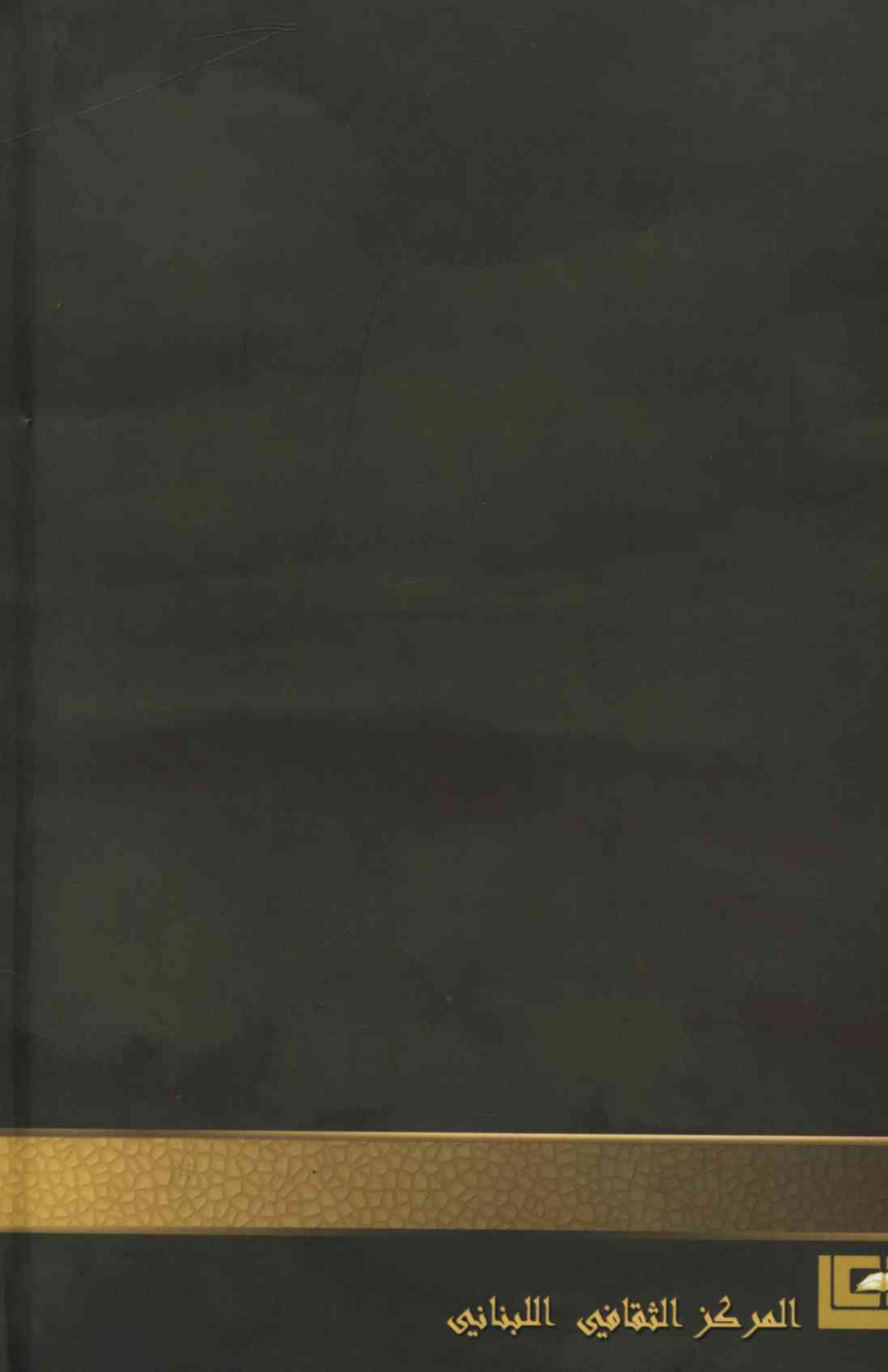
والمهم أن الأطلسيين يستعيدون المعلومات التي كانت في رأس تيدغي.. انهم لا يستطيعون تحطيم رأسه.. إذن فليعملوا على تحطيم المعلومات.. ويقال بأن الصواريخ النووية قد ذابت في كؤوس النبيذ...

وفي مكان آخر من هذا الكون الواسع يشربون نخب أحد العمالقة الذي يسمى «هانس يواكيم تيدغي»..

وليس بوسعنا نحن الشرقيين، وخصوصاً أبناء دول العالم الثالث، إلا أن نشارك عن بعد في شرب نخب تيدغي الذي قام بواجب لن تنساه الانسانية أبد الدهر..

الفهرس




المركز الثقافي اللبناني